هنري ميللر

ربيع أسود



ترجمة:
أسامة منزلجي

رواية المدى

Author: Henry Miller
Title: Black Spring
Translator:Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2009

المؤلف : هنري ميللر
عنوان الكتاب : ربيع أسود
المترجم : أسامة منزلجي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٩

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

هنري ميللر

ربيع أسود

ترجمة: أسامة منزلجي

الحيّ الرابع عشر

إنَّ ما لم يحدث في عراء الشارع المفتوح مصدره زائف، أي، أنه أدب.

إهداء المؤلِّف

إلى أنابيس نن

هل أستطيع أنْ أكون كما أعتقد نفسي أم كما يراني الناس ؟ هنا تصبح هذه الأسطر اعترافاً في حضرة ذاتي المعروفة والمجهولة، المعروفة والمجهولة بالنسبة إليّ. هنا أبتدع الأسطورة التي يجب أنْ أدفن نفسي فيها.

ميغيل دو أونامونو

أنا إنسان وطني - من الحيّ الرابع عشر في بروكلن، وهناك نشأت. باقي الولايات المتحدة لا وجود لها بالنسبة إليّ، إلاّ كفكرة، أو كتاريخ، أو كأدب. في سن العاشرة انتُزِعتُ من تربتي الأصلية ونُقِلتُ إلى مقبرة، مقبرة لوثريّة، حيث الشواهد دائماً مُنظَّمة والأكاليل لا تذبل أبداً.

لكنني وُلِدتُ في الشارع وترعرعتُ في الشارع. " الشارع المفتوح في عصر ما بعد المكننة حيث أجمل النباتات الحديدية المُهلوسة " الخ... وُلِدتُ في برج الحَمَل الذي يمنح جَسَداً ناريّاً، حيويّاً، مُفعماً بالطاقة ونوعاً ما قلقاً. ***مع المرّيخ في البرج التاسع*** !

أَنْ تولَدْ في الشارع يعني أنْ تهيم على وجهك طوال حياتك، أنْ تكون حراً. يعني المُصادفة والطارئ، الدراما، والحركة. وقبل كل شيء، يعني الحُلُم، تناغماً من الحقائق المتنافرة يُضفي على هيامك يقيناً من ميتافيزيقياً. في الشارع تتعلَّم حقيقة البشر ؛ وإلاّ، أو بعد ذلك، اخترعتهم. إنَّ ما لا يوجد في عراء الشارع هو زائف، مُستنبَط، أو بمعنى آخر، هو ***أدب***. لا شيء مما يُسمّى بالـ " مغامرة " يقترب من نكهة الشارع. ولا يهمّ سواءً أطرتَ إلى القطب، أم جلستَ على أرض قاع المحيط حاملاً حزمة من الأوراق بيدك، أم اقتلعتَ تسع مدنٍ واحدة بعد أخرى، أو أبحرتَ، كما فعل كورتز[١]، إلى أعالي النهر وجُننت.

---

١ - كورتز : بطل رواية " قلب الظلام " لجوزيف كونراد . - المترجم

ومهما كان الموقف مُثيراً، أو لا يُطاق فهناك تحسينات، ووسائل راحة، وأدوات مُعوِّضة، وصُحُف، وأديان. ولكن في يومٍ من الأيام لم يكن هناك شيءٌ من ذلك. في يوم من الأيام كنتَ حراً، جامحاً، ومتعطّشاً إلى الدماء...

رفاق الصِبا الذين بجَّلتهم عندما نزلتَ إلى الشارع للمرة الأولى يبقون معك طوال حياتك. إنهم وحدهم الأبطال الحقيقيون. أما نابوليون، ولينين، وكابون - فمحض خيال. نابوليون بالنسبة إليّ لا يُقارَن بإيدي كارني الذي أعطاني أول عين سوداء. لم أقابل رجلاً في حياتي يُضاهي ليستر ريردن في بهائه وفخامته ونبله ؛ كان بمجرَّد تمشّيه جيئة وذهاباً في الشارع يُثير الخوف والإعجاب. إنَّ جول فيرن لم يقُدني إلى الأماكن الموجودة في كُمّ ستانلي بوروفسكي بعد أنْ يحلّ الظلام. وروبنسن كروزو ينقصه الخيال بالمقارنة مع جوني بول. كل أولئك الشبان من الحي الرابع عشر لا تزال تميّزهم نكهة معيَّنة. إنهم ليسوا مُلفَّقين أو مُخترَعين : إنهم حقيقيون. أسماؤهم ترنُّ كالقطع الذهبية - توم فولر، جيم بكلي، مات أوين، روب رامسي، هاري مارتن، وجوني دَنْ، ناهيك عن أيدي كارني وليستر ريردن. ولِم لا، إنني الآن وأنا ألفظ اسمَ جوني بول أشعر بأسماء القديسين تتركُ طعماً كريهاً في فمي. كان جوني بول هو الأوديسة الحيّة للحي الرابع عشر : وكونه صار فيما بعد قائد شاحنة هي حقيقية لا صِلة لها بالموضوع.

قبل حصول التبدُّل العظيم لم يكن يبدو أنَّ أحداً يُلاحظ أنَّ الشوارع قبيحة أو قذرة. فإذا كانت مجاري الصرف مفتوحة فإنكَ تمسك أنفك، وإذا تمخّطتَ فإنكَ تجد في المنديل مخاطك وليس أنفك. كان هناك

الكثير من السلام والرضا الداخلي. كانت هناك الحانة، ومضمار السباق، والدراجات، ونساء سريعات وأحصنة خابّة. كان إيقاع الحياة لا يزال متمهّلاً. في الحي الرابع عشر على الأقلّ. لم يكن أحد يرتدي ملابس يوم الأحد الرسمية. وإذا نزلَتْ السيدة غورمن وهي في دثارها والقذى لا يزال في عينيها لتنحني للكاهن وتحيّيه "أسعدتَ صباحاً يا أبتِ!"، "أُسعدتِ صباحاً يا سيدة غورمن!" - يكون الشارع مُطهّراً من الآثام كلها. ويضع بات ماكارين منديله في طيّة معطفه، بطريقة جميلة وملائمة، كوضع زهرة نُفل في عروته. كان الزَبَد يطفو فوق الجعة، ويتوقّف الناس ليتبادلوا الأحاديث.

في أحلامي أعود إلى الحي الرابع عشر كعودة مُصاب بالارتياب إلى هواجسه. وعندما أفكِّر في البوارج الحربية بلونها الفولاذي الداكن في الترسانة البحرية أراها راسية هناك على مسافة فَلَكيّة أكونُ فيها صانع المدافع، والكيميائي، والمتعامل بالمتفجرات العالية الانفجار، والحانوتي، والمُحقق في أسباب الوفيات، والديوث، والسادي، والمحامي، والمناضل، والعالِم، والقلِق، والمضروب الرأس والصفيق الوجه.

عندما يتذكَّر الآخرون من فترة شبابهم الحديقة الجميلة، والأم الرؤوم، والمقام عند شاطئ البحر، أتذكَّرُ أنا، بحيوية وكأنها حُفِرَتْ بالأسيد، الجدران القاتمة المُغطاة بالهباب، ومداخن القصدير للمصنع المقابل لنا، وقطع القصدير البرّاقة المستديرة المنثورة في الطريق، بعضها برّاق وامض، وأخرى صدئة قاتمة، وبلون النحاس، تتركُ بُقعاً على الأصابع؛ أذكرُ مصانع الحديد، حيث يتوهجُ الفرن الأحمر والرجال يقتربون من الأتون المتلظي حاملين بأيديهم رفوشاً ضخمة، وفي الخارج أشكال خشبية

ضحلة كالتوابيت تخترقها أعمدة عليها تُكشَطُ قصبة ساقك أو تكسر عنقك. أذكُرُ الأيدي السوداء لصبّابي الحديد، بحبيبات المعدن التي غُرِزَت عميقاً في جلودهم ولا شيء يمكنه أنْ يزيلها، لا الصابون، ولا شحم الأنابيب، ولا النقود ولا الحب ولا الموت. كأنها وصمة عليهم! يمشون إلى الأفران كشياطين سود الأيادي. وبعد ذلك، بعد أن تُنثَر الأزهار فوقهم، وهم باردون متصلّبون ببزّات يوم الأحد، لا يمكن حتى للمطر أنْ يزيل الحُبيبات. كل أولئك الغوريلات يذهبون إلى الله بعضلات منفوخة ومرض عصبي في ظهورهم وأيادٍ سوداء...

كان العالم بالنسبة إليّ مُحاطاً بتخومِ الحي الرابع عشر. فإذا حدث شيء خارجه فإما أنه لم يحدث أو لا أهمية له. إذا خرج أبي ليصطاد السمك خارج ذلك العالم لم يكن ذلك يعني لي شيئاً. أذكرُ أنفاس السُكر التي كانت تفوح منه عندما يعود إلى المنزل مساءً ويفتح السلّة الكبيرة الخضراء ويرشق مسوخه الملتوية جاحظة العيون على الأرض؛ وإذا ذهب رجلٌ إلى الحرب كان يعودُ بعد ظهر يوم أحد ويقفُ أمام باب الوزير ويُفرِغُ ما في جوفه ومن ثم يمسحه بثوبه. هكذا كان روب رامسي، ابن الوزير. أذكُرُ أنَّ الجميع أحبَّ روب رامسي - لأنه كان تافه العائلة. أحبّوه لأنه لم يكن ينفع في أيّ شيء ولم يكن يُحرّك ساكناً في هذا الشأن. لم يكن هناك فرق بالنسبة إليه بين أيام الأحد والأربعاء: فتراه يمشي في الشارع تحت المظلات التي تقطر ومعطفه على ذراعه، والعَرَق يتصبَّب من وجهه، وقدماه ترتجفان، بتلك الخطوة المترنّحة الطويلة الثابتة لبحّارٍ عائدٍ إلى الشاطئ بعد رحلةٍ طويلة، وعصير التبغ يقطر من شفتيه ويصبُّ لعنات حميمة صامتة وبعضها عالٍ وأخرى بذيئة أيضاً. يا لكسل

الرجل، يا للامبالاته، وألفاظه الفاحشة، وتدنيساته. لم يكن رجل دين، كأبيه. كلا، بل رجلاً يُلهِمُ الحبَّ ! كانت زلاّته زلاّت إنسانية وقد حملها بمرح، بسخرية، بزهوّ، كالرايات. كان يمشي في الشارع الحميم المفتوح ومصارف الغاز تنفجر، والجو تملؤه الشمس والخراء والتجديف وقد تكون فتحة بنطلونه مفتوحة وحمّالته محلولة، وربما بزّته تسطع بالقيء. أحياناً كان يسير شاحناً خطوته في الشارع كثورٍ ينزلقُ على أربع، وإذا بالشارع يُصبح نظيفاً كما السحر، وكأنَّ فتحات المجاري فُتِحَتْ وابتلعت فضلات الذبائح. ويقفُ ويلي مين المجنون على سقيفةٍ فوق دكانِ الدهّان وقد أرخى ملابسه الداخلية إلى أسفل وهو يهتزُّ طَرَباً بالحياة العزيزة. كانوا يقفون وسط الطقطقة الكهربائية الجافة الصادرة عن الشارع المفتوح ومصارف الغاز تنفجر. كدراجةٍ ترادفية حطَّمت قلب الوزير.

هكذا كان روب رامسي، رجلاً في حالة مرح مستمرة، عاد من الحرب مع نياشين ونارٍ في أحشائه. تقيّأ أمام باب بيته ومسح القيء بملابسه. كان يستطيع أنْ ينظّف الشارع أسرع من مدفعٍ رشّاش. فوابالا! تلك كانت طريقته. وبعد ذلك بقليل انطلق بدفءِ قلبه، بطريقته الرائعة، اللا مبالية، حتى نهاية الرصيف وأغرقَ نفسه.

أذكره جيداً والمنزل الذي عاش فيه. لأننا تعوّدنا على أنْ نجلس أمام عتبة باب روب رامسي ونجتمع في ليالي الصيف الدافئة ونراقب ما يجري فوق حانة رخيصة عبر الشارع. ويحدث ما يحدث طوال الليل دون أنْ يُزعج أحدهم نفسه ويسدل الستارة. يحدث ذلك على بُعد رمية حجر من دار العروض الرخيصة الصغيرة المدعوة " البَمّ ". وحول ذلك الـ " بَمّ " كانت تتناثر الحانات، وفي أمسيات أيام السبت تتكوَّن هناك أرتالٌ

طويلة تتماوج وتتدافع وتتلوّى لتصل إلى نوافذ قطع التذاكر. وفي أمسيات أيام السبت حين كانت الفتاة ذات الرداء الأزرق تبدو في ذروة بهائها، كان أحد الرجال القذرين يقفز من الترسانة البحرية من مقعده وينتزع أحد رباطَيّ جوربَيّ ميلي دوليون. وبعدها بقليل من تلك الليلة لابد أنهم سيتمشون مع بعضهم في الشارع وينحدرون ليلجوا مدخل العائلة. وسرعان ما يرتقون إلى غرفة النوم الكائنة فوق الحانة، وينزعون ملابسهم الداخلية الضيقة وتخلع النسوة مشدّ الأرداف ويهرشن كالسعادين، بينما في الأسفل كنٌ يسفحن ماء الغسيل ويقرصن آذان بعضهم بعضاً، وذلك الضحك الثاقب المُجلجل، المحصور داخل الجدران، كديناميت يتبخَّر. كنا نشاهد هذا كله من عتبة باب بيت روب رامسي، بينما العجوز في الطابق العلوي يتلو صلواته على ضوء مصباح كيروسين، يُصلّي كمعزاة فاسقة لكي تقوم القيامة، أو عندما يتعب من الصلاة ينزل بقميص النوم كجنّي خبيث عجوز، ويتعقّبنا بعصا المكنسة.

بدءاً من بعد ظهيرة يوم السبت وحتى صباح يوم الاثنين تكون فترةً لا نهاية لها، تتداخل خلالها الأمور. حالما يحلُّ صباح يوم السبت **تشعر**، والله وحده يعلم كيف، بالزوارق الحربية الراسية في الحوض الكبير. في أوقات صباح أيام السبت أكون ممتلئاً بالإثارة. وأستطيع أنْ أشاهد ظهور السفن وهي تُفرك والمدافع تُلمَّع وأشعر بثقل الوحوش البحرية الضخمة المستقرّة على بحيرة الحوض الراكدة القذرة يتركُ أثراً مُترفاً عليّ. وكنتُ قد بدأتُ أحلم بالهروب، بالابتعاد إلى أماكن بعيدة. لكنني لم أصل إلى أبعد من الضفة المقابلة للنهر، وشمالاً حتى الجادّة الثانية والشارع الثامن والعشرين، عبر خط بلت. هناك عزفتُ فالس " براعم البرتقال "

وفي الفترات التي تتخلل الفصول كنتُ أغسل عينيّ في الحوض الحديدي. كان البيانو قائماً في مؤخرة الحانة، بمفاتيحه الشديدة الصفرة وكانت قدماي لا تصلان إلى الدواسات. وكنت أرتدي بذلة مخملية لأنها كانت موضة تلك الأيام.

إنَّ كلّ ما مرَّ معي في الطرف الآخر من النهر كان جنوناً مُطبِقاً : الأرض الرملية، مصابيح أرغاند، وصور الميكا التي لا يذوب فيها الثلج أبداً، والهولنديون المجانين ذوو الأيدي المُلطّخة والحوض الحديدي الذي تغطّى بطبقةٍ طُحلبيّة من الطين اللزج، وامرأةُ هامبورغ بمؤخرتها المتدلية من فوق الكرسي، والفناء الغاصّ بالكرنب المُخمَّر... كان كل شيء يتكرَّر إلى الأبد خلال ثلاثة أرباع الوقت. كنت أسير بين أبويّ، يدٌ داخل غطاء يد أمي وأخرى داخل كُمّ أبي، وعيناي مُحكمتي الإغلاق، كالأسماك الصَدَفيّة التي لا تفتح جفونها إلا لتبكي.

إنَّ جميع تقلّبات المدّ والجزر وأحوال الطقس التي مرّتْ على النهر هي في دمي.لا أزال أشعر بانحدار الدرابزين الكبير الذي ملتُ عليه في الضباب والمطر، والذي أشاع في جبهتي الباردة هبّات قارصة من المعدّية وهي تنزلق من مزلقها. لا أزال أذكر ألواح المزلق المعشوشبة تتغضّن بينما تمخر المقدّمة عباب الماء الأخضر المُبهِج وهو يتدفّق عبر الألواح المتهادية التي تئن، ومن فوقنا طيور النورس تنحدر وتغوص مُصدِرةً صوتاً قذراً بمناقيرها القذرة، صوت افتراس في وليمة بربرية. صوت أفواه مُحكمة الإغلاق حرناً، صوت أرجل ترتطم بالماء الأخضر المضطرب.

إنَّ المرء ينتقل من مشهد إلى آخر، من عصرٍ إلى آخر، من حياةٍ إلى أخرى دون فهمٍ أو إدراك. وفجأةً يدرك، أثناء سيره في الشارع، بطريقة

لا هي بالحلم ولا باليقظة وللمرة الأولى، أنَّ السنين تفرّ، وأنَّ هذا كله قد مضى وانقضى إلى الأبد ولن يعيش إلاّ في الذاكرة، ومن ثم تتحوَّل الذاكرة إلى الداخل ببريقٍ غريب مُتشبّث ويمرّ المرء باستمرار على كل تلك المشاهد والحوادث. في الحُلم وفي اليقظة، وهو يسير في الشارع، وهو مضطجع مع امرأة، وهو يقرأ كتاباً، وهو يتحدث مع شخصٍ غريب... يحدث ذلك فجأةً، لكنه يحدث دائماً بإلحاح رائع ودائماً بدقّة رائعة، وتتدخَّل هذه الذكريات، تنهضُ كالأشباح وتنفذ في طبيعةِ كلّ مخلوق. من الآن فصاعداً صار كل شيء يتحرّك على مستويات متغيّرة - أفكارنا، أحلامنا، تحرّكاتنا، حياتنا كلها. إنها متوازي أضلاع نسقط فيه من إحدى منصّات سقالتنا إلى أخرى. من الآن فصاعداً سوف نسير منقسمين إلى آلاف الأجزاء، كحشرة بمائة رِجل، أو أم أربعة وأربعين ذات الأرجل الناعمة الحركة التي تُحدّق إلى الفضاء مُبتهجة، تمشي بشعيرات حسّاسة تنهلُ بنهمٍ من الماضي والمستقبل، وكل شيء يتحوَّل إلى موسيقى وحزن. نمشي مُتّحدين عالَماً متضامناً نؤكِّدُ انقسامنا. أثناء سيرنا ينقسم كل شيء إلى آلاف الأجزاء المتعددة الألوان كقوس قُزح. إنه تجزُّؤ النُضج. التغيُّر العظيم. في شبابنا كنا كُلاً واحداً ينفَذْ فينا رُعب العالم وعذابه حتى الأعماق. لم يكن هناك انفصال حادّ بين البهجة والحزن. كانا مُندمجين في واحد، كما تندمج حياتنا الواعية مع الحلم والنوم. ففي الصباح نستيقظ كياناً واحداً وفي الليل نغوص في ما يشبه المحيط. نغرقُ كليّاً، نتشبَّث بالنجوم وبحُمّى النهار.

ومن ثم جاء وقت بدا كأنّ كل شيء قد اعكسَ فجأةً. صرنا نعيشُ في العقل، في الأفكار، في الشظايا. لم نعد نرشف الموسيقى الخارجية

الجامحة للشوارع - أصبحنا فقط نتذكَّر. كممسوسٍ أحديّ يلتقط الخيط مراراً وتكراراً ويتقيّأه من جديد طِبقاً لأسلوب لوغاريتمي مُستحوَذ. فإذا أثارنا صدرٌ ممتلئ فإنّ الصدر الممتلئ لعاهرة هو الذي سيميلُ علينا ويُرينا للمرة الأولى روعة الكُرات الكبيرة البيضاء كالحليب. وإذا ما أثارنا مشهد انعكاسات الضوء على رصيفٍ رطب فهذا لأننا في سن السابعة أغارَ علينا فجأةً حسٌّ داخلي بالحياة القادمة بينما نحن نُحدِّق بشرود إلى مرآة الشارع البرّاقة، السائلة. وإذا ما فَتَننا مشهدَ باب هزّاز فذلك بسبب ذِكرى ليلة صيف اهتزَّتْ فيها الأبواب بنعومة وانحدرَ الضوء ليُداعِب الظل وكانت هناك سيقانٌ ذهبية وأربطة ومظلات برّاقة ومن خلال شقوق الباب الهزّاز انسابت الموسيقى والعَبَق البهيّ لأجسادٍ مجهولة، كنثرِ رملٍ ناعم على سريرٍ من ياقوت. وربما، عندما انفرجَ ذلك الباب ليُرينا لمحةً خانقة من العالم، حصلنا عندئذٍ على أول معرفة حميمة بالأثر الفادح للإثم، وأول معرفة حميمة بأنَّ هنا عبر هذه الموائد الصغيرة المستديرة المغزولة بالأضواء، وبينما أقدامنا تكشط نشارة الخشب بتكاسُل، وأيدينا تلمس جذع زجاجة بارد، هنا، كما أقول، عبر هذه الموائد المستديرة الصغيرة التي نظرنا إليها لاحقاً بلهفةٍ وتوقير شديدين، سيُقدَّر لنا بعد سنوات آتية أنْ نكتوي بأول لواعج الحب، بأول لُطخ الصدأ، بأول الأيدي السوداء المخلبيّة التي تعمل في الأتون، بالقطع القصديرية المستديرة اللامعة المُلقاة في الشارع، بالمداخن الكالحة بلون الهباب، بشجرة الدرداء العارية وهي تسود الهواء وسط برق الصيف وتصرخ وتزعق بينما المطر ينهمر، والحلزون يزحف خارجاً من الأرض الحارة بطريقةٍ مُعجزة ويصبح الهواء أزرقَ كبريتياً. هنا عبر هذه الموائد،

وتلبيةً لأول نداء، لأول لمسة يد، سيولد ألمٌ ممضّ حادّ في الأمعاء ويصيرُ الخمرُ حامضاً في الأحشاء ويرتفع الألم من أخمص القدمين وتدور أعالي الموائد المستديرة مع الألم الممضّ والحمّى في عظامنا لمجرد لمسة يد ناعمة وملتهبة. هنا دُفِنَتْ أسطورةٌ بعد أخرى من أساطير الشباب والكآبة، أسطورة ليالٍ وحشية وأحضانٍ غامضة ترقصُ على المرآة الرطبة للرصيف. ونسوة يُقهقهن بنعومة وهنَّ يهرشنَ أنفسهن، وصيحات البحّارة، وطوابير طويلة تقفُ أمام حُجرة الانتظار : وقوارب تحكُّ بعضها بعضاً في الضباب وزوارق قطر تحشرج بعنف في وجه اندفاع المدّ والجزر بينما جلس رجلٌ على جسر بروكلن ينتظر ليرمي بنفسه في البحر، أو ينتظر ليكتب قصيدة، أو ينتظر دمه ليُغادر عروقه لأنه لو تقدَّمَ خطوة أخرى لَقَتَلَه أسى حبّه.

إنَّ بلازما الحُلم هو ألمُ الفِراق. الحلم يبقى حيّاً بعد فناء الجسد. نجوبُ الشوارع بآلاف الأرجُل والعيون مُزوَّدين بهوائي من الفِراء يلتقطُ أوهى حلول الماضي وذِكراه. وفي خضم هيامنا على وجوهنا نتوقف قليلاً بين حينٍ وآخر، كنباتات طويلة ولزجة، ونبتلعُ لقمة الماضي الشهية كلها ؛ ننفتح مستسلمين خانعين لنمتصّ الليل ومحيطات الدم التي أغرقَتْ نومَ شبابنا. ونطفقُ نشربُ ونعبُّ في ظمئٍ لا يرتوي. لن نصبح كُلاً واحداً بعد الآن، بل سنعيش متناثرين وكل جزءٍ يفصله عن الآخر غشاء واه. لذلك عندما يقوم أسطولٌ بمناوراته في المحيط الهادئ تومضُ ملحمة الشباب بأكملها أمام عينيك، حلم الشارع المفتوح وصوت انحدار طيور النورس وهي تغوص حاملةً النفاية بمناقيرها، أو صوت النفير ورايات تخفقُ وكل الأصقاع المجهولة على الأرض تُبحِرُ أمام عينيك بلا تواريخ

وبلا معنى، تتدحرج كسطح طاولة في بريقٍ من ألوانٍ متعددة من القوة والمجد. ويأتي يومٌ تقفُ فيه على جسر بروكلن تنظرُ إلى أسفل إلى المداخن وهي تنفثُ دخاناً ومواسير البنادق تلمعُ والأزرار تلمعُ وينشطر الماء بأعجوبة أسفل مقدّمة المركب الحادّة القاطعة، ويمخض الماء لونيّ الأزرق والأخضر بتوهّجٍ بارد، كثلجٍ وشريط، كانكسارٍ ودخان، مع برودة الشمبانيا وخياشيم محروقة. وتشقُّ مقدمة المركب الماء بمجازٍ لا ينتهي: ويتقدَّم جسم المركب الثقيل، والمقدمة تقوم بعمل الشق أبداً، وثقلها هو ثقل العالم الذي لا يمكن وزنه، والغوص عميقاً إلى أغوار بارومترية مجهولة، إلى أعماق صدوعٍ وكهوفٍ جيولوجية مجهولة يجري فيها الماء بإيقاعٍ مُنغَّم والنجوم تتهاوى وتموت وأيدٍ تمتدُ وتمسكُ وتتمسّكُ ولا تتشبَّث أبداً أو تُحكِم الإمساك بل تتمسَّك وتُمسك فقط بينما تنهار النجوم نجماً بعد آخر، بآلافٍ وآلاف من العوالم تغوصُ عميقاً داخل توهُّج بارد، داخل ليلٍ مُعتم من الأخضر والأزرق مع ثلجٍ مكسور واحتراق الشمبانيا وصرخة النوارس الخشنة، بمناقيرها المُثقلَة بالقشريات البحرية، وأفواهها الملوّثة بالنفايات دائمة الامتلاء تحت صمت رافدة السفينة.

ينظر المرء إلى أسفل (من جسر بروكلن إلى بقعةٍ من الزبَد أو بحيرة صغيرة من الغازولين أو إلى شظية أو ماعونٍ مُفرَّغ والعالم يجري من حولك يتخبَّط بالألم والنور يلتهمُ الأحشاء وجوانب اللحم تتفجَّر، والسهامُ تضغطُ بشدّة مُخترقةً الغضروف، ويطفو الدرعُ الذي يقي الجسد مُبتعداً في العدم، وتجتاحك كلمات مجنونة من العالم العتيق ؛ إشارات وبشائر، والكتابة الجدارية ؛ الشقوق في باب الحانة ؛ لاعبو الورق

بغلايينهم الغضارية ؛ الشجرة الكالحة المُستندة إلى مصنع القصدير، والأيدي السوداء المُلطّخة حتى بالموت. يسيرُ المرءُ في الشارع ليلاً والجسر ينهضُ في وجه السماء كقيثارة وعيونُ النوم المتقرّحة تلتهبُ في الأكواخ، تنزعُ الزهر عن الحيطان ؛ ينهار الدَرَج في ضباب الدخان والفئران تعدو عبر السقف، وصوتٌ مُسمَّرٌ على الباب، وأشياء زاحفة طويلة ذات هوائيات من الفرو وآلاف الأرجل تسقط من الغلايين كحبّات العرق. أشباحٌ دموية سعيدة وصراخ رياح الليل ولعنات رجال ذوي أرجلٍ دوديّة، وتوابيت واطئة قليلة العمق بأعمدة تخترق الجسد ؛ بُصاق الألم يسيلُ في اللحم البارد الشمعي، يلفحُ العيون الميتة والجفون القاسية الرقاقيّة للسمك الصَدَفي الميت. يتحول المرءُ في قفصٍ دائري على مستويات متغيّرة، نجوم وغيوم تحت السلَّم المتحرك، وجدران القفص تدور ولا وجود لرجالٍ ونساء دون أذيال ومخالب، بينما كتبت أحرفُ الهجاء فوق الأشياء كلها بالحديد والبرمنغنات. ويدورُ المرءُ ويدور في قفصٍ دائري على دويّ قرع طبل الحريق ؛ المسرح يحترقُ والممثلون يتابعون إلقاء أدوارهم، والمثانة تتفجَّر، والأسنان تسقط، لكنَّ نواح المهرِّج كضجيج سقوط قشور الرأس. يتجوَّل المرء في ليالٍ ظلماء في وادٍ من فوهات البراكين ؛ وادٍ من نيرانٍ خامدة وجماجم مُبيَّضة، وعصافير بلا أجنحة. ويمشي المرء ويمشي بحثاً عن المحور والعُقَد. لكنَّ النيران احترقت حتى الرماد وجنس الأشياء مُستتر في إصبع قفّاز.

ومن ثم في أحد الأيام، وكأنَ اللحم قد اهترأ فجأةً والدم تحت اللحم التحمَ مع الهواء، إذا بالعالم يهدرُ من جديد، وينصهر الهيكل العظمي للجسم نفسه كالشمع. قد يحلُ مثل ذلك اليوم عندما تقابل

دوستويفسكي للمرة الأولى، فتتذكَّر رائحة مفرش الطاولة الذي تستقرُ عليه الكتب، وتنظر إلى الساعة فتجد أنها قُبيل حلول الأبدية بخمس دقائق. فتعدّ الأشياء الموجودة على رف المدفأة لأنَّ جَرْسَ الأرقام صار جديداً كليّاً في فمك ؛ لأنَّ كل ما هو جديد وعتيق، أو ملموس ومنسي، هو نار ونومٌ مغناطيسي. وإذا بجميع أبواب القفص تُفتح وأي طريق تسلكها هي خطٌ مستقيم يصخبُ المُجلجلون وهم يعبرونه وتنقضُّ جلاميد الرخام والنيلة لتبرِّد بيوضها المحمومة ؛ ومن الأمواج تخرج الأحصنة المصقولة في خطوة فوسفورية شامخة مُتبخترة التي رافقت الإسكندر، ببطونها الممتلئة فخراً والمتوهجة بالكالسيوم، وأنوفها مغموسة بصبغة الأفيون. والآن يغطّي الثلج والجليد كلَّ شيء، ويحملُ شريطٌ كبير شعار الجوزاء مُعلّق من منفرج المحيط.

كانت الساعة تشير إلى تمام السابعة وخمس دقائق، عند زاوية برودواي وشارع كوسيوسكو عندما ومضَ دوستويفسكي للمرة الأولى في أفقي. كان هناك رجلان وامرأة يهندمون واجهة دكان، وبدءاً بالجزء العلوي من أقدام تماثيل العرض وإلى أسفل مؤلَّف كله من أسلاك، وكانت هناك صناديق أحذية فارغة أُسنِدَتْ إلى طرف الواجهة كثلوج العام المنصرم...

هكذا ظهر اسم دوستويفسكي. بلا تباهٍ، كصندوق حذاء فارغ. كان لليهودي الذي لفظَ لي اسمه شفتان غليظتان، فمثلاً ما كان في استطاعته أنْ يقول فلاديفوستوك ولا كارباثيون - لكنه يستطيع أنْ يلفظ دوستويفسكي بطريقةٍ قُدسيّة الروعة. وحتى الآن عندما ألفظ اسمَ دوستويفسكي تتراءى أمامي شفتاه الضخمتان المكتنزتان وخيط اللعاب

الرفيع يمتد كشريطٍ مطاطي عند لفظ الاسم. كان بين سنّيه الأماميين مسافةٌ أكثر من عادية. وكانت كلمة دوستويفسكي ترتعش وتمتد من منتصف هذا التجويف تماماً، كغشاءٍ من اللعاب غنيّ بالألوان تجمَّع فيه ذهبُ الشفق كله - ذلك أنَّ الشمسَ كانت قد بدأتْ تغرب عن شارع كوسيوسكو وحركة السير من الأعلى تقتحم ذوبان ثلج الربيع، بضجيجٍ طاحن هادر وكأنَّ تماثيل العَرض بأرجلها السلكية يمضغ بعضها بعضاً أحياء. بعد ذلك بقليل عندما وصلت إلى أرض الهوينهنهم[٢] سمعتُ فوقي ضجة المضغ والطحن نفسها وأيضاً اللعاب في فم الرجل نفسه يرتعش ويمتد ويومض بتعدُّد ألوانه في الشمس النافقة. حدث ذلك هذه المرّة في محل " حَلْق التنين " ؛ فقد كان هناك رجل يجلس في موقع يعلوني ويمسك بعصا من الروطان ويضرب بها ضرباً مُستمراً يبتسمُ ابتسامته العربية الضارية. ومن جديد، وكأنَّ عقلي صار رحَماً، أفسَحَتْ جدران العالم الطريق. رنَّ اسم سويفت كصوت تبوُّل صعب صافٍ على غطاء العالم المصنوع من القصدير. وفي الأعلى كان آكل النار الأخضر بأمعائه الدقيقة ملفوفة بقماش التربولين، وسنّيه الضخمين الأبيضين بياض الحليب يعضّان على حِزام بمسننات مدهونة بشحمٍ أسود وموصول بصالة الرماية وبالحمّامات التركية. كان الحزام المُسنَّن ينزلق على إطارٍ من العِظام المُبيَّضة. يتحرَّك تنينُ سويفت الأخضر فوق المُسننات بصوت تبوُّلٍ لا ينقطع، يطحنُ مُحدِثاً صريراً رقيقاً ويُزبد في قصر الأقزام المحشورين كعيدان المعكرونة، يدخل ويخرج من المري ويرتقي عظام

٢ - أرض الهوينهنم : هي أرض سكّانها من الخيول المتكلمة في رواية " رحلات غاليفر " لجوناثان سويفت

الكتف ثم ينحدر منها وحولها وحول الحَلَمَة المُثلّثة، ويسقط في هوّة الأحشاء التي لا قرارة لها، تقرقع ولا تقرقع، ويتّسع الانفراج وينزلق، وتتقدَّم المُسننات بلا رحمة وتمضغ عيدان المعكرونة القصيرة والرفيعة وهي حيّة ومُعلّقة من سبلتيها من حلق التنين الأحمر. نظرتُ داخل ابتسامة المُنادي البيضاء كالحليب ؛ تلك الابتسامة العربية المتعصّبة التي خرجت من نار أرض الأحلام، ومن ثم تقدَّمتُ بهدوء داخل بطن التنين المفتوح. وبين أضلاع الهيكل العظمي المجنونة التي تُمسك المسننات الدائرة مع بعضها تمتدُ أرض الهوينهنم أمام ناظري ؛ وتلك الضجة الهاسّة الباسّة في أذنيّ وكأنَّ لغة الناس مؤلّفة من ماء سلتزر. وفي كل مكان، فوق الحِزام الأسود المُشحَّم، والحمامات التركية، وخلال بيت الرياح، وفوق المياه السماوية الزُرقة، بين الغلايين الغُضارية والكُرات الفضيّة المتراقصة على نوافير مائية يوجد عالم دون البشر من قبعات الفيدورا وآلات البانغو الموسيقية، والمناديل المُزركشة والسيجار الأسود، وحلوى البترسكوتش التي تمطّ من طرفٍ إلى طرف، وانفجار زجاجات البيرة، وزجاجات الدبس المغزولة، وأطباق الطحال الساخن، وهدير أمواج الشاطئ، وأزيز القلي في المقلاة، والزَبَد وشجر الأوكاليبتوس، وجرأة، وطباشير، وقصاصات ورق ملوَّن، وفخذ امرأة أبيض، ومجداف مكسور، وضجيج ألواح خشبية، وأحجية ميكانو، والابتسامة التي لا تغيب عن الذهن، والابتسامة العربية ذات الألسنة النارية، والعقيق الأحمر، والأمعاء الخضراء...

آه أيها العالم، أيها المشنوق المنهار، أين الأسنان البيضاء القوية ؟ آه أيها العالم، الغارق مع الكرات الفضيّة وسدادات الفلّين وأطواق

النجاة. أين فروات الرؤوس الوردية ؟ آه أيها الأجرد، الآحي، آه أيها العالم الأجرد الممضوغ حتى الاهتراء، تحت أيّ قمرٍ ميّت تستلقي بارداً ولامعاً ؟

اليوم الثالث أو الرابع من الربيع

فليكن بولكَ دافئاً وشرابكَ بارداً، كما يقول تريمالخوس،
لأنَّ أمّنا الأرض تقع في الوسط، خُلِقَتْ مستديرة كالبيضة،
وتحتوي داخلها على الطيبات كلها، كقرص العسل.[٣]

---

٣ – هذا المقطع مأخوذ من كتاب " ساتايريكون " ، من تأليف بترونيوس (انتحر في عام ٦٦ م) ، وهو كاتب روماني . والكتاب يحكي عن روما في فترة انحطاطها

المنزل الذي أمضيتُ فيه أغلب سنوات حياتي الهامة لم يكن يتألّف إلا من ثلاث غُرَف. مات جدّي في إحداها. وفي الجنازة كان حزن أمي من الشدّة والعنف حتى كادت تنزع جدّي من التابوت. بدا منظره مُثيراً للسخرية، أقصد جدّي العزيز، وهو يبكي من خلال دموع ابنته، وكأنه يندب جنازته هو.

في غرفةٍ أخرى أنجبت عمّتي توأماً. ولما سمعتُ كلمة توأم، وكانت عمتي نحيفة عجفاء، قلت لنفسي - ولماذا توأم ؟ لماذا لا يكونون ثلاثة أو أربعة ؟ لماذا تتوقّف ؟ كانت سقيمة جداً وهزيلة، والغرفة صغيرة جداً - بجدران خضراء وبالوعة حديدية قذرة في الزاوية. ومع ذلك كانت الغرفة الوحيدة في البيت التي أنتجَتْ توأماً - أو ثلاثة أو حميراً.

الغرفة الثالثة كانت أشبه بفجوة في جدار أُصِبتُ فيها بالحَصبة، وبجديرة الماء وبالحمى القرمزية، وبالدفتيريا، الخ : أي بكل أمراض الأطفال الجميلة التي تجعل الزمن يمتد بنعيمٍ وبَركة أبديين، خاصة حين تُرسل العناية الإلهية نافذة فوق السرير بقضبان وغيلان تقبض عليها مُتشبثة وعَرَقاً كثيفاً كثافة الدُمل، وغزيراً كمياه النهر، وتتكاثر وتتكاثر وكأنَّ الفصلَ ربيعٌ دائم واستوائي، مع شرائح سميكة مشوية من لحم الخاصرة من أجل أيدٍ وأرجلٍ أثقل من الرصاص أو خفيفة كندف الثلج، أرجل وأيدي تُباعد فيما بينها مُحيطات من الزمن أو أصقاع

شاسعة من النور لا يمكن تجاوزها، وكتلة المخ الصغيرة مُستترة كحبة رمل وأظافر أصابع الأقدام تتعفَّن بمنتهى السعادة تحت أطلال أثينا. في هذه الغرفة لم أسمع غير صرعات الجنون. ومع كل مرض مُنعِش جميل كان يزداد تشوّش ذهن والديّ (" تصوَّر، عندما كنتَ طفلاً وليداً حملتُكَ إلى المغسلة وقلتُ لا أظنكَ ترغب في الشرب من الزجاجة بعد الآن أليس كذلك فقلتَ كلا وقمتُ بتحطيم الزجاجة في المغسلة "). وإلى هذه الغرفة جاءت الآنسة سونوفسكا تخطو بنعومة (قال الجنرال سميردياكوف " بنعومة تخطو ") وهي عانس في سنٍ يُثير الريبة بثوبٍ أخضر قاتم، ومع دخولها دخلت رائحة الجبن العتيق - وصارت رائحتها الجنسية زنخاً يفوح من تحت ثوبها، لكنَّ الآنسة سونوفسكا جلبت معها أيضاً حقيبة القدس والأظافر التي غرزت عميقاً في يديّ يسوع حتى أنَّ التجاويف لم تزل أبداً. ومع الحملات الصليبية أتى الموت الأسود، ومع كولومبوس أتى السفلس ومع الآنسة سونوفسكا أتت الشيزوفرينيا.

شيزوفرينيا ! لم يعد أحد يفكِّر أبداً كم هو رائع أنْ ينهش المرض جسد العالم كله. لا إشارة، لا ذكِر للصحة. لعلَّ الله نفسه حمّى تيفيّة. لا وجود لمُطلقات. بل مجرَّد سنين ضوئية من التقدُّم المؤجَّل. عندما أفكِّر في تلك العصور التي صارعت خلالها أوروبا الموت الأسود أدركُ كم يمكن أنْ تكون الحياة متوقّدة لو أننا نُصاب في المكان المناسب ! يا لروعة الرقص والحمّى وسط ذلك الدمار ! ربما لن تسنح الفرصة لأوروبا أنْ ترقص بنشوة كهذه. والسفلس ! يا لمجيء السفلس ! كان هناك مُعلّقاً كنجم الصباح فوق حافة العالم.

في عام ١٩٢٧ جلستُ في البرونكس أصغي إلى رجلٍ يقرأ من

مفكّرةِ مدمن مخدرات، وكان بالكاد يستطيع متابعة القراءة، لأنه كان يضحك ضحكاً صاخباً. كانتا ظاهرتين متناقضتين تماماً : رجلٌ يتمدد في الضياء ومشدود إلى درجة أنَّ قدميه خارجتان من النافذة، تاركاً النصف العلوي من جسمه في حالة نشوة، والرجل الآخر، وهو الرجل نفسه يجلس في البرونكس وهو يضحك حتى يكاد يلفظ أحشاءه لأنه لا يفهم.

نعم، إنَّ شمس السفلس العظيمة تغرب. ***قِصَر النظر***: هذا هو مستقبل برونكس، وأميركا، والعالم الحديث بأكمله. قِصَر نظر مصحوب بنوبات من الضحك. لا نجوم جديدة في الأفق، بل ***كوارث***... فقط كوارث.

أفكِّرُ في الزمن الآتي حين سيولد الله من جديد، حين سيحارب الرجال ويقتلون من أجل الله كما يفعلون الآن وسيفعلون لزمن طويل من أجل الطعام. أفكِّر في ذلك العصر الذي سيُنسى فيه العمل وتحتل الكتب مكانتها الصحيحة في الحياة، حين لن يكون هناك كتبٌ ربما، بل فقط كتابٌ واحد كبير وعظيم - إنجيل. بالنسبة إليّ الكتاب هو الإنسان، وكتابي هو الإنسان الذي هو أنا، المضطرب، المتهاون، المتهوِّر، الشهواني، الداعر، العاصف، المفكِّر، الشكّاك، الكذَّاب، الصادق بطبيعتي بشكل شيطاني. أفكِّر في أني في العصر الآتي لن يتم تجاهلي. حينئذٍ سيصبح تاريخي شيئاً هاماً والندبة التي سأتركها على وجه العالم ستكون مميَّزة. لا أستطيع أنْ أنسى أنني أصنع تاريخاً، تاريخاً في الجانب الذي، كالقرحة التناسلية، سيلتهم التاريخ الآخر التافه. إنني لا أعتبر نفسي كتاباً، أو سجلاً، أو وثيقة، بل تاريخاً لعصرنا - تاريخاً ***لكل*** العصور.

إنْ كنتُ تعيساً في أميركا، إنْ كنتُ قد تقتُ إلى أفقٍ أرحب، إلى مزيدٍ من المغامرة، وحرية التعبير، فلأنني احتجتُ إلى تلك الأشياء. إنني ممتنّ لأميركا لأنها جعلتني أعي احتياجاتي. لقد استوفيتُ عقوبتي هناك. والآن لم تعد لي احتياجات. أنا رجل بلا ماضٍ ولا مستقبل، لا يهمني إنْ كنتُ مُقتنعاً بصحةِ ما أقول أم لا. وسيّان لديّ إنْ تخلّيتَ عني هنا والآن. لستُ مِرذاذا تضغطني فأرسلُ رذاذ الأمل. أرى أميركا تنشر الدمار. أرى أميركا لعنة سوداء على العالم. أرى ليلاً طويلاً يحلُّ وذلك الفِطر الذي سَمَّ العالم يذوي من جذوره.

إذن أنا أكتبُ هذا الكتاب بشكلٍ محموم ويمسسني هاجسٌ بحلول النهايةِ - سواء أحلَّت غداً أو بعد ثلاثمائة عام - وأفكاري تخرج مختلطة بين حين وآخر، حتى إنني مُجبَر على إشعال اللهب مراراً وتكراراً، ليس بالشجاعة وحدها، بل باليأس - لأنني لا أثق بوجود مَنْ يقول هذه الأشياء عني. إنَّ تعثُّري وتلمُّسي طريقي، وبحثي عن كل وسيلة من وسائل التعبير، هو نوع من التلعثُم العُلوي. ***يا لذهولي أمام الانهيار المجيد للعالم!***

في كل ليلة، بعد العشاء، أحملُ النفايات إلى الفناء. ولدى صعودي عائداً بالدلو الفارغ كنتُ أشرفُ من نافذة مسطبة الدَرَج على كنيسة " القلب الأقدس " شاهقة هناك فوق هضبة مونمارتر. وفي كل ليلة، حين أحمل النفاية إلى الساحة، كنتُ أتخيَّل نفسي واقفاً فوق هضبة عالية وسط بياض باهر. ليس قلباً مُقدّساً ما يُلهمني، ولا أفكِّر في مسيح ؛ إنه شيء أفضل من المسيح ؛ أكبر من القلب، يقعُ ما وراء الله تعالى كما أفهمه - إنه أنا نفسي. ***أنا إنسان***. ويبدو لي هذا كافياً.

أنا نصير الله ونصير الشيطان. أعطي لكلٍ حقّه. لا شيء أبدي ولا شيء مُطلَق. أمامي تتمثَّل دائماً صورة الجسد، إلهنا الثالوثي المؤلَّف من القضيب والخصيتين. إلى اليمين الله الآب، وإلى اليسار ومُتدلٍ قليلاً نحو الأسفل الله الابن، وبينهما إلى أعلى يقع الروح القُدُس. لا يمكنني أنْ أنسى أنَّ هذا الثالوث المقدَّس هو منْ صُنع الإنسان وأنه خاضع لتغيّرات لا متناهية - ولكن ما دام أَنَّ مخرجنا من الأرحام بأذرعٍ وأرجل، ما دام هناك نجومٌ فوقنا تبثُّ فينا الجنون وعشبٌ تحت أقدامنا يوسِّد المعجزة فينا، ما دام هذا قائماً فسوف يؤدي جسدنا كل الأنغام التي نؤديها بالصفير.

اليوم هو الثالث أو الرابع من الربيع وأنا جالس في ساحة كليشي والشمسُ ساطعة. اليوم، وأنا جالس هنا تحت أشعة الشمس، أقولُ لكَ إنه لا يهمني البتّة إنْ كان العالم على حقٍ أم على خطأ، خيِّراً أم شريراً. لا يهمّ إنْ كان العالمُ سيؤول إلى الكلاب. ***إنه موجود***. وهذا كاف. العالمُ هو ما هو عليه وأنا ما أنا عليه. إنني لا أقول هذا على طريقة بوذا الجالس متصالب الساقين، وإنما بحِكمةٍ بهيجة صعبة، وهذا كله، ***كل شيء***، هو وليد قوى لا يمكن تفسيرها، فوضى عظمى نظامها يتجاوز كل فهم.

أتجول كمخلوقٍ بشري عند الشَفَق، أو الفجر، في ساعاتٍ غريبة، في ساعاتٍ عُلويّة، يدعمني إحساسي بكوني وحدي وفريداً إلى درجة أني عندما أمشي مع الجموع ولا أعود أبدو مخلوقاً بشرياً بل مجرَّد ذرّة ضئيلة، بصقة، أبدأ بالشعور بأني وحيد مُحاط بأروع الشوارع الخالية، مخلوقٌ آدمي يمشي على اثنتين بين ناطحات السحاب بعدما هرب السكان جميعهم وأنا وحدي أمشي، أغني، أفرِضُ أوامري على الأرض،

لستُ مُجبَراً على النظر في جيب صدريتي لأجد روحي ؛ إنها موجودة طوال الوقت ترتطمُ بأضلعي، تنتفخ، تتضخَّم، بأغنية. إذا تركتُ لتوي جمعاً من الناس اتفّقوا على أنَّ كل شيء قد مات الآن وأنا أسير في الشارع، وحيداً ومتطابقاً مع الله، أعرفُ أنَّ هذا كذب. إنَّ برهان الموت موجودٌ أمام عينيّ دائماً، لكنَّ موت العالم هذا، وهو مستمر دائماً، لا يتحرَّك مُخترقاً نطاق المحيط الخارجي، ليُحاصرني، هذا الموت موجود عند موطئ قدميّ؛ يتحرَّك خارجاً مني؛ إنَّ موتي دائماً يتقدَّمني بخطوة. العالمُ هو مرآة ذاتي وهي تموت. العالم لم يعُد يموت أكثر من موتي. وبعد ألف عام سأكونُ أكثر حياةً من هذه اللحظة ومن هذا العالم الذي أموتُ فيه الآن؛ سيكون أيضاً أكثر حياة مما هو الآن على الرغم من أنه مات قبل ألف عام. عندما يُعاشُ كل شيء حتى الرمق الأخير لا يبقى هناك موتٌ ولا ندامات، ولا يبقى ربيعٌ زائف ؛ إنَّ كل لحظة تُعاش توسِّع الأفقَ بشكلٍ أعظم وأرحب لا مهربَ منه إلا بالعيش.

الحالمون يحلمون بدءاً من العنق وإلى أعلى، أما أجسادهم فمربوطة للضمان إلى الكرسي الكهربائي. أنْ نتخيَّل عالماً جديداً يعني أنْ نعيشه يوماً بيوم، حيث كل فكرة، كل لمحة، كل خطوة، كل إشارة تقتل وتُعيد الخلق، فالموت هو دائماً خطوة إلى الأمام. لا يكفي أنْ تبصق على الماضي، وليس كافياً أنْ نعلن عن المستقبل. على المرء أنْ يتصرَّف وكأنّ الماضي قد اندثر وكأنَّ المستقبل غير مُدرَك، وهذا ما يحدث. إنَّ كل خطوة إلى الأمام هي الأخيرة، ومعها يموت عالم، بما فيه نفس الإنسان. إننا هنا أبناء أرضٍ لن تبيد، وماضٍ لم ينفق، ومستقبلٍ لن يبدأ، وحاضرٍ لا ينتهي. إنَّ عالم الأوابد الذي نحمله بين أيدينا ونراه لا يمثّلنا. إننا ذلك الشيء الذي لا

ينتهي، لا يُخلَق ليُعرَف، كل شيء موجود ولكن ليس الكلّ. فالأجزاء هي أكبر بكثير من الكلّ الذي لا يُجسّده إلا الله العالِم الرياضي.

الضحك ! نصح رابليه[٤] به. لشفاء جميع أمراضكم ***الضحك*** ! يا إلهي ولكن من الصعب أنْ نقتفي أثر حِكمته العاقلة البهيجة بعد كل الأدوية الدجّالة التي صببناها في حلوقنا. كيف يمكن للمرء أنْ يضحك بعد أنْ تهترئ الملابس الداخلية كاشفة عن بطنه ؟ كيف للمرء أنْ يضحك بعد كل البؤس الذي سمَّمتنا به تلك الأرواح ذات الوجوه المَصْليّة اللون والفكوك المصباحيّة الشكل، الحزينة، المتألمة، الرصينة، الملائكية ؟ إنني أفهم الغدر الذي يُلهمهم ؛ وأغفر لهم عبقريتهم. ولكن من الصعب تحرير النفس من كل الحزن الذي سبّبوه.

حين أفكّر في كل المتعصّبين الذين صُلِبوا، وفي غير المتعصّبين، بل البسطاء السُذَّج، الذين ذُبِحوا انتصاراً لفكرة، أبدأ بالابتسام. أقول، سُدّوا جميع منافذ الهرب، أَغلقوا الغطاء بإحكام على أورشليم الجديدة ! فلنتحسَّس بعضنا بعضاً بطناً إلى بطن، ***بلا أمل*** ! الطاهرون منا وغير الطاهرين، المجرمون والمتدينين، ذوو الوجوه المَصْليّة أو الرؤوس الصغيرة - المهم أن ينضمّوا بعضهم إلى بعض، فلينضجوا على نارٍ هادئة على مدى قرونٍ طويلة في هذا المكان المحصور !

إما أنَّ العالمَ رخوٌ جداً أو أني لستُ من المتانة بمكان. إذا صرتُ غامضاً فسأصبحُ مفهوماً في الحال. إنَّ الفرقَ بين الفهم واللا فهم دقيق كالشعرة، ***بل أدقّ***، بفارق مليمترٍ واحد، خيطٌ من الفراغ بين الصين ونبتون. ومهما بلغ جنوني فالنسبة تبقى هي نفسها، ولا دخل لها

---

٤ - فرانسوا رابليه (١٤٨٣ - ١٥٥٣) : كاتب فرنسي ، عُرِفَ بسخريته وبإباحيته .

بالوضوح، والدقّة الخ (وهذه الـ الخ هامة !) يُخطئ العقل خطأً فادحاً لأنه أداة متناهية في الدقة، وتنقطع الخيوط عندما تصطدم بعُقَد خشب الماهوغاني، وخشب الأرز والأبنوس ذي الطبيعة الأجنبية. إننا نتحدث عن الحقيقة وكأنها شيء يمكنُ مجاراته، كالتدرُّب على العزف على البيانو، أو كدرس من دروس الفيزياء. لقد جاء الموت الأسود مع عودة الصليبيين، وجاء السفلس مع عودة كولومبوس، ***وستأتي الحقيقة أيضاً*** ! ***طليعة الحقيقة***، كما يقول صديقي كرونستادت، في قصيدةٍ كُتِبَتْ على قاع المحيط...

إنَّ التكهُّن بهذه الحقيقة يعني الانحياز بمقدار مليمتر واحد أو مليون سنة ضوئية. الفرق هو مقدار ضئيل نتجَ عن تداخُل الشوارع. وهذا المقدار الضئيل (كوانتوم) هو فوضى فعّالة خَلَقَتها محاولة الإنسان عصر نفسه داخل نِطاق مَرْجِع. والمرجِع هو إفرازٌ يطرحه مُستخدَم عجوز، أو بكلمةٍ أخرى، صديدٌ مُخاطيّ لمرضٍ مُزمن.

هذه أفكارٌ وُلِدَتْ من الشارع، وهي نِتاج ***الجنس المصروع***. إنك تخرجُ مُزوّداً بقيثارة متقطّعة الأوتار - لأنَّ الفكرة لم تُطمَر مورفولوجياً. فمن أجل تذكُّر الحلم على المرء أنْ يُبقي عينيه مُغمضتين بإحكام. إذ تكفي أقلّ حركة حتى ينهار البناء كله. أعرِّضُ نفسي في الشارع للعناصر المُدمّرة المُحطّمة التي تُحيطُ بي ؛ أدَعُ كل شيء يُنزِل دماره عليّ. أنحني لأتجسَّس على العمليات السرّية، ***لأطيع*** ولا آمُر.

هناك كتلٌ ضخمة من حياتي اندثرتْ إلى الأبد، كتلٌ هائلة اندثرتْ، تبعثرت، بُدِّدَتْ في الكلام، والحركة، وحلم الذكرى. لم يحدث أبداً أنْ عشتُ حياةً واحدة، حياة زوج، أو عاشق، أو صديق. فأينما حللتُ، ومهما

فعلت، أعيشُ حيوات متعددة. لذلك، أي شيء أختاره وأعتبره قصتي يضيع، يغرق، يندمج إلى الأبد مع حيوات، ودراما وحكايات الآخرين.

أنا رجلٌ من العالم القديم ؛ بذرة ازدرعتها الريح، فشلتْ في التفتُّح في أميركا، واحة الفطِر. إنني أنتمي إلى شجرة الماضي الراسخة ؛ ولائي الجسدي والروحي هو لسكان أوروبا، الذين كانوا في يومٍ من الأيام الفرنج والغال والفايكنغ والهَنّ والتتار، وغيرهم. إنَّ المناخ الملائم لجسدي وروحي هو هنا حيث السرعة والدمار. إنني فخور **بعدم** انتمائي إلى هذا القرن.

إلى المُحدّقين إلى النجوم ولا يستطيعون متابعة عمل الوحي أضيفُ بضع ضربات تنجيمية على هامش ***كون الموت*** الخاصّ بي...

أنا قرحة تناسلية، سلطعون يتحرّك بحركة جانبية وإلى الخلف والأمام على هواه ؛ أتحرّك على مدارات غريبة وأتعاملُ مع متفجرات عالية الانفجار، والتحنيط، والسوائل، وأحجار اليشب، والمُرّ، والزمرد، والتمخُّط الصافِر ومع أصابع قوائم الشيهم. وبسبب كوكب أورانوس الذي يعبُر خطوطي الطوليّة أنا مولع بالعاهرات حتى الوَله، وبالسجق الساخن وزجاجات الماء. إنَّ نبتون يُهيمن على طالعي. هذا يعني أني مُكوَّن من تدفُّق مائي، وخالٍ من الهموم ؛ دونكيخوتي، غير جدير بالثقة، حُرّ، وسريع الزوال. وأنا مُشاغب أيضاً. وحين أجلس على وسادة دافئة يمكنني أنْ ألعبَ دور المُتبجِّح أو المُهرِّج بالمهارة نفسها التي يتّصف بها أي إنسان، مهما كان البرج الذي وُلِدَ تحته. هذه صورة شخصية لا تسدُّ إلا الثغرات - هي مرساة، جرس إعلان وجبة العشاء، بقايا لحية، مؤخّرة بقرة. باختصار، أنا شخص بليد يتبوَّل وقته. ليس لديّ على الإطلاق من جهودي ما أعرضه غير عبقريتي. ولكن يأتي وقت، حتى

في حياة عبقريّ عاطل، يضطرُّ فيه إلى التوجّه إلى النافذة ليتقيّأ مخزونه الفائض. إذا كنتَ عبقرياً فعليكَ أنْ تفعل هذا - حتى وإنْ لم يكن لسببٍ آخر غير أنْ تبني عالماً صغيراً معقولاً خاصاً بكَ لا يتعطّل كساعة الأيام الثمانية ! وبقدر ما ترمي من الحصى عن سطح السفينة ترتفع أكثر فوق احترام جيرانك بسهولة، إلى أنْ تجد نفسك وحيداً تماماً في طبقات الجو العليا. ثم اربِطْ حجراً حول رقبتك واقفزْ بدءاً بالقدمين. وهذا يُدمِّر نظرية تفسير الأحلام الباطني تدميراً كاملاً، بالإضافة إلى التهاب الفم الزئبقي الذي تُسبّبه المعالجة بالمراهم. لديك الليل لتحلمَ فيه وضحكة الحصان لوقت النهار.

وهكذا، عندما أقفُ في حانة " ليتل توم ثمب " لأشاهد أولئك الرجال بوجوههم الثلاث-ربعيّة آتين عبر أبواب الجحيم المسحورة ببكراتها ومقابضها، وهم يجرّون قاطرات وآلات بيانو ومبصقات، أقول لنفسي : " عظيم ! عظيم ! كل هذه التحف العتيقة، كل هذه الآلات تأتي إليّ على طبقٍ من فضة ! شيء عظيم ! رائع ! إنها قصيدة ابتُدِعَتْ بينما كنتُ نائماً "

إنَّ الشيء القليل الذي تعلّمته عن الكتابة أوصلني إلى ما يلي : إنَّها ليست كما يظن الناس. هي شيء جديد تماماً في كل زمانٍ ومع كل إنسان. خُذْ كلمة فالباريزو، مثلاً. حين ألفظ كلمة فالباريزو فإنها تعني شيئاً يختلفُ تماماً عن أي شيء كانت تعنيه قبل ذلك. قد تعني عاهرة إنكليزية فَقَدَتْ أسنانها الأمامية كلها والساقي واقف في وسط الشارع يبحث عن زبائن. وقد تعني ملاكاً يرتدي قميصاً من الحرير ويمرِّر أصابعه الشريطية على أوتار قيثارة سوداء. وقد تعني محظيّة تضعُ ناموسية

حول مؤخرتها. قد تعني أياً من تلك المعاني، أو ولا واحد منها، ولكن مهما كانت تعني فلاشك في أنه سيكون معنى مختلفاً تماماً، شيئاً جديداً. إنَّ فالباريزو موجودُ دائماً قبل النهاية بخمس دقائق، يقعُ قُرب البيرو من هذا الطَرَف قليلاً، أو ربما أقرب إليها بثلاث بوصات. إنكَ تستخدم البوصة المربّعة العَرَضَيّة لعلاج الحمّى لأنَّ تحت مؤخرتك حشيّة حارة والروح القُدس في أحشائك - إلى جانب وجود أخطاء في استقامة العضو. إنها تعني " فليكن بولكم حاراً وشرابكم بارداً " كما قال تريمالخيو، " لأنَّ أمنا الأرض موجودة في الوسط، جُعِلَتْ مُستديرة كالبيضة، وتحتوي داخلها الطيبات كلها، كقرص العسل "

والآن، سيداتي سادتي، وبفتّاحة العُلَب الصغيرة العالمية هذه التي أحملها بيدي سأفتح أمامكم علبة سردين. بوجود فتّاحة العلب الصغيرة التي أحملها بيديّ يصبح كل شيء سيّان - سواء أردتم أنْ تفتحوا صندوقاً من علب السردين أم صيدلية. إنه اليوم الثالث أو الرابع من الربيع، كما سبق وأخبرتكم مراتٍ عِدّة، ومع ذلك فهو ربيع بائس، رثّ، يُثير الذكريات، وميزان الحرارة يدفعني إلى الجنون كأنه بقّة الفراش ؟ ظننتم أني كنتُ لا أزال أجلس في ساحة كليشي طوال الوقت، أشربُ شراباً مُقبّلاً. في الحقيقة لقد كنتُ فعلاً جالساً في ساحة كليشي، لكنَّ ذلك كان قبل زمن بعيد ومنذ ذلك الحين والسلطعون يقضم أعضائي الحيوية. هذا كله بدأ في مترو (درجة أولى) وعبارة " لم أعد الرجل الذي كنته "[٥]

أثناء عبوري ساحة السكة الحديد تملّكني نوعان من الخوف - يقول لي أوّلهما أني إذا ما رفعتُ عيني إلى أعلى قليلاً فستقفزان من رأسي.

---

٥ - العبارة في الأصل بالفرنسية .

ويقول الثاني إنَّ ثقبي كان يسيل. كان التوتُّر من العنف بحيث أنَّ قوة الفهم والتخيُّل اتّخذت شكلاً موشورياً سُداسياً في الحال. تصوَّرتُ العالمَ كله يُعلن يوم عطلة من أجل التفكير في المشوّشات. في ذلك اليوم يحدث الكثير من عمليات الانتحار إلى درجة أنه لا يتوفر ما يكفي من العربات لنقل الجثث. أثناء عبوري لمناطق السكة الحديد في الميناء يلتقط أنفي نتانة مُقرِفة منبعثة من قطارات المواشي، وكأنها تقول: طوال هذا النهار ونهار أمس - وقبل ثلاث أو أربع سنوات مضت طبعاً - كانوا جالسين هناك ملتصقي الأجساد في خوف ويتصبَّبون عَرَقاً. أجسادهم مُشبَّعة بالهلاك. مررتُ بهم بذهنٍ صافٍ تماماً، وأفكاري نقيّة كالكريستال. إنني في عَجَلَة من أمري لأسفح أفكاري حتى أني أتجاوزها في الظلام. أنا أيضاً يتملّكني خوف عظيم. أنا أيضاً أتصبَّب عَرَقاً وألهث، وأشعر بالعطش، ومُشبَّع بالهلاك. إنني أمرُّ كمرور رسالة في مكتب البريد. أو بالأحرى ليس أنا، بل أفكارٌ معيَّنة أنا نذيرها. وهذه الأفكار صُنِّفَتْ لتوّها وأُدرِجَتْ على جدول الأعمال، وخُتِمَتْ، ووُضِعَ عليها الطابع، ووُسِمَتْ بعلامة سرّية. أفكاري تجري على شكل سلسلة، كالوشيعة الكهربائية. هل ***نتجاوز*** الوهم، أم نعيش **به** ؟ هذا هو السؤال الهامّ. في داخلي حجرٌ كريم مُرعِب لن يبهُتْ ضوءه أبداً. حجرٌ كريم يُخرِّش زجاج النافذة وأنا أهرب خلال الليل. قطعان الماشية تخور وتثغو. تقفُ هناك في نتانة روثها الدافئ. أسمعُ الآن من جديد رباعية على مقام " لا " الصغير، وأنغام الأوتار المضطربة المتوجعة. في داخلي مجنون يسعل سعالاً جافاً، يسعل ويسعل إلى أنْ يصل إلى الرمق الأخير. عدمٌ صِرف، تمييزاً له عن العدميات الأخرى المشوّشة والأقلّ

شأناً، بعدها لا شيء يمسح. ودولاب من الضوء يرتقي الجُرف - ومنه إلى الغور السحيق. أنا، بيتهوفن، أبدعته ! أنا، بيتهوفن، دمَّرته !

سيداتي سادتي، من الآن فصاعداً ستدخلون مكسيكو، منذ الآن سيكون كل شيء رائعاً وجميلاً، جميلاً بروعة، مدهشاً بروعة. جميل وبديع بشكلٍ زائد الروعة. من الآن لن يكون هناك حِبال غسيل، ولا حمّالات، ولا ملابس داخلية، بل صيف دائم وكل شيء مُطابق للنموذج. فإذا كان حِصاناً فهو حصان دائماً. وإذا كانت سكتة دماغية فهي سكتة دماغية وليس الرقّاص[٦]. كفى عاهرات الصباح الباكر، كفى أزهار غاردينيا، كفى قططاً ميتة في المجرور، كفى عرقاً وتعرّقاً. إذا كانت شَفَة فلتكُنْ شَفَة ترتجف إلى الأبد. ففي مكسيكو، أيها السيدات والسادة، القمر بدر دائماً وما يتوهَّج هو شجرة الفوشية[٧] وما مات قد مات ولا منافض من ريش. إنكَ تستلقي على سريرٍ من الاسمنت وتنام كمصباح من الأستيلين. فإذا أصبتَ ثراءً تعثر على كنز. وإذا لم تصِب ثراءً تبقى في البؤس بل ***وأسوأ من البؤس***. بلا نغمات متسارعة، ولا أنغام جميلة، ولا إيقاع خِتامي مُنمَّق. إما أنْ تمسك بحلّ اللغز أو لا تمسك به. إما أنْ تبدأ بنغمٍ صافٍ أو تبدأ بمُضادٍ حيويّ. ولكن لا مطْهرْ ولا إكسير حياة. إما قصيدة رعوية رابعة أو القضاء[٨] الثالث عشر !

٦ - الرقّاص : اضطراب عصبي يتميَّز باختلاجات تشنجية في الوجه والأطراف

٧ - الفوشية : شجرة ذات أزهار حمراء

٨ - القضاء : المقصود بالكلمة الدائرة ، التي هي منطقة إدارية من مناطق مدينة فرنسية كبيرة

بعد ظهيرة يوم السبت

إنَّ هذا أفضل من قراءة فرجيل.

إنه بعد ظهيرة يوم سبت وبعد ظهيرة يوم السبت هذا مُتميِّز عن كل فترات بعد ظهيرة أيام السبت الأخرى. لكنه لا يشبه بأي حال بعد ظهيرة يوم الاثنين أو بعد ظهيرة يوم الخميس. في هذا اليوم، بينما أنا أتّجه بالدراجة إلى جسر نوييّه ماراً بجزيرة روبنسن الصغيرة بمعبدها القائم في طَرَفها والذي يضمُ تمثالاً صغيراً كالفَلَقَة في فم الجَرَس، ينتابني إحساس بالألفة إلى درجة أنّه يبدو من غير المعقول أني وُلِدتُ في أميركا. ركود الماء، وزوارق الصيد، وقضبان الحديد التي تُحدِّد القنال، وزوارق السحب الواطئة بانحناءاتها الغليظة، والصنادل السوداء والدعامات البرّاقة، والسماء التي لا تتغيَّر، والنهر الذي ينحني ويهتز، والهضاب التي تمتد وتطوِّق الوادي على الدوام، وتغيُّر المشهد العام الدائم والمستمر، وتنوُّع الحياة وحركتها تحت اللافتة الثابتة بألوانها الثلاثة، كل هذا هو بمثابة تأريخ لنهر السين الذي يجري في دمي وسيتسرَّب إلى دماء مَنْ سيأتون بعدي عندما سيتمشّون على طول هذه الشواطئ بعد ظهر يوم سبت.

بعد أنْ أعبُر الجسر عند بولونيه، في الشارع المؤدي إلى ميدون أستدير ثم أهبط أسفل التل مُخترقاً سيفر، وبينما أسير في الشوارع المُقفِرة أرى مطعماً صغيراً في حديقة : الشمس تخترق أوراق الأشجار وتُلقي ضياءها على الطاولات. أترجَّل.

ما هو أفضل من قراءة فرجيل أو استظهار أبيات غوته (alles

كل ما هو عابر هو Vergangliche ist nur ein Gleichnis, إلى آخره) ؟ " كل ما هو عابر هو مجرَّد رمز "، ولَوْ، أنه تناول الطعام خارج المنزل تحت المظلّة مقابل ثمانية فرنكات في إيسي-ليه-مولينو. Pourtant je suis a Severs "وها أنا ذا في سيفير ". ما علينا. فكَّرتُ مؤخّراً في تأليف journal d'un Fou "يوميات مجنون " وهذه الفكرة خطرت لي في إيسي-ليه-مولينو. وبما أنَّ ذلك الـ fou هو إلى حدٍ بعيد أنا نفسي فلن أتناول الطعام في سيفير، بل في إيسي-ليه-مولينو. وماذا يقول الـ fou حين تأتي النادلة حاملةً زجاجة من البيرة ؟ ***لا تقلق بشأن الأخطاء الإملائية فكُتّاب السيرة سيبرّرونها***. أفكِّر في صديقي كارل الذي أمضى الأيام الأربعة الفائتة محاولاً البدء بوصف المرأة التي يكتب عنها، يقول " لا أستطيع ! لا أستطيع ! ". حسن، يقول الـ fou، دعني أنوب عنكَ في هذا. ابدأ ! هذا هو الشيء الأساسي. هل نفترض أنَّ أنفها ليس معقوفاً ؟ أمْ أنه أنف ملائكي عُلوي ؟ ما الفرق ؟ عندما تبدأ الصورة بشكلٍ سيء فذلك لأنكَ لا تصف المرأة الموجودة في مخيلتك : إنكَ تفكِّر كثيراً في أولئك الذين سينظرون إلى الصورة أكثر من تفكيرك في المرأة التي تنتظرك. خُذْ فان نوردن – هو يمثِّل حالة أخرى. لقد ظلَّ يحاول على مدى شهرين البدء بروايته. وكلما قابلتُه وجدتُ لديه بداية جديدة لكتابه. إنَّ بقاءه على هذا الحال سيجعله لا يتخطّى البداية. بالأمس قال لي: " أتعرف ماذا تشبه مشكلتي ؛ إنها مجرَّد مسألة بداية : إنَّ السطر الأول يُقرِّر مصير الكتاب بأكمله. إليكَ الآن بداية صنعتها قبل أيام. كتبَ دانتي قصيدة عن مكان يدعى هـ ـ. هـ شحطة، لأنني لا أريد أنْ أتورَّط في مشاكل مع الرقابة "

تصوَّر كتاباً يبدأ بـ هـ شحطة ! إنه جحيم صغير خاص يجب ألا يؤذي الرقباء. ألاحظُ أنه عندما يبدأ ويتمَنْ إحدى قصائده يكتب : - أنا، والت، في سنتي السابعة والثلاثين وفي صحة تامة !... إنني أسير جنباً إلى جنب مع رؤياي. أنا شغوفٌ بنفسي... أنا والت ويتمن، الكوكب، ابن مانهاتن، متمرِّد، بدين، حِسّي، آكُل، وأشرب وأنسُل. انزعوا الأقفال عن الأبواب ! بل انزعوا الأبواب نفسها عن عضدها... هنا أو من الآن فصاعداً لم يعُد يهمّني أي شيء... أنا موجود كما أنا، وهذا كاف... "[٩]

مع والت الوقت دائماً هو بعد ظهيرة يوم سبت. إذا صعُبَ عليه وصف امرأة اعترفَ بذلك وتوقَّفَ عند السطر الثالث. وفي يوم السبت التالي يكون الجو ملائماً، فيُضيف سِناً ناقصة أو كعباً. كل شيء يمكن أنْ ينتظر، يمكنه أنْ يأخذ فرصته. " ***إنني أقبل الزمن بشكلٍ مُطلق*** ". في حين أنَّ صديقي كارل، الذي يملك حيوية بقّة الفراش، فيتبوَّل في ملابسه الداخلية لأنَّ أربعة أيام مضت ولا يوجد بين يديه إلا الصورة السلبيّة. يقول " لا أرى موجِباً لموتي - وأنا أواجه مشكلةً مُستعصية. ثم يعرك يديه ويُغلق على نفسه باب غرفته ليعيش وحده. إنه يعيشُ كبقّةٍ مُخبّأة في ورق الجدران.

الشمس الحارة تخترق المظلّة. أنا أهذي لأنني أموتُ بسرعةٍ كبيرة. كل لحظة محسوبة. إنني لا أسمع اللحظة التي انقضَتْ لتوّها - إنني كمجنون أتشبَّث بهذه اللحظة التي لم تُعلن عن نفسها بعد... ما هو

٩ - هذا المقطع مأخوذ من قصيدة " أغنية نفسي " من مجموعة " أوراق العشب " للشاعر الأميركي والت ويتمَن (١٨١٩ - ١٨٩٢)

أفضل من قراءة فرجيل ؟ ***إنه هذا*** ! هذه اللحظة المتمددة التي لم تُحدِّد نفسها بتكّات أو دقّات، هذه اللحظة الأبدية التي تُدمِّر جميع القيَمْ، والدرَجات، والفروق ؛ وهذا الانبجاس من منبع خفي إلى أعلى والأمام. لم يعد هناك حقائق تُعلَن، ولا حِكمة يمكن نقلها. بل مجرَّد اندفاع وهذيان، حديث مباشر وفوري مع الناس جميعاً، في كل مكان، وبكل اللغات. والآن صار كل شيء من البساطة بحيث إنه يسخر من المرء. وينحدر المرء هابطاً ذروة الثمالة هذه إلى النجد وهناك يقرأ فرجيل ودانتي ومونتانيه وكل الذين لم يتكلّموا إلاّ عن اللحظة. اللحظة الممتدَّة التي تُسمَع إلى الأبد... ومخاطبة الناس كلهم مباشرةً وفوراً. اندفاع وهذيان. هذه هي اللحظة التي رَفَعْتُ فيها الكأس إلى شفتي وأنا أراقب الذبابة التي استقرَّتْ على خنصري، والذبابة مهمة بالنسبة إلى هذه اللحظة كأهمية يدي أو الكأس الذي تحمله أو البيرة الموجودة في الكأس أو الأفكار التي انبثقتْ من البيرة وماتت مع البيرة. هذه هي اللحظة التي يجب أنْ تُهمَل فيها اللوحة المكتوب عليها " إلى فرساي "أو " إلى سورسن " وكل اللافتات التي تشيرُ إلى هذا المكان أو ذاك، وعلى المرء أنْ يتجه إلى المكان الذي لا تشير إليه أي لوحة. هذه هي اللحظة التي يكون فيها الشارع المقفر الذي قررت الجلوس فيه يعجّ بالناس وكل الشوارع المكتظة مقفرة. هذه هي اللحظة التي يكون فيها أي مطعم هو المطعم الملائم ما دام لا أحد يوصي به. وهذا أفضل طعام، على الرغم من أنه أسوأ ما تذوَّقت حتى الآن. هذا هو الطعام الذي لا يمسّه إلا عبقري - إنه دائماً في المتناول، وسهل الهضم، ويجعل الشهية راغبة في المزيد منه. وتسأل النادلة " هل كان جبن الروكفور جيداً ؟ ". ***بل عُلويّ*** ! إنه

أشد ما أُنتِجَ من أنواع الروكفور قذارة، وتفاهة، وامتلاءً بالدود، بديدان دانتي، وفرجيل، وهومر، وبوكاتشيو، ورابليه، وغوته، بالديدان التي عجَّ بها الجبن كله. ولكي يأكل المرء هذا الجبن يجب أنْ يكون عبقرياً. هذا هو الجبن الذي دفنتُ فيه نفسي، أنا، ميغيل فيودور فرانسوا فولفغانغ فالانتاين ميللر.

المدخل إلى الجسر مُعبَّد بالحصى. دَرَجتُ على مهل بحيث إنَّ كل حصاة ترسِلُ رسالة واضحة ومنفصلة إلى عمودي الفقري وتصعد منه عبر الفقرات لتتغلغل في القفص المجنون الذي يومض فيه النخاع المتوسط بإشاراته الضوئية. وبينما أنا أعبر الجسر عند سيفر أنظر إلى يميني ويساري. أفعلُ هذا أثناء عبوري أي جسر، سواء أكان فوق السين، المارن، الأورك، الأود، اللوار، اللوت، شانون أو الليفي، النهر الشرقي أو هدسن، المسيسيبي، كولورادو، الأمازون، أورينوكو، الأردن، دجلة، أم الأيريوادي، أثناء عبور كل نهر من الأنهار، وقد عبرتها جميعاً، بما فيها النيل، والدانوب، والفولغا والفرات، وأثناء سيري على الجسر عند سيفر أهتفُ كما هتفَ ذلك المهووس القديس بولس مرةً : " آه، أيها الموت، أين لسْعَتَكَ ؟ ". خلفي سيفر، وأمامي بولونيه، أما هذا الجاري من تحتي، هذا السين الذي نبعَ من مكانٍ ما من جداولي التي لا حصر لها وتجري في وقت واحد، هذا الانبجاس الثابت المنبثق من مليون بليون جذر، هذه المرآة الساكنة تحمل السُحُب معها وتُعيق الماضي، تندفع وتندفع وتندفع بينما بين المرآة والسُحب التي تتحرَّك باتجاه مُستعرَض، أكون أنا، الكيان الكامل المُتّحد، كونٌ ينهي قروناً لا حصر لها، أنا وهذا الذي يجري من تحتي وتلك التي تطفو فوقي وكل ما يصطخبُ داخلي،

أنا وهذا، أنا وذاك بحركة متواصلة، هذا السين وكل سين يصِلُ بينهما جسر، نشكِّلُ معجزةَ رجلٍ يعبُرُه على متن دراّجة.

إنَّ هذا أفضل من قراءة مؤلفات فرجيل...

أحثُّ الدراجة عائداً إلى سان كلو والدولاب يدور ببطء شديد ومقياس السرعة قفصه الجنوني الرمادي يُقرقع مثل نشرة الأخبار. أنا رجلٌ مقياس ضغطه سليم ؛ أمتطي آلة والآلة خاضعة لسيطرتي، أهبط منحدر التل بمكابح مُفرملة، أستطيع أنْ أقود برضا تام وقدميّ على الدواّسة تاركاً المرآة تمرُّ من فوقي والتاريخ من تحتي أو العكس بالعكس؛ أقودُ والشمس في تمام سطوعها؛ مُنغلقٌ في وجه كل شيء ما عدا ظاهرة الضوء ؛ أمامي وإلى اليسار يرتفع تل سان كلو، والأشجار تنحني لتظللني، والطريق سهلة لا تنتهي، والتمثال الصغير يستقرّ في جَرَس المعبد كالفَلَقَة. إنَّ أوسط العمر مرغوب سواء في الإنسان أو في التاريخ. الشمس ساطعة تماماً والطرقات تمتد في كل اتجاه، وكلها تنحدرُ هابطة. لن أسوّي الطريق ولن أزيح أياً من العوائق. كل رجّة تبثُّ رسالةً جديدة إلى برج الإشارة. لقد علّمتُ جميع النقاط أثناء عبوري : لكي أتتبَّع أفكاري ليس عليَّ إلاّ أنْ أتتبَّع خط رحلتي ؛ أنْ أتحسَّس من جديد تلك العوائق.

عند جسر سان كلو أتوقَّف. لستُ في عَجَلة من أمري - لديّ اليوم كله أتبوّله. أسندُ دراجتي على منصبها تحت شجرة وأذهب إلى المبولة لأتبوّل. كل شيء رزين، حتى المبولة. بينما أنا أقفُ هناك رافعاً ناظري إلى المنزل المقابل تميلُ امرأةٌ شابة مُحتشمة من إحدى النوافذ وتراقبني.

كم من مرةٍ وقفتُ في هذا العالم الباسِم الكيِّس، والشمس تفرشُ نورها عليَّ والعصافير تسقسق بجنون، لأجد امرأةً تنظر إليّ من النافذة المفتوحة، تتفتَّت ابتسامتها قطعاً صغيرة ناعمة تلتقطها العصافير بمناقيرها وأحياناً تستقرّ عند أسفل المبولة حيث تقرقر المياه بصوتٍ موسيقيّ ويأتي رجلٌ بأزرار بنطال محلولة ويُفرِغ محتويات مثانته المتبخِّرة فوق الفُتات المنحلّة. وبوقفتي هذه، بقلبٍ وعُروة ومثانةٍ مفتوحة، أسترجع ذكرياتي عن جميع المبولات التي وطأتها من قبل - وجميع الأحاسيس اللذيذة، والذكريات الفارهة، وكأنما عقلي صارَ ديواناً تكتنفه الوسائد وحياتي غفوة مُتَّصِلة طويلة بعد ظهيرة يومٍ قائظ وخامل. لا أجدُ من الغرابة في شيء أنَّ أميركا أقامت مبولة في مركز معرِض باريس في شيكاغو. أعتقدُ أنه مكانها المناسب، وأعتقدُ أنها مساهمةٌ منهم على الفرنسيين أنْ يُقدِّروها. ولكن، حقاً، لم تكن هناك حاجة لنشر العلم الثلاثي الألوان فوقها؛ ! Un peu trop fort, ca "تأثيره قوي أكثر مما ينبغي!"، ومع ذلك كيف يمكن للفرنسي أنْ يعرف أنَّ أحد أول الأشياء التي تصدم عين الزائر الأميركي، تهزّه، وتُشيع الدفءَ فيه حتى القانصة هي هذه المبولة الكليّة الوجود ؛ كيف للفرنسي أنْ يعرف أنَّ ما يؤثِّر في الأميركي عند النظر إلى مبولةٍ عامة pissotiere أو vespasienne، اخْتَرْ بينهما ما شئت، هو أنْ يكون وسط أناسٍ يقبلون بضرورة التبوُّل بين حينٍ وآخر ويعرفون إذا أراد المرء أنْ يتبول فعليه أنْ يستعمل أداة للتبوُّل وأنه إذا لم يُنفِّذ ذلك سراً فسينفّذه عَلَناً وأنَّ التبوُّل في الشارع لم يعُد أمراً غير لائق أكثر مما لو فعل ذلك تحت الأرض حيث يُراقبكَ عجوز منبوذ ليتأكَّد من أنكَ لا تقترف عملاً مُثيراً للاشمئزاز.

أنا رجلٌ يتبول بكثرة وباستمرار، ويُقال إنَّ هذا يدلُ على النشاط الذهني الفائق. ومهما يكن السبب فأنا أعرفُ أنه ينتابني الأسى الشديد عندما أجوبُ شوارع نيويورك، متسائلاً طوال الوقت أين ستكون المحطة التالية وإنْ كنتُ أستطيع أنْ أتحمَّل أكثر من ذلك. وفي الشتاء، حين تكون مُفلساً وجائعاً، فمن الرائع أنْ تتوقف بضع دقائق في محطة استراحة أرضيّة دافئة، وعندما يحلُّ الربيع يصبح الأمر مختلفاً تماماً. إذ يروق للمرء أنْ يتبوَّل تحت أشعة الشمس بين أناسٍ يُراقبونه وهم يبتسمون وعندما تقرفص الأنثى لتُفرِغ مثانتها في وعاءٍ من الصيني قد لا يكون منظرها مقبولاً، ولا يمكن لأي رجل لديه أي قدْرٍ من الإحساس أنْ يُنكِر أنَّ منظر ذكَر واقف خلف دريئة من القصدير يُلقي نظرةً على الحشد مع تلك الابتسامة الراضية، الرقيقة الحمقاء، تلك النظرة الطويلة، المفعمة بالذكريات، والمتعة بادية في عينيه هو شيءٌ جميل. إنَّ إراحةَ مثانة مملوءة هي إحدى مُتع البشر العُظمى.

هناك مبولات معيَّنة أحيدُ عن طريقي الأصلية لأصلَ إليها - كتلك المبولة المُقرقرة الموجودة خارج مصحّة الصُمّ والبُكم، عند زاوية التقاء شارع السان جاك وشارع لابيه دو أيبه، أو مبولة النيو هتشنسن الواقعة بالقرب من حدائق اللوكسمبور، عند تقاطع شارع داسّاس وشارع غينيمه. هنا، في ليلةٍ عَطِرة من الربيع، ولا يهمّني خلال أي سلسلة من الأحداث، اكتشفتُ صديقي الحميم روبنسن كروزو. ومضَتْ الليلة بأكملها في الذكريات والألم والرعب ؛ ألمٌ مُبهِج، رعبٌ ***مُبهج***.

" إنَّ عجائب حياة هذا الرجل "، - والقراءة هنا من مقدِّمة الطبعة الأولى - " تفوقُ كل العجائب الموجودة ؛ ونادراً ما تتعرَّض حياة رجل

واحد إلى مثل ذلك التغيُّر العظيم ". تلك الجزيرة تُعرَف باسم توباغو، تقع عند مضيق نهر أورينوكو العظيم، وتبعُد مقدار ثلاثين ميلاً عن شمال غرب ترينيداد حيث عاش الرجل المُسمّى كروزو مدة ثمانية وعشرين عاماً في عزلة. وعلى الغلاف نُقِشَتْ آثار الأقدام بشكلٍ رائع الجمال. والرجل المُسمّى " جمعة ". والمظلة... تُرى لماذا فَتَنَتْ هذه الحكاية أناسَ القرن الثامن عشر ؟ هاكَ ما يقوله اللاروس :

"... هي سردٌ لمغامرات رجل، نُفيَ إلى جزيرة مهجورة، ووفَّرَ لنفسه حياةً مُكتفيةً ذاتياً واستمدَّ منها سعادةً نسبيّة أكملها وصول مخلوق آدميّ آخر متوحش، هو جمعة،خلَّصه روبنسن من أيدي أعدائه... إنَّ متعة الرواية لا تكمن في الحقيقة النفسية التي تُظهِرها وإنما في غزارة التفاصيل الصغيرة التي تُعطي انطباعاً مُذهلاً بالواقع "[١٠]

إذن روبنسن كروزو لم يجد فقط طريقة للاستمرار، بل وفَّرَ لنفسه سعادة نسبية ! برافو ! إنه رجل قَنَعَ بسعادةٍ **نسبيّة**. يا لها من صِفة أنغلوساكسونيّة ! صِفة سابقة للمسيحية ! فإذا فهمنا القصة بشكلٍ معاصر، بعكس ما يفعله اللاروس، وجدنا بين أيدينا وصفَ فنّان أراد أنْ يبني لنفسه عالَماً خاصاً، ولعلّها قصة أوّل عصابي عبقري ؛ رجل قاد نفسه إلى الدمار من أجل أنْ يعيش خارج زمنه في عالمٍ خاصٍ به يستطيع أنْ يتقاسمه مع كائنٍ آخر، meme un sauvage "همجي مثله ". والشيء الجدير بالذكر أنه وهو يمارس عُصابيته وجدَ سعادةً نسبيّة حتى وهو وحيد فوق جزيرةٍ منعزلة لا يحتفظ فيها إلا ببندقية صيد عتيقة وبزوجٍ من السراويل القديمة. إنَّ سجلاً من الأحداث مقداره خمسة

١٠ – الأصل بالفرنسية .

وعشرون ألف عام من " التقدُّم " الما قبل العصر المجدليني[١١] مطمور في خلاياه العصبية. إنه مفهوم القرن الثامن عشر عن السعادة النسبيّة ! وعندما يأتي جمعة، مع أنَّ جمعة، أو Vendredi ، ما هو إلاّ شخص همجي ولا يتحدَّث بلغة كروزو، فإنَّ الدائرة تكتمل. أتمنى أنْ أقرأ الكتاب من جديد - وسوف أفعل في يوم ممطر. إنه كتاب ممتاز، يأتي في أوج حضارتنا الفاوسيتية الرائعة، بينما رجالٌ كروسو، وبيتهوفن، ونابوليون، وغوته، يلوحون في الأفق. والعالم المتمدِّن كله يقضي الليالي يقرأ لهم بسبعٍ وتسعين لغة مختلفة. إنها صورة واقعية من القرن الثامن عشر ومنذ ذلك الحين لم يعُد هناك جُزُر مُقفِرة. كل إنسان هو صحراءُ نفسه المتمدّنة ؛ هو جزيرة النفس التي يتحطَّم على ضِفافها : والسعادة، نسبيةً كانت أم مُطلَقَة، غير واردة. منذ ذلك الوقت صار كل إنسان يهرب من نفسه باحثاً عن جزيرة مُقفرة من صنع خياله، ليعيشَ حلم روبنسن كروزو هذا، ليتبْع خُطى التحليقات الكلاسيكية للفيل، ورامبو، وغوغان، وجاك لندن، وهنري جيمس، و د.هـ لورنس... بل الآلاف من نمطهم. لم يجد أحدُ منهم السعادة. رامبو وجد السرطان، وغوغان وجد السفلس. لورنس وجد الطاعون الأبيض. الطاعون - بالضبط ! فليكن سرطاناً، أو سفلساً، أو سِلاً، أو ما إلى ذلك. إنه ***الطاعون*** ! طاعون التفدُّم الحديث : الاستعمار، التجارة، الأناجيل الحرّة، الحرب، المرض، الأعضاء الاصطناعية، المصانع، العبيد، الجنون، الأمراض العصبية، الهَوَس، السرطان، السفلس، السلّ، فقر الدم، الإضرابات، عمليات

---

١١ - الما قبل مجدليني : متعلّق بحقبة من العصر الحجري القديم

الإغلاق التعجيزي[١٢]، الجوع، الضياع، الفراغ، القلق، الكفاح، اليأس، السأم، الانتحار، الإفلاس، تصلُّب الشرايين، جنون العظمة، الانفصام، الفتق، الكوكايين، حامض البرسيك، قنابل النتانة، قنابل الغاز، الكلاب المجنونة، الإيحاء الذاتي، التسمُّم الذاتي، العلاج النفسي، المعالجة المائية، التدليك بالكهرباء، المكانس الكهربائية، الأطعمة المُقدّدة، القنابل اليدوية، البواسير، الغنغرينا. لا وجود لجُزُر مقفرة، لا فردوس، ولا حتى لسعادة ***نسبية***، بل أناس يهربون من أنفسهم بطريقة مسعورة حتى إنهم يبحثون عن الخلاص تحت طبقات الجليد أو في المستنقعات الاستوائية أو يرتقون جبال الهيمالايا أو يخنقون أنفسهم في طبقات الستراتوسفير...

إنَّ ما أذهلَ أناس القرن الثامن عشر كان رؤيا النهاية. لقد نالوا الكفاية. أرادوا أنْ يقتفوا آثار أنفسهم، أنْ يعودوا إلى الرحم من جديد.

إنَّ هذا إضافة إلى ما يقوله اللاروس...

إنَّ ما أثَّرَ بي، في مبولة لوكسمبور كان قلة أهمية ما يحتويه الكتاب، أما الأهمية فتكمن في لحظات قراءته، اللحظة التي احتوت الكتاب، اللحظة التي تضع الكتاب حتماً وفي كل الأزمان، في جو الغرفة الحيّة بما فيها من أشعة الشمس، وجوّ النقاهة فيها، وكراسيها البيتيّة، والسجّادة البالية، وعَبَق الطبخ والغسيل، بصورة الأم الضخمة الجثة الشبيهة بالطوطم، ونوافذها التي تُطل على الشارع وترمي أمام شبكة العين نُسخاً مُختَلَطَة لقامات كسلى مُبعثرة، وأشجار ذات عُقَد،

---

١٢ – الإغلاق التعجيزي : هو إغلاق رب العمل لمصنعه كليّاً أو جزئياً لإكراه العمّال على الرضوخ لشروطه .

وأسلاك الترولي، وقطط فوق السطح، وكوابيس ممزّقة تتراقص فوق حِبال الغسيل، تنزلق، سباق السيارات، ألواح زجاجية متجمّدة، أشجار تشطأ. إنَّ قصة روبنسن كروزو تُدين بفتنتها - بالنسبة إليّ على الأقلّ - إلى اللحظة التي اكتشفتها فيها. إنها باقية حيّة عبر مشاهد متسارعة باطراد، جزءاً حياً من الحياة، مملوءة بالرؤى المتسارعة. إنَّ روبنسن كروزو بالنسبة إليّ ينتمي إلى الفئة نفسها التي تنتمي إليها مقاطع من فرجيل - أو، ***كم الساعة الآن*** ؟ إذ، كلما فكَّرتُ في فرجيل، أفكِّرُ آلياً في ما الساعة الآن ؟ إنَّ فرجيل هو بالنسبة إلى رجل أصلع بنظارات يجلس باسترخاء على كرسيه ويترك بقعة من الزيت على السبّورة ويفغر فاه واسعاً من شدة الانفعال وبقي كذلك طوال خمسة أيام من الأسبوع وعلى مدى أربع سنوات متتالية ؛ فم كبير بأسنان اصطناعية ينطق تلك التفاهة النبوية الغريبة : rari nantes in gurgite vasto. إنني أتذكَّر بحيوية المتعة الفظيعة التي كان يلفظ بها هذه العبارة. إنها عبارة عظيمة، بالنسبة إلى هذا الأقرع، الجاحظ العين ابن القحبة. لقد قطعناها عُروضيّاً، وأعربناها، وردَّدناها معه، وابتلعناها كما نبتلع زيت كبد القدّ، مضغناها كأنها كبسولات سوء الهضم، فتحنا أفواهنا حتى آخرها كما فعل هو وردَّدنا تلك المعجزة يوماً بعد يوم طوال خمسة أيام من الأسبوع، وعاماً بعد عام، كالاسطوانات المُستهلكة، إلى أنْ هَلَكَ فرجيل وخرجَ من حياتنا إلى الأبد.

ولكن كلما فتح ابن الحرام جاحظ العينين ذاك فمه واسعاً وتدحرجت عبارته المُفخّمة أسمعُ ما كان بالنسبة إليّ أهمّ ما يمكن سماعه في تلك اللحظة - كم الساعة الآن ؟ قريباً سيحين وقت للذهاب إلى

Math. قريباً سيحين وقت الاعتزال. قريباً سيحين وقت الاغتسال... أنا فردٌ سيصبح قريباً صادقاً بشأن فرجيل وعبارته المنيوكة rari nantes in gurgite vasto. وها أنا أقول دون أن أحمرّ خجلاً أو أتلعثم، دون أقلّ ارتباك، أو أسف أو ندم، إنَّ الاعتزال في المرحاض أفضل من ألف فرجيل، كان الأمر هكذا وسيبقى هكذا دائماً. في المعتزل عدنا إلى الحياة. في المعتزل أصابنا نحن الأعاجم والذين لا نملك حسّاً أفضل من غيرنا الهياج : أخذنا نهرع خارجين داخلين من المرحاض، نُصفقُ الأبواب وتكسر الأقفال. وكأننا أصبنا بالبُطاح الغولي[١٣]. وبينما كنا نرشق بعضنا بعضاً بالطعام ونتبادل الصياح والسباب ويتعثّرُ بعضنا ببعض، كنا نتمتم بين حينٍ وآخر – rari nantes in gurgite vasto. كان الضجيج الذي أثرناه صاخباً جداً، والدمار الذي سبّبناه هائلاً، بحيث إننا نحن الأعاجم كلما ذهبنا إلى المرحاض رافقنا أستاذ اللغة اللاتينية، وإذا كان يتناول الطعام خارج المنزل في ذلك النهار يتبعنا إليه أستاذ التاريخ. وأثناء وقوفهم في المرحاض يلوون قَسَمات وجوههم تعبيراً عن الاشمئزاز، ويحملون بأيديهم شطيرة رقيقة، مدهونة بالزبد ويصغون إلى أصوات سخريتنا نحن الأولاد المزعجون. وحالما يُغادرون المرحاض ليستنشقوا الهواء النقي نرفع أصواتنا بالغناء، ولم يكن ذلك يُعتَبَر جديراً بالاستهجان، لكنه كان دون شك حالة كان يحسدنا عليها كثيراً البروفسورات الذين يضعون نظارات المضطرون إلى استخدام المرحاض بين حينٍ وآخر، بما أنهم مثقفون.

---

١٣ – البُطاح الغوليَ : هو هذيانٌ ارتعاشيَ ناشئ عن الإسراف في شرب الخمر

آه ما أروع فترات الاختلاء في المرحاض ! إنني أدين لها بمعرفتي لبوكاتشيو، ورابليه، وبترونيوس، وكتاب " ***الحمار الذهبي*** ". يمكنكَ أنْ تقول إنَّ قراءاتي الجيدة كلها قمتُ بها وأنا في المرحاض وفي أسوأ الأحوال قرأتُ عوليس أو قصة بوليسية. وهناك في عوليس فقرات لا يمكن قراءتها إلا في المرحاض - هذا إذا أراد المرء أنْ يقطف كامل نكهة محتواها. وهذا لا ينتقص من موهبة الكاتب ؛ إنه ببساطة يُقرِّبه من مجموعة أبيلار وبترارك ورابليه وفيلون وبوكاتشيو الجيدة - أي من جميع الأرواح الرائعة الشبِقة الأْصيلة التي تُميِّز الروث كروث والملائكة كملائكة. صُحبة رائعة، وبلا rari nantes in gurgite vasto. وكلما كان المرحاض متداعياً، وخرِباً، كان أفضل. (الأمر نفسه ينطبق على المبولات) فلكي تستمتع بقراءة رابليه، مثلاً - بفقرة مثل ***كيف تُعيد بناء أسوار باريس*** - أنصح بمرحاضٍ ريفي، بسيط، بيت خلاء خارجي صغير يقوم على بقعة صغيرة مزروعة بالذرة، ينفذ إليه مقطع من النور من خلال الباب على شكل هلال. بلا أزار لتضغط عليها، ولا سلسلة لتشدّها، ولا أوراق صحية وردية اللون. فقط مقعد خشن بالكاد يُلائم مؤخرتك، مع حفرتين اخرتين بأبعاد مناسبة لمؤخرات أخرى. وإذا كان في إمكانك أنْ تُحضِر صديقاً معك ليجلس بجوارك، فهذا رائع ! إنَّ الاستمتاع بقراءة كتابٍ جيد يكون أكبر مع صُحبة طيبة. يمكنكَ دائماً أنْ تستمتع بنصف ساعة من الوقت في بيت خلاء مع صديق - نصف ساعة ستبقى في بالك طوال حياتك، وأيضاً الكتاب الذي كان معك والعبَق أيضاً.

أنا أقول إنّه لن يُهين كتاباً عظيماً اصطحابك له إلى المرحاض. وحدها الكتب القليلة القيمة تتأذى هناك. وحدها الكتب قليلة القيمة

تصلح ممسحات للطيز. مثالاً على ذلك كتاب ***القيصر الصغير***، الذي تُرجِمَ الآن إلى الفرنسية ويُعتَبَر أحد كتب سلسلة ***العواطف الجيّاشة***. وحين أقلِّبُ صفحاته أشعر أنني عدتُ إلى موطني وأقرأ العناوين الرئيسية، وأستمع إلى أجهزة المذياع اللعينة، وأستقل عربات صغيرة يجرها حصان، وأشرب خمراً رخيصاً، وأخرق عاهرات عذارى بكوز ذرة، وأربط زنوجاً على شكل سلسلة ومن ثم أحرقهم أحياء. إنه شيء يُسبب الإسهال. والأمر نفسه ينطبق على صحيفة أتلانتك منثلي، أو على أي صحيفة شهرية، وعلى ألدوس هكسلي، وغرترود شتاين، وسينكلير لويس، وهيمنغواي، ودوس باسوس، ودرايزر، الخ، الخ... إنني لا اسمع أي جرس يرنّ داخلي عندما أجلب معي أولئك العصافير إلى بيت الخلاء. أشدُّ السلسلة فينزلون إلى أسفل، ثم إلى نهر السين ومنه إلى المحيط الأطلسي. وربما بعد عامٍ من ذلك يظهرون من جديد - على شواطئ كوني آيلند، أو شاطئ ميدلند، أو ميامي، إلى جانب قنديل بحر ميت، وحلازين، وسمك بطلينوس، وواقيات ذكرية مستعملة، وأوراق مراحيض وردية اللون، وأخبار الأمس، وحوادث انتحار الغد...

كفى اختلاساً للنظر من خلال ثقوب الأبواب ! كفى استمناءً في الظلام ! كفى اعترافات علنية ! ***حُلّوا الأبواب عن مفاصلها*** ! أريدُ عالماً يكون فيه المهبل شقاً صادقاً، بسيطاً، عالماً يتعاطف مع العَظم والشكل المنحني، والألوان البدائية الخام، عالماً يكنُّ خوفاً واحتراماً لجذوره الحيوانية. لقد سئمت النظر إلى أكساس تُداعَب، مُستترة، مشوَّهة، تُجعَل مثاليّة. أكساس بأطراف حسّاسة مكشوفة. لا أريد أنْ أرى عذارى صغيرات يستمنين في خلوة غرف نومهن أو يقضمن أظافرهن أو

ينتفن شعورهن أو يستلقين على سرير مفروش بكِسَر الخبز طوال فصل كامل. أريدُ أعمدة جنائزية مدغشقريّة، وحيوان فوق حيوان وفي أعلاها آدم وحوّاء، وحواء بين ساقيها شق خشن، صادق. أريد خُناثي حقيقيين، وليس مُدَّعين يتنقّلون بقضيب ضامر أو بكسٍ منكمش. أريد نقاءً كلاسيكياً، حيث الروث روث والملائكة ملائكة. كالكتاب المقدس بنسخة الملك جيمس، على سبيل المثال. وليس الكتاب المقدس بنسخة ويكليف، ولا نسخة فلاغيت أو النسخة اليونانية، ولا العبرية، بل الكتاب المقدس المجيد، المتعامل مع الموت الذي وُجِدَ عندما كانت اللغة الإنكليزية في أوج ازدهارها، حين كان عشرون ألف من مفردات الكلمات يكفي لإقامة نُصُب تذكاري يدوم إلى الأبد. أما الكتاب المقدس المكتوب بلغة سفنسكا أو اللغة التيغاليّة، الخاص بالهتنتوت أو بالصينيين، الكتاب الذي لم يهِم على وجهه عبر رمال الفرنسيين التي تقطر فليس بكتابٍ مقدَّس - إنه زائف ومُزوَّر. إنَّ نسخة الملك جيمس أنتجها عِرقٌ من طاحني العظام، وهي تُحيي الأسرار الأولى، والاغتصاب، والقتل، وسِفاح القُربى، وداء الصَرَع، والسادية، وجنون العَظَمَة، والشياطين والملائكة، والتنانين، واللوثيانات، والسحر، وطرد الأرواح الشريرة، والأمراض المُعدية، والتعاويذ، وعادة قتل الأخوة بعضهم لبعض، وقتل الأب، وقتل النفس، والتنويم المغناطيسي، والفوضوية، والسير أثناء النوم، والأغنية والرقصة، والتمثيل، يُحيي التبّئي، والتحت أرضي ، والمُلغَّز، والغامض، يُحيي القوة، والشر والمجد الذي هو الله. هذا كله أُخرِجَ إلى العراء إلى أقصى مدى، ومُلِّحَ وتُبِّلَ لكي يدوم حتى العصر الجليدي القادم.

إذن هو نقاء كلاسيكي - ولتذهب سلطات مكتب البريد إلى الجحيم! إذاً ما الذي يجعل الأشياء الكلاسيكية تدوم، إذا كانت حقاً تبقى حيّة ولا تموت كما نموت ويموت كل ما حولنا؟ ما الذي يحفظها من عواتي الزمان لولا الملح الذي فيها؟ عندما أقرأ بترونيوس أو أبوليوس أو رابليه، كم يبدون قريبين مني! يا لهذه النكهة الملحية الحادّة! يا لعبق الحيوانات المُحنّطة! إنها رائحة بول حصان وروث أسد، رائحة أنفاس نمر ومخبأ فيل. إنه الفحش، الشبَق، القسوة، الملل، الحصافة، خصيان حقيقيون، مخنثون حقيقيون، قضبان حقيقية، أكساس حقيقية، ***ولاتم حقيقية!*** إنَّ رابليه يُعيد بناء أسوار باريس بأكساس بشرية. وتريمالخيو يتغرغر بحنجرته، يتقيّأ أحشاءه، يبتلع قذارته. في المدرَّج، حيث يتمطّى قيصر متكاسلاً ناعساً ضخم الجثّة ومنحرفاً جنسياً، تطحن الأسود وأبناء آوى، والضِباع، والنمور، واللبوءات المنقّطة، عظاماً بشرية حقيقية - في حين أنَّ الرجال القادمين الشهداء والمعتوهين يرتقون السلَّم الذهبي وهم يصيحون ***هللويا***!

عندما أتناول موضوع المراحيض أعيش من جديد لحظات هي من أفضل لحظات حياتي. وبينما أنا أقف في المبولة الكائنة في بولونيه تقع على يميني هضبة القديس كلو والمرأة التي تقف في الشبّاك فوقي والشمس تخترق بأشعتها مياه النهر الساكنة، أرى نفسي أنا الأميركي الغريب أنقلُ هذه المعرفة الهادئة إلى الأميركيين الذين سيأتون بعدي، الذين سيقفون تحت سطوع الشمس في إحدى الزوايا الساحرة من فرنسا ويُريحون مثاناتهم المملوءة. وأتمنى لهم جميعاً الصحة التامة دون حصى في الكلى.

وعلى عَجَل أوصي بمبولات خاصة أعرفها جيداً، حيث لا امرأة تبتسم في وجهك بل حائط متهدِّم، وبرج جرس قديم لكنيسة، وواجهة قصر، وساحة مُغطّاة بمظلات ملوّنة، ومعلف حصان، ونافورة وسرب من الحمام، وكشك لبيع الكتب، وسوق خضار... يكاد يبدو دائماً أنَّ الفرنسيين يُحسنون اختيار النقاط التي يُقيمون فيها مبولاتهم. وأفكِّر الآن ارتجالاً في واحدة غي كاركاسون التي إذا انتقيتُ الساعة المناسبة تمنحني مشهداً لا يُضاهى لحصنٍ رائع المقام إلى حد أنه إذا لم يكن المرء مهموماً مضطرباً، فسيثير فيك من جديد الإباء الجياش نفسه، العجب العُجاب نفسه، الالتصاق العنيف نفسه بهذا المشهد كما شعر به الفارس القلِق أو الراهب، عندما رفع ناظريه إليه، وقد وقفَ أسفل الهضبة حيث يجري الآن جدول ماء يغسل الوباء، أقول يرفع بصره إلى الأبراج الصغيرة الكالحة المصبوغة بروح المعارك ترفرف في وجه السماء التي تجلوها الرياح.

وفي الحال أتذكَّر أخرى - تقع قبل قصر البابوات في أفنيون، على مرمى حجر من الساحة الصغيرة البديعة التي تبدو في ليلةٍ ربيعية، وكأنها مفروشة بالمخمل والشرائط، والأقنعة وقُصاصات الورق الملوّن، ويمرّ الوقت بسكون شديد حتى يمكن للمرء أنْ يسمع أبواقاً صغيرة تنفخ بصوتٍ خافت، وينزلق الماضي ماراً كالشبح، ومن ثم يغرق في رنين الأجراس التي كأنما تُقرَع بمطارقَ تهشُّم موسيقى الليل الصامتة. وعلى مرمى حجر من الحي الصغير المغمور تومض الأنوار الحمراء. هناك، قرب حلول برودة المساء، سوف تجد الشوارع الصغيرة المعقوفة تضجُّ بالحياة، بالنساء المرتديات ملابس الاستحمام أو قمصان، يسترخين عند عتبات

الأبواب، وسيجارة في الفم، وينادين على المارة. وحالما يحلّ الليل تبدو الجدران وكأنها تستطيل معاً ويتناثر من جميع الأزقة الصغيرة الممتدة بخطٍ هزيل داخل الوادي السحيق حشدٌ من الجائعين الغريبي المظهر يخنق الشوارع الضيقة ، يحومون كالطاحونة، يندفعون بلا هدف هنا وهناك كحيوانات منوية ذات الأذيال تفتّش عن بويضة، وأخيراً تمتصّها أحشاء المواخير المفتوحة.

في أيامنا الحالية، عندما يقفُ المرء في المبولة الكائنة قرب القصر، لا يكاد يعي وجود هذه الحياة الأخرى. ينهض القصر فظاً، بارداً، أشبه بقبر، أمام ساحة كنيسة مفتوحة. وقبالته بناءٌ يُثير السخرية يُدعى معهد الموسيقى. يتواجهان عبر فناءٍ فارغ. ورحل البابوات، وسكتت الموسيقى، واختفت جميع ألوان وأحاديث عهد مجيد. ولولا الحيّ الصغير الكائن خلف المعهد، فمن يستطيع أنْ يتصوّر ما كانت عليه الحياة ذات يوم داخل جدران ذلك القصر ؟ أعتقد أنه عندما كان القبر لا يزال يضجُّ بالحياة لم يكن هناك تفريق بين القصر والأزقة المعرّجة أسفله، أعتقد أنَّ الأكواخ الصغيرة القذرة بسقوفها الدبشيّة كانت تمتد حتى باب القصر، وإنه عندما وطأ البابا أول خطوة خارج خليّته البهيّة ليُقابل بريق الشمس الساطعة تواصلَ فوراً مع الحياة التي تحيط به. ولا يزال بعض آثار هذه الحياة تحتفظ بها اللوحات الجصيّة : إنها حياة الانطلاق، حياة صيد الطرائد، وصيد السمك، واللعب، حياة الصقور والكلاب والنساء والسمك اللامع، حياة كاثوليكية مسيحية ملوّنة بالأزرق والأخضر الوضّاء، حياة الخطيئة والبَركة الإلهية والتوبة، حياة ألوان الأصفر البهيج والبُني الذهبي، حياة المفارش المُلطّخة بالخمر والجداول الملوّنة بلون

السلمون. في ذلك المهجع الرائع عند زاوية من القصر منها يُشرِف المرء على أسطح أفنيون التي لا تنسى والجسر المكسور فوق الرون، في ذلك المهجع حيثُ يُقال إنَّ البابوات دبّجوا أوامرهم البابوية لا تزال اللوحات الجصيّة على نضارتها، وطبيعتها، وتنبض بالحياة، حتى أنَّ الضريح الذي هو القصر يبدو اليوم أكثر حياة من العالم حوله ويستطيع المرء أنْ يتصوَّر بوضوح الأب الأعظم للكنيسة جالساً هناك على طاولة الكتابة، وأمامه أمرٌ بابويّ وإبريق معدني هائل عند مرفقه. وفي إمكان المرء أيضاً أنْ يتخيَّل بسهولة فتاةً هيفاء ممتلئة تجلس على ركبتيه وفي الطابق السفلي، في المطبخ الهائل تُشوى مختلف أنواع الحيوانات على المذبح، بينما الرجال الأقلّ مقاماً في الكنيسة، وهم في الواقع من النوع الأكول، يشربون في هرجٍ صاخب، يشبعون رغباتهم خلف اطمئنان وضمان الجدران العظيمة. بلا انشقاقات كنسية، ولا شعرَ يُنتَف، ولا انفصام في الشخصية. وعندما يأتي المرض فإنه يغمر الكوخ والقلعة، نافذاً إلى مفاصل الآباء الفخمة ومفاصل الفلاحين القوية. وعندما هبطت روح الله على أفنيون لم تهبط على معهد الموسيقى الكائن في الطرف الآخر، بل اخترقت جدران هيئة الكهنوت العليا والطبقة المنغلقة، اخترقَتْ اللحم. ازدهرت بعَظَمة في منطقة النور الأحمر كما ازدهرت فوق قمة التل. لم يستطع البابا أنْ يرفع أذياله ليمرّ دون أنْ يُمَسّ. كانت الحياة واحدة داخل الجدران وخارجها : وفاء، فسق، سفك دماء. ألوان بدائية. انفعالات بدائية. اللوحات الجصيّة تحكي الحكاية. وأسلوب حياتهم الذي مارسوه في كل يوم وطوال اليوم يحكي بصوتٍ أعلى من صوت الكتب. إنَّ ما تمتمَ به البابوات من بين لحاهم هو شيء - وما أمروا به كي يُرسَم على جدرانهم شيءٌ آخر. لقد ماتت الكلمات.

الملاك هو علامتي الخفيّة

موضوع هذه الصفحات يتعلَّق بأصل إنجاز تحفة فنيّة. التحفة الفنية هي ها هنا مُعلّقة على الجدار أمامي ؛ لقد جفَّتْ الآن. إنني أكتب هذا لأتذكَّر مجرى العمل، فلعلّي لن أقوم بمثله بعد الآن.

يجب أنْ نعود قليلاً إلى الوراء... إنني أتصارع منذ يومين مع شيءٍ ما. وإذا أردتُ أنْ أصِفه بكلمة لقلتُ إنني كنتُ كالخرطوشة المعبّأة. وهذا الكلام دقيق تماماً تقريباً، إذ عندما أفقت هذا الصباح من حلم الصورة الوحيدة التي بقيتْ تلحُّ على ذاكرتي كانت صورة صندوقي الكبير وهو مُجعَّد كقبعة قديمة.

في اليوم الأول يكون الصراع غامضاً. لكنه من القوة بحيث يُشلّ. أعتمر قبعتي وأذهب لأشاهد معرض لوحات رينوار وأنتقلُ من معرض رينوار إلى متحف اللوفر ومن اللوفر أذهب إلى شارع ريفولي - الذي لم يعُد يُشبه شارع ريفولي في شيء. وهناك أجلس مدة ثلاث ساعات مع كأس من البيرة، مفتوناً بالوحوش التي تمرّ من أمامي.

في اليوم التالي أفيقُ صباحاً مع الاعتقاد بأني سأنجزُ شيئاً. هناك ذلك التوتر الخفيف الرائع الذي يبشِّر بالخير. دفتر ملاحظاتي إلى جانبي. ألتقطه وأقلِّب صفحاته بحركة سريعة بشرود. وأقلّبها من جديد - هذه المرة بانتباهٍ أكبر. الملاحظات مرتّبة بأسطُر موجزة : عبارة واحدة قد تسجّل كفاحٍ عام. وبعض الأسطر لم أعد أنا نفسي قادراً على فكّ

طلسمها - ربما سيعمل كُتّاب سيرتي على الاهتمام بهذا الأمر. لا أزال ممسوساً بفكرة أنني سأكتبُ اليوم. أكتفي باستعراض صفحات دفتر ملاحظاتي بحركة سريعة على سبيل الإحماء استعداداً لبدء العمل. هكذا أتخيَّل. لكنَّ الغريب في الأمر هو بينما أمرُّ بسرعة على تلك الملاحظات يحدثُ لي أمرٌ مميت.

ما يحدث هو أنني أثَّرتُ في تانت مليا. والآن أصبحت حياتي بأكملها تندفع نحو الأعلى باندفاعٍ واحد، كنبع حمّة تفجَّر لتوّه من الأرض. إنني أتوجّه إلى المنزل مع تانت مليا وفجأةً أدركُ أنها مجنونة. إنها تطلب مني القمر. وتزعقُ " ***هناك في الأعالي ! هناك في الأعالي***!"

عند حوالي الساعة العاشرة صباحاً يزعقُ هذا السطر في وجهي. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً - وحتى الساعة الرابعة من صباح هذا اليوم - وأنا في قبضة قِوى خفيّة. أضعُ الآلة الكاتبة جانباً وأبدأ بتسجيل ما يُملى عليّ. صفحات وصفحات من الملاحظات، وعند كل حادثة أتذكّر المصدر الذي أستقي منه القرينة. الملفّات التي نُسِّقَتْ فيها مخطوطاتي أُفرِغَتْ على الأرض. أستلقي على الأرض وقلم رصاص في يدي، أدوِّن الحواشي بسرعةٍ محمومة. ودون توقّف. أنا جذلان، وقلِق في وقتٍ واحد. ولو يستمرّ الوضع على هذا المنوال فسأُصاب بنزيفٍ دمويّ.

عند حوالي الساعة الثالثة أُقرّر ألاّ أستسلم. سأخرج لأتناول الطعام. ربما يزول عني كل شيء بعد الغداء. أمتطي درّاجتي لأُبعِدَ الدمَ عن رأسي. لا أحملُ معي دفتراً - عن قصد. فإذا بدأ الإملاء، tant pis (لا يهمّ) أنا في الخارج أتناول طعام الغداء !

في الساعة الثالثة لا يمكنك أنْ تحصل إلاّ على ترويقة باردة. أطلبُ

دجاجاً بارداً مع المايونيز وهو يُكلّف أكثر مما أُنفق عادةً بقليل. لهذا السبب بالذات أطلبه. وبعد قليلٍ من التدبُّر أطلبُ خمر برغندي ثقيل بدل الـ vin ordinaire المعتاد. آمل من هذا كله أنْ يمدّني بالإلهام. وعلى الخمر أنْ يجلب قليلاً من النعاس إلى عينيّ.

ها أنا أشرب الزجاجة الثانية وقد امتلأ مفرش الطاولة بكتابة الملاحظات. أشعر برأسي خفيفاً بصورة خارقة. أطلبُ جبناً وعنباً وحلوى. إنني مذهول من شهيتي ! ومع ذلك، بصورة ما لا يبدو أنه ينزل إلى معدتي ؛ أشعر كأنَّ شخصاً آخر هو الذي يأكل هذا نيابة عني. ولكن، على الأقلّ، سيتوجّب عليّ دفع ثمنه ! وهذا أمرٌ مؤكّد... أدفع النقود وأنطلق من جديد على الدراجة. أتوقَّف في إحدى المقاهي لأشرب قهوة سادة. لا أستطيع أنْ أستقر بكلتيّ قدميّ على الأرض الصلبة. ثمة مَنْ يُلقّنني باستمرار - دون أي اعتبار لصحتي.

أؤكد لك أنَّ يومي كله يسير على هذا المنوال. لقد استسلمت منذ زمن بعيد. أقول لنفسي، أوكيه. إذا كان لابد من ***الأفكار*** اليوم، فليكُنْ. Princesse, a vos orders (أيتها الأميرة، أنا رهن أوامرك). وأكدُّ كالعبد، وكأنَّ هذا هو بالضبط ما أردت أنْ أفعله.

بعد العشاء أكون مُنهكاً تماماً. لا تزال الأفكار تُغرقني، لكنني مُتعب إلى درجة أنّي أستطيع أنْ أستلقي على ظهري وأدعها تعبثُ بي مثل التدليك الكهربائي. وأخيراً ينال مني التعب بحيث لا أقوى على تناول كتاب لآخذ قسطاً من الراحة. إنها نسخة من صحيفة. هنا سأجد السلام. أفتحُ الصفحة أمامي وأُذهلُ إذ أجد الكلمات التالية : " غوته وشيطانه ". قلم الرصاص في يدي من جديد، ويزدحم الهامش

بالملاحظات. ويحلّ منتصف الليل. وأنا جذلان. ويتوقف الإملاء. وأنا حجرٌ من جديد. سعيد إلى درجة أني أتساءل إنْ كان ضرورياً أنْ أقوم بجولة قصيرة قبل أنْ أجلس لأكتب. الدراجة في غرفتي. إنها قذرة. أقصد الدراجة. أتناول خرقة وأبدأ بتنظيفها. إنني أُنظِّف كل شعاع، وأزيّته تماماً، وألّمع الرفارف. وها هي ذي جديدة. سأمتطيها إلى غابة بولونيه...

أثناء غسل شعري أشعر بألمٍ ممضّ في أحشائي. إنني جائع، هذا هو السبب، حسن، ما دام الإملاء قد توقّف فأنا حر أفعلُ ما أريد. أفتحُ زجاجة، أقتطعُ شريحة كبيرة من الخبز وأقضمُ قطعة من السجق. السجقّ محشوّة بالثوم. رائع. إنَّ رائحة الثوم تضيعُ في غابة بولونيه ولا يلاحظها أحد. كمية أخرى من الخمر وقطعة أخرى من الخبز. هذه المرة أنا الذي يأكل ولا شك في ذلك. الوجبات الأخرى ذهبت هباءً. وامتزجت رائحة الخمر برائحة الثوم لينتجَ عبقُ كريه. وأتجشّأ قليلاً.

أجلسُ بعض الوقت لأدخّن سيجارة. هناك عند مرفقي كُتيِّب، على بُعد ثلاثة إنشات مُربّعة. عنوانه " الفن والجنون ". فات وقت ركوب الدراجة. لم يعُد الوقت ملائماً للكتابة. وأخذ يجتاحني شعور بأنَّ ما أريده فعلاً هو أنْ أرسم لوحة. في عام ١٩٢٧ أو ٢٨ أوشكتُ أنْ أصبح رساماً. كنتُ، بين حينٍ وآخر، في نوبات معيَّنة وبدايات متفرِّقة، أرسمُ لوحة مائية. والأمر يأتيك على النحو التالي : تشعر برغبة في رسم لوحة مائية، فترسمها. في مصحّ الأمراض العقلية ينفّذون جنون عقولهم في لوحات. يرسمون الكراسي، الجدران، الطاولات، أعمدة السرير... إنتاجيّة مذهلة. إذا شمّرنا عن سواعدنا وباشرنا العمل كما يفعل أولئك المجانين فما عجزنا عن إنجاز أي شيء خلال حياتنا كلها !

اللوحة الموجودة أمامي، التي رسمها أحد نزلاء تشارنتن، تتصِف بخاصيّة رائعة جداً. أرى فيها فتى وفتاة جاثيان متقاربَين ويحملان في أيديهما قفلاً ضخماً. وبدل أنْ يرسم الرسام قضيباً ومهبلاً زوّدهما بمفاتيح، مفاتيح ضخمة جداً ومتداخلة. وفي القفل مفتاحُ ضخم أيضاً. وتبدو عليهما السعادة وقليل من الشرود... في الصفحة ٨٥ يوجد منظر طبيعي يبدو مُشابهاً تماماً لإحدى لوحات هيلير هيلر. الميزة الوحيدة فيها أنه في الجزء الأمامي يوجد رسم مُنمنم لثلاثة رجال مرسومين بشكلٍ مُشوَّه. وليس تشويههم خطيراً - إنهم ببساطة يبدون أثقل من أنْ تحملهم أقدامهم. أما باقي اللوحة فهي من الجودة بحيث إنّه لن ينزعج منها إلاّ مَنْ كان سريع الغثيان حقاً. ثم، هل العالم من الكمال بحيث لا يوجد في أي مكانٍ منه ثلاثة رجال لا تقوى أقدامهم على حملهم ! يبدو لي أنَّ للمجانين أيضاً رؤاهم الخاصة كما لنا.

إنني شديد التوق إلى البدء بالعمل. ومع ذلك، أنا مرتبك وبحاجة إلى أفكار ولقد توقفَ الإملاء. لستُ متحمّساً كثيراً لنسخ إحدى تلك اللوحات. لكنني مع ذلك أشعر بشيءٍ من الخجل من نفسي - لأنَّ نسخ عمل إنسان مجنون هو أسوأ شكل من أشكال الانتحال.

حسن، فلأبدأ ! هذا أهم شيء ! لأبدأ بالحصان ! في ذهني صورة غامضة لأحصنة أتروسكا التي شاهدتُها في اللوفر. (ملاحظة : كان الحصان في جميع عصور الفن العظمى شديد القُرب من الإنسان !) وأباشر الرسم. من الطبيعي أنْ أبدأ بالجزء الأسهل من الحيوان - بشرح الحصان. فتحة صغيرة للذيل يمكن إقحامه فيها لاحقاً. وما أنْ أبدأ برسم الجذع حتى ألاحظ على الفور أنه شديد الاستطالة. تذكَّرْ، إنكَ ترسم

حصاناً - وليس سجق الكبد ! وبغموض شديد يبدو لي أنَّ الأحصنة الأيونية التي شاهدتها مرسومة على أواني الزهور السوداء كان لها جذوع مستطيلة، والقوائم فيها تبدأ من داخل الجسم، مرسومة بخطٍ رائع مطبوع يمكنك أنْ تنظر إليها أو لا تنظر وِفقاً لغرائزكَ التشريحية. وأقرِّر، واضعاً ذلك في حسباني، أنْ أرسم حصاناً أيونياً. ولكن تبرزُ الآن أمامي مصاعب جديدة ؛ إنها القوائم. إنَّ شكل قائم حصان شيء مُحيِّر حين لا تملك إلا ذاكرتك تعتمد عليها. إنني لا أتذكَّر إلا بدءاً من نتوء أسفل القائم وما تحته، أقصد، الحافر، وكسوّ الحافر باللحم عملٌ دقيق، دقيق جداً. إلى جانب جعل القائمين ينضمّان مع الجسم بشكلٍ طبيعي، وليس كما لو أنهما مُلصقان بالصمغ. صار لحصاني خمسة قوائم : أسهل ما يمكن القيام به هو تحويل أحدهما إلى phallus erectus (قضيب منتصب) وليس أفضل من الكلام إلاّ الفعل. والآن إنه يقفُ كتمثال من الغضار ينتمي إلى القرن السادس قبل الميلاد. الذيل لم يُركَّب بعد، لكنني تركتُ فتحةً فوق فتحة الشرج مباشرةً. فالذيل يمكن أنْ يوضع في أي وقت. الشيء الأساسي هو أنْ أجعله يتحرَّك، يبدو كأنه ينتفض. لذا لويتُ القدمَين الأماميتين إلى أعلى. بات جزءٌ منه يتحرَّك، أما الباقي فلا يزال جامداً. بوجود الذيل المناسب سأحوّله إلى حيوان كنغر.

أثناء إجراء تجاربي على الساق يتهدَّم البطن. أرفعه إلى أعلى ما أمكن - إلى أنْ يبدو أشبه بأرجوحة شَبَكيّة. فلتكن هكذا. فإذا لم يبدُ أشبه بحصان أستطيع أنْ أحوّله في أي وقتٍ من العمل إلى أرجوحة شَبَكيّة. (ألم يكن هناك أناسٌ نائمون في بطن الحصان على إحدى تلك الأواني التزيينيّة التي شاهدتُها ؟)

لا يستطيع أحد لم يسبق له أنْ تفحَّصَ جمجمة حصان بانتباه أنْ يتصورَّ مدى صعوبة رسمها ؛ جعلها تبدو جمجمة وليس مَعْلَفاً ؛ أنْ تضع العينين دون أنْ تجعل الحصان يضحك ؛ كي تجعل الهيئة هيئة حصان ولا تدعه يتحول إلى إنسان. عند هذه النقطة أعترفُ صراحةً بأني أشعر بالتقزُّز التامّ من براعتي الفائقة. أشعر برغبةٍ في أنْ أمحو وأبدأ من جديد. لكنني أمقتُ المحاة ؛ أفضِّل أنْ أحوّله إلى دينامو أو بيانو ضخم على أنْ أمحوه كله.

أُغمِضُ عينيّ وأحاولُ بهدوء تام أنْ أرسم حِصاناً بعينيّ عقلي. أمسحُ بيدي على العُرف والكتفين والخاصرتين. يبدو لي أنني أتذكَّر بوضوحٍ تام كيف يشعر الحصان. وخاصةً الطريقة التي يرتعش بها عندما تزعجه ذبابة. وملمس العروق الدافئ المُتملِّص. (في تشولا فيستا كنت أمشِّط شعر الحمير قبل الذهاب إلى الحقول. وأفكِّر - لو أستطيع أنْ أحوِّله إلى حمار، لكان شيئاً رائعاً !)

وهكذا أبدأ من جديد - هذه المرة سأبدأ بالعُرف. في الواقع إنَّ عرف الحصان هو شيء مختلف تماماً عن ذيل الخنزير، أو غديرة الخادمة. إنَّ شيريكو[١٤] يضع عروفاً رائعة على أحصنته وكذا فالانتاين براكس. العرف شيء مميَّز. أؤكِّد لك أنه ليس مجرَّد تموُّج في الشعر. يجب أنْ تحتوي على المحيط، والقدر الكبير من الأساطير. إنَّ ما يتألَّف الشعر والأسنان والأظافر لا يؤلِّف عرف الحصان. إنه شيء مختلف... على أي حال. عندما أجد نفسي في ورطة كهذه أعلمُ أنني أستطيع أنْ أتخلَّص

١٤ - جيورجيو دو شيريكو (١٨٨٨ - ١٩٧٨) : رسام إيطالي شبه سريالي - عاد إلى الأسلوب الكلاسيكي

منها لاحقاً عندما يأتي وقت إضافة اللون. اللون هو بمثابة لحن توكاتا : الرسم ينتمي إلى عالم الفِكر (ومعه حق مايكل أنجلو أنْ يشعر بالاشمئزاز من دافنتشي. هل هناك ما هو أشدّ بثّاً للروع وإثارة للخيال المُقززّ من لوحة ***العشاء الأخير*** ؟ هل هناك ما هو أشدّ تصنُّعاً من لوحة ***الموناليزا*** ؟)

كما أقول، جديرٌ بقليل من اللون أنْ يبثَّ الحياة في العرف. لا يزال البطن يعيثُ قليلاً في الفوضى، كما أرى. حسن، حين يكونُ مُحدَّباً أجعله مِقعّراً والعكس بالعكس. وفجأةً ها هو حصاني يثب، وينفث منخراه ناراً. ولكن بوجود عينيه الاثنتين لا يزال يبدو بليداً، أو فلنقُل إنسانياً. إذنْ، أمحو إحداهما. عظيم. إنه يتّخذ شكل حصان شيئاً فشيئاً. وله نظرة حادّة - مثل تشارلي تشيس ممثل السينما...

ولكي أحافظ على الجنس الذي يمثّله أقرِّر أخيراً أنْ أُخطِّطه. والفِكرة هي أنه إذا لم يتخلَّ عن عبثه سأحوّله إلى حمار وحشي. وهكذا رسمتُ الخطوط. والآن، اللعنة على هذا كله، لقد أصبح يبدو وكأنه مصنوع من الكرتون. وجَعَلَته الخطوط يبدو مُسطّحاً، مُلصَقاً على ورق. حسنٌ، إذا أغمضتُ عيني ثانية فقد أتذكَّر حصان تشينزانو - هذا أيضاً مُخطَّط وبخطوط جميلة أيضاً. ربما عليَّ أنْ أنزل لأُحضِرَ شراباً فاتحاً للشهية وأنظر إلى حصان زجاجة تشينزانو. إنَّ الوقت متأخِّر على تناول المُشهّيات. ربما أقوم أولاً ببعض الانتحال. إذا استطاع مجنونٌ أنْ يرسم رجلاً يمتطي حصاناً فيمكنه أنْ يرسم حصاناً أيضاً.

أمرٌ عجيب - أجدُ آلهة وإلهات، وشياطين، ووطاويط، وآلات خياطة، ومزهريات، وأنهاراً، وجسوراً، وأقفالاً ومفاتيح، ومصروعين،

وأكفاناً، وهياكل عظمية، لكنني لا أجدُ حصاناً ملعوناً واحداً ! إذا كان المجنون الذي جمع هذا الكرّاس أراد أنْ يُلفِت الانتباه العميق بحق لعلّق بشيءٍ حول هذا الحذف الغريب. فعندما يفقَدْ حصانٌ يكون هناك نقصٌ هائل ! إنَّ الفن الإنساني يمشي يداً بيد مع حصان. ولا يكفي التنويه إلى أنْ الرمزيين والتصويريين هم، أو كانوا، مُفكَّكين. نريد أنْ نعرف، من خلال دراسة للجنون، ماذا حدث للحصان !

وأقلّب الصفحات من جديد على المنظر الموجود في الصفحة ٨٥. إنه قطعة ممتازة على الرغم من فظاظته الهندسية (يتصف المجانين بولَهٍ هائل بالمنطق والنظام، مثل الفرنسيين). صار لديَّ الآن عمل أقوم به : الجبال، الجسور، المصطبات، والأشجار... إنَّ إحدى مواهب الفن الجنوني العظيمة أنَّ الجسر هو دائماً جسر والحصان حصان. الرجال الثلاثة الذين يوازنون أنفسهم على خيزراناتهم في مقدمة اللوحة ليسوا مهمّين جداً بالنسبة إلى المجموع، خاصة بعدما صار لديّ حصان أيونيّ يحتل حيزاً لا يُستهان به. إنني أبحث عن مكانٍ أضعُ فيه الحصان وهناك شيء شديد الكآبة شديد الإثارة في هذا المنظر بمتاريسه ذات الفتحات وجروفه المخروطية والمنزل ذي النوافذ العديدة، وكأنَّ نزلاءه خائفون حتى الموت من الاختناق. إنها تُذكِّر كثيراً ببدايات رسم المناظر الطبيعية، ومع ذلك فهي تقع خارج جميع الفترات المُحدَّدة. يجب أنْ أقول بشكل تقريبي إنها تقعُ في المنطقة ما بين جيوتو[١٥] وسانتوس دومونت - مع أثرٍ بسيط من الشارع السابق للعصر الآلي القادم. والآن، بوجود هذا بمثابة مُرشِدٍ لي، أستجمعُ شجاعتي. Allons-y ! (هيا بنا !)

١٥ - جيوتو (١٢٦٦ ؟ - ١٣٣٧) : يُعتبر مؤسس الرسم الحديث. اشتهر بلوحاته الجصّية.

تحت فتحة شرج الحصان مباشرة حيث يبدأ كَفَلَه وينتهي، وحيث سيودُّ سلفادور دالي أنْ يضع كرسي لوي كانز أو نابض ساعة، أرسمُ بضربات حرّة ليّنة قبّعة من القش، أو بطيخة، وتحت القبعة أضعُ وجهاً - بلا مبالاة، لأنَّ أفكاري كبيرة ومتدفقة. وحيث تقع يدي أرسمُ شيئاً، مُتتبّعاً انحرافات الخط الموحية. بهذه الطريقة أتناول القضيب المنتصب، الذي كان ذات مرة يشكّلُ ساقاً خامسة، وألويه لأحوّله إلى ذراع رجل - إذن ! الآن لديّ رجلٌ يعتمر قبعة كبيرة من القش تخزُ الحصان في ردفيه. رائع ! رائع وممتاز ! إذا بدت غريبة الشكل بعض الشيء، ولا تجاري كثيراً سِمة القرون الوسطى الكاذبة للمركَب الأصلي، أستطيع دائماً أنْ أنسبها إلى انحراف الـ fou الذي ألهمني. (هنا، وللمرَّة الأولى، يتسرّب إليّ الشك في احتمال ألاّ أكون متمالكاً نفسي بصورة كاملة ! ولكن في الصفحة ٣٦٦ ورد ما يلي : " ***أخيراً، بالنسبة إلى ماتيس، ينبغي على عاطفة الموضوع أنْ تعبّر عن نفسها بحرية مُطلَقة، دون اتّجاه واعٍ أو دقّة مرئية : هذا هو أصل التعبير***[١٦] " ولأتابع... بعد قليل من الصعوبة مع قَدَمَيّ الرجل حللتُ المشكلة بوضع النصف السفلي من جسمه خلف الحاجز. إنه يميل على الحاجز، يحلمُ في الغالب، وفي الوقت نفسه يدغدغُ أضلاع الحصان. (في الغالب سوف تصطدم وأنت تمشي على طول أنهار فرنسا برجالٍ ينحنون من فوق حاجز ويحلمون - وخاصة بعد أنْ يُفرغوا مقدار حقيبة مملوءة بالبول)

اختصاراً لجهودي، وأيضاً لأرى كم بقيَ لديّ من حيِّز، أضيفُ كمية من الخطوط أو الألواح الجريئة المائلة، من أجل أرضيّة الجسر. وهذا

---

١٦ - الأصل بالفرنسية .

العمل يقتلُ على الأقلّ ثلث اللوحة، بالنسبة إلى مجموع التركيبة. والآن يحين دور الحواجز، والمنحدرات، والأشجار الثلاث، والجبال المُكللة بالثلوج، والمنازل والنوافذ التابعة لها. إنَّ هذا يشبه لغز الصور المُقطّعة. وكلما رفضَ جُرف أنْ يُرسَم كما ينبغي أحوِّله إلى جانب أو سقف منزل آخر مُستتر، وهكذا، إلى أنْ أصل إلى أعلى اللوحة حيث، ولحُسن الحظ، يوقِف الإطار تقدُّم الأشياء. يبقى أنْ أضيف الأشجار - والجبال.

والأشجار أيضاً هي أحجامٌ قلقة وحسّاسة. هذا إذا كان الرسم لشجرة وليس لباقة زهر ! وعلى الرغم من أني أرسم شعاعاً من البرق بين مجموع الأوراق، وذلك كي أضفي طابع البناء عليها. إلاّ أنَّ ذلك لا ينجح. إذن فلتكُن بضع سُحُب رقيقة هنا لكي أتخلّص من بعض الأوراق الزائدة. (من المفيد جداً دائماً أنْ تُبسِّط مشكلتك بمحوها) لكنَّ السُحُب تبدو كقطعٍ من مناديل الورق طارت من باقات زهر الزفاف. السحابة خفيفة جداً، هي أقلّ من لا شيء بكثير، لكنّها ليست منديلاً من الورق وكل ما له شكل له وجودٌ مرئيّ. وهذا ما نقَّبَ عنه مايكل أنجلو طوال حياته - في الرخام، والشِعر، والحب، والعَمَارة والجريمة، والله... (صفحة ٢٩٠ تقول : " إذا اقتفى الفنان أثر الخلق المُبدع، فهمُّه عندئذٍ يتمركز حول الموضوع الذي ربما كان مُضحًّى به وخاضع لضرورات الإبداع "[١٧])

وأصلُ إلى الجبل - كما وصل محمّد. الآن بدأتُ أعي معنى التحرُّر. إنه الجبل ! ما الجبل ؟ إنه كومة من القذارة التي لا تبلى أبداً. على الأقلّ ليس في زمنٍ تاريخيّ. رسمُ جبلٍ أمرٌ سهل جداً. أريدُ بركاناً. أريد سبباً يُبرّر صهيل حصاني ووثبه. المنطق، المنطق ! " المجنون يُبدي

---

١٧ - الأصل بالفرنسية

اهتماماً بالغاً بالمنطق ![18] " (والفرنسيون أيضاً[19]) حسنٌ، أنا لستُ fou، وعلى الأخصّ لستُ مجنوناً فرنسياً : في وسعي أنْ أسمح لنفسي ببعض الحرية. وخاصة في عملٍ قام به معتوه. لذا أرسمُ الفوهة أولاً وهبوطاً حتى سطح الجبل الذي يندمج مع الجسر وأسقف المنازل في الأسفل. والأخطاء التي أرتكبُها أحوّلها إلى أخاديد على جوانب الجبل – ممثِّلاً بها الأضرار التي سبَّبها البركان. هذا بركانٌ حيّ وجوانبه تتفجَّر.

حين أكونُ منغمساً في العمل بشكلٍ تام أحملُ بيديّ قميصاً. قميص، بالضبط ! أستطيع أنْ ألاحظ الياقة والأكمام. لا ينقصه إلا بطاقة روجرز بيت وقياس ١٦ أو حسب مقياسك... يبقى شيءٌ واحد يبرزُ بوضوحٍ وجلاء لا يخطئان ؛ إنه الجسر. أمرٌ غريب، ولكن إذا كان في وسعك أنْ ترسم قوساً فإنَّ باقي الجسر يتبع تلقائياً. وحده المهندس يستطيع أنْ يُدمّر جسراً.

أوشكت اللوحة على الانتهاء، هذا فيما يخصّ الرسم. أضمُّ الأطراف السائبة كلها في الأسفل لأصنعَ منها بوابات مقبرة. وفي الزاوية العليا إلى اليسار، حيث ترك البركان ثقباً، أرسمُ ملاكاً. إنه شيء ذو طبيعة أصيلة، ابتكارٌ لا مُبرِّرَ له على الإطلاق، ورمزي إلى أقصى درجة. ملاكٌ حزينٌ مُتهدِّل البطن، والجناحان تسندهما أضلاع مظِلّة. وكأنه هابطٌ من خلف ***كواليس*** أفكاري ويحوِّم بحركة صوفية فوق الحصان الأيوني البرّي الذي ضاع الآن بالنسبة إلى الإنسان.

---

١٨ – الأصل بالفرنسية .

١٩ – الأصل بالفرنسية

هل سبقَ لكَ أنْ جلستَ في محطة قطار وراقبتَ الناس يقتلون الوقت ؟ أليسوا في جلستهم يُشبهون ملائكة مُكتئبة - بأقواسهم المكسورة وبطونهم المتهدِّلة ؟ أليست تلك اللحظات الأبدية القليلة التي حُكِمَ عليهم أنْ يكونوا خلالها متوحّدين مع أنفسهم - أليست هي التي تضع أضلاع مظلّة في أجنحتهم ؟

إنَّ كل الملائكة الموجودين في الفن الديني زائفون. إذا أردتَ أنْ ترى ملاكاً حقاً عليك بالمستودع المركزي الكبير أو بمحطة القديس أليعازر. وخاصة محطة القديس أليعازر - Salle des pas perdus (في ردهة الانتظار).

نظريتي في الرسم هي إنهاء اللوحة بأسرع وقت ممكن وفي تلطيخ اللون. فأنا قبل أي شيء عارفٌ بالألوان، ولستُ حِصانَ جرّ. إذن، إلى الأنابيب !

أبدأ برسم جانب المنزل، بلون بنّي مصفرّ. ليس مؤثراً كثيراً. وأضعُ ضربة حُرّة من الأليزارين القرمزي على الجدار المجاور. إنه جميل وإيطالي أكثر مما ينبغي. على أي حال، عموماً لم أبدأ بشكلٍ جيد بألواني. يسود جوٌ ممطر يُذكّرني نوعاً ما بأوتريللو[٢٠]. أنا لا أحب بلاهة أوتريللو الهادئة، ولا أيامه الماطرة، ولا شوارعه الضواحيّة، ولا حتى الطريقة التي تُبرز بها نساؤه مؤخراتهنّ في وجهك... أُخرِجُ سكين الخبز. قد أُجرِّب أيضاً مقداراً من الطِلاء الكثيف. وفي محاولتي ضغط تشكيلة غنيّة من الألوان تتملّكني رغبة في إضافة قارب جندول إلى لوحتي ؛ أقحمه تحت الجسر مباشرةً، فينطلق تلقائياً.

---

٢٠ - موريس أوتريللو (١٨٨٣ - ١٩٥٥) : رسام فرنسي

وفجأةً صرتُ أعرفُ علّة وجود الجندول. فمن بين لوحات رينوار شاهدتُ منذ أيام منظراً لمدينة البندقية، مع الجندول الذي لا غِنى عنه طبعاً. ما أذهلني، بشكلٍ طفيف، كان الرجل الجالس في الجندول، إذْ أنه بدا رجلاً بشكل بارز جداً، على الرغم من أنه كان مجرَّد نقطة سوداء، من الصعب تمييزها عن باقي النقاط التي تُكوِّن أشعة الشمس، والبحر المُقطَّع والقصور المُقوَّضة، والقوارب الشراعية... الخ. كان مجرَّد نقطة وسط تكوين الألوان الناري - ومع ذلك بدا بارزاً للعيان، بل كان في استطاعتكَ أنْ تتكهَّن بأنه فرنسي وأنه من عام ١٨٧٠ أو حوالي ذلك التاريخ...

هذا لا يعني انتهاء العمل في الجندول، فقبل استعدادي يومين من استعدادي للعودة إلى أميركا - في عام ١٩٢٧ أو ٢٨ - عقدنا اجتماعاً كبيراً في البيت. حدث ذلك في فترةٍ هي قمة عهدي بالألوان المائية.

بدأ الأمر بطريقةٍ متميّزة، أقصد بكلامي الهَوَس باللون المائي، ويمكنني القول إنه بدأ عن طريق الجوع. ناهيك عن البرد القارص. كنتُ أتسكَّع طوال أسابيع مع صديقي جو في مكاتب مراهنات الجياد ومحطات الاستراحة، وحيث وُجِدَ الدفء الحيواني مجاناً. وفي طريق عودتنا إلى المشرحة في مساء أحد الأيام لاحظنا وجود نسخة من لوحة لترنر[٢١] في واجهة أحد المخازن الكبرى. هكذا بالضبط بدأ الأمر كله. كانت فترة من أشد الفترات حيوية وأكثرها متعة في حياتي المُجدِبة. وحين أقول إننا فرشنا الأرض باللوحات فأنا لا أغالي. وحالما كانت تجفّ

٢١ - جوزيف مالورد وليم ترنر (١٧٧٥ - ١٨٥١) : رسام إنكليزي

نعلّقها - وفي اليوم التالي نأخذها إلى الطابق الأرضي ونعلّق مجموعة أخرى. رسمنا على خلفيات اللوحات القديمة، كنا نزيل عنها الألوان بالغسل، والكشط بالسكين، وفي سياق تلك التجارب اكتشفنا، بالمصادفة، أشياء مذهلة. اكتشفنا كيف نحصل على نتائج مُسلّية بتفل القهوة وفُتات الخبز، بالفحم وبسائل زهر العطاس. مدَّدنا الرسومات في حوض الاستحمام ونقعناها لساعات، وبعد ذلك أتينا بفرشاة مُثقلة بالألوان واقتربنا من اللوحات الشبيهة بعجّة البيض وهي تقطُر ورحنا نلطّخها بها. لقد أثار ترنر فينا هذا كله - ومعه بدأ شتاء عام ١٩٢٧-٢٨ القارص.

وكما كنتُ أقول، قبل رحيلي بيومين زارنا عدد من الرسامين ليتفحّصوا عملنا. كانوا كلهم من النخبة الممتازة ولم يرْقوا إلى مستوى الاهتمام بعمل هواة. اللوحات المائية مُلقاة في كل مكان على الأرض لتجفّ، كما هي العادة. وكتجربة أخيراً صرنا ندوس فوقها ونُريق قليلاً من الخمر ونحن نقوم بذلك. مُدهشةُ التأثيرات التي يُقدمها كعب قذر، أو قطرة من الخمر ونحن نسقط من علوّ ثلاثة أقدام بأفضل النوايا. ويتصاعد الحماس. اثنان من أصدقائي يعملان على الجدار بقطعٍ من الفحم، وآخر يغلي القهوة ليحصل على بعض التِفل الرائع الطازج. والبقية جالسة تحتسي الشراب. وفي غمرة الاحتفالات - أي حوالي الثالثة بعد الظهر - تدخل زوجتي. يبدو عليها قليل من الغم. تأخذني جانباً وتريني بطاقة سفر على متن سفينة بخارية. آخذها. أقول " ما المناسبة ؟ " تجيب " يجب أنْ ترحل ". أقول " ولكن لا أريد أنْ أرحل ؛ أنا سعيد تماماً هنا " تقول بلهجة أقرب إلى السخرية " هذا ما أراه "

ومع ذلك أرحل. وبينما نحن نبحر في نهر التيمس تكون الفكرة الوحيدة في رأسي هي أنْ أشاهد مجموعة لوحات ترنر في صالة تيت للعرض. وأخيراً أصل إلى هناك وأشاهد لوحات ترنر الشهيرة. ويشاء الحظ أنْ أُثير إعجاب أحد أشباه المجانين، وأكتشف أنه هو نفسه رساماً رائعاً بالألوان المائية. يُنفِّذ أعماله كلها على ضوء المصباح. وقد كرهت حقاً أنْ أغادر لندن، لأنه جعلها تبدو لي ممتعة جداً. على أي حال، أثناء مغادرتنا ساوثامتن أقول لنفسي – " لقد اكتملت الدائرة الآن : من واجهة المخزن العام إلى هنا "

على أي حال، دعني أتابع... سيكون الجندول بمثابة الـ piece de resistance ! "الطبق الرئيسي " ولكن عليَّ أولاً أنْ أنظِّف الجدران. أتناول سكين تقطيع الخبز وأغمسها في الصِباغ القرمزي، وأضيف مقداراً إضافياً إلى نوافذ المنزل. ويا يسوع المقدَّس ! لقد تلطَّت المنازل باللهب على الفور ! لو كنتُ مجنوناً حقاً، ولا أتقلَّد جنون أحد المجانين، لوضعتُ رجال إطفاء في الصورة ولصنعتُ من ألواح أرضيّة الجسر القُطريّة الشديدة الانحدار سلالم. لكنَّ جنوني يتّخذ شكلَ إضرام حريق هائل. إنني أُضرِم النار في البيوت جميعاً – أولاً بلون القرمزي، ثم بلون الـ vermillion القرمزي، وأخيراً بمزيجٍ دمويّ من الثلاثة مجتمعة. إنَّ هذا الجزء من اللوحة واضحٌ وحاسم : إنه محرِقة جماعية.

ونتيجة هذا الحرق الجماعي أنني سبَّبتُ شياط ظهر الحصان. والآن لا هو حصان ولا حمار وحشي ؛ لقد أصبحَ تنيناً آكلاً للنار. ومكان الذيل المفقود هناك مجموعة من المفرقعات النارية ، وبهذه المجموعة من مفرقعات النار المتوضعة فوق فتحة شرجه لم يعُد في استطاعة حتى

حصان أيوني أنْ يحتفظ بجلاله. كان في إمكاني طبعاً أنْ أستمرّ فأحوّله إلى تنين، لكنَّ هذا التحويل والتبقيع أصبح يُسيطر على أعصابي، فحين تبدأ بحصان يجب أنْ تحافظ عليه حصاناً - أو أنْ تتخلّص منه نهائياً. وحالما تبدأ بالعبث بتشريح حيوان ما يمكنكَ أنْ تحيط بجوانب العملية النشوئية العرقيّة كلها.

رحتُ ألطِّخ الحصان بلون الأخضر المُبهم القاسي ولون النيلة. ولاشك في أنه لا يزال في ذهني. قد ينظر الناس إلى هذه المادة المُبهمة ويفكرون قائلين - ما أغربها ! ما أعجبها ! ولكن أنا وحدي أعرف أنها في الأعماق حصان. ففي أعماق أي شيء هناك حيوان : هذا هو شاغلنا الشاغل. حين أرى بشراً يميلون باتجاه النور كأزهار عبّاد الشمس الذابلة، أقول لنفسي " ميلوا، يا أولاد الحرام، وادَّعوا كل ما تشاؤون، ولكنكم في الأعماق ستبقون سلحفاة أو خنزيراً غينيا. كان الإغريق مولعين بالخيول ولو كانت لديهم الحِكمة لَبَقوا أنصاف أحصنة بدل أنْ يلعبوا دور التيتان - حسن، ربما كنا بهذا وفَّرنا الكثير من الآلام الأسطورية.

عندما تكون عارفاً ***فِطرياً*** بالألوان المائية فكل ما يحدث هو بمشيئة الله - لذا، إذا دُعيتُ إلى رسم بوابات المقبرة باللون الأصفر الفاتح الفاقع. فافعل هذا ولا تتذمَّر. ولا بأس إذا كانت فائقة الحيوية بالنسبة إلى بوابات رصينة كهذه. ربما هناك تبرير مجهول. وأقول الحقّ حين أرسم بهذا السائل الأصفر البرّاق، هذا اللون الأصفر الذي أعتبره أجمل ألوان الأصفر (وهو أشدّ صِفرة من مصبّ يانغتس-كيانغ[٢٢]) فإنني أبتهج،

---

٢٢ - يانغتس-كيانغ : البحر الأصفر ، في الصين

أبتـهج، وينزاح عن صدري شيء موحش، مُتخم، مزعج، إلى الأبد. لن أُدهَش إذا كان هذا الشيء هو مقبرة سايبريس هيلز التي مررتُ بها وأنا أشعر بالاشمئزاز والخزي طوال سنوات كثيرة جداً، التي أشرفتُ عليها من المنعطف من الحافلة المرفوعة، وبصقتُ عليها من على رصيف موقف القطار. أو مقبرة القديس يوحنا بملائكتها الرصاصية البليدة، حيث عملتُ كحفّار قبور. أو مقبرة مونبرناس التي تبدو في الشتاء وكأنها قد دُمِّرت بقنبلة يدوية. مقابر، مقابر... يا إلهي، إنني أرفض أنْ أُدفَن في مقبرة ! لا أريد أنْ يقف بعض البلهاء فوق رأسي يحملون بأيديهم مِرشّة ويبدو عليهم الأسى. لا أريد هذا !

بينما هذه الأمور تعبر ذهني كنتُ ألطّخ دون قصد الأشجار والأسوار بفرشاة جافة. صارت الأشجار الآن تلمع كمعطف ذات درع، والأغصان مُرصّعة بحلقات من الفضة والفيروز. ولو كانت حادثة صَلْب وقعَتْ في حضوري لكسَوتُ أجساد الشهداء بندوب مُرصّعة بالأحجار الكريمة. على الجدار المقابل يوجد مشهد من مجاهل أثيوبيا. جسد المسيح المصلوب المُمدَّد على الأرض مُغطّى ببثور الجدري، واليهود مصّاصو الدماء - يهود أثيوبيون سود - يوثقونه بحلقات حديدية. إنهم يحملون على وجوههم تعبيراً جذلاً بعنف. اشتهرت اللوحة بسبب البثور، ولم أعرف سبب ذلك حينئذٍ. لم أكتشف السبب إلاّ الآن. لم أتذكّر إلاّ الآن صورةً بعينها مُعلّقة فوق قبو خمور في الباوري، تحت عنوان " الموت للبق ". حدث ذلك في طريق عودتي من زيارة رسمية لأحد المجانين لم تكن مزعجة بصورة عامة. الوقت منتصف الظهيرة وحلقوم الباوري القذر محشوّ بكُتلٍ من البلغم. وفي أسفل ساحة كوبر يتمدّد ثلاثة سكارى

قُرب عمود النور على طريقة بروغل[٢٢]. وملهى بنسي مزدحم عن آخره. وترنيمة سحرية عُلوية تصدح مُنبعثة من الشوارع، كرجل يشهرُ ساطوراً وهو يشقُ طريقه ويُعاني من هذيان ارتعاشي. وهناك فوق باب القبو المنحرف توجد تلك اللوحة المُسمّاة " الموت للبق ". وامرأة عارية شعرها طويل ومنهمر مستلقية على سرير تهرش نفسها. والسرير مُعلّق في الهواء وحوله يرقص رجل يحمل بندقية رشاشة، يُحيط به جو البَلَه الذي يُحيط بأولئك اليهود ذوي الحلقات الحديدية. الصورة مُبقّعة بالبثور - لكي تمثّل تلك البقّة العالمية ماصّة الدماء المنزوعة الأجنحة والكئيبة ذات اللون الأسمر المائل إلى الحمرة والرائحة الكريهة التي تعمُّ البيوت والأسرَّة والمتداولة بالاسم الرائع المعروف بالـ cimex lectularius.

وها أنا الآن أحملُ فرشاةً جافة أضعُ النقاط على الشجرات الثلاث. الغيوم مُغطّاة بالبق، والبركان ينفثُ بقّاً، والبقّ يتدحرج هابطاً المنحدر الطباشيري وغاطساً في النهر. إنني كذاك المُهاجر الشاب في الطابق الثاني الذي ورد ذكره في قصيدةٍ كتبها أحدهم يُدعى إيفانوفيتش، أو آخر يقفز من مكانٍ إلى آخر على نوابض السرير يتملّكه بؤس حياته المُعدَمة والمهدورة عبثاً، يأساً من كل الجمال البعيد عن متناول يده. إنَّ حياتي كلها تبدو مُغلّفة بذلك المنديل الوسِخ، حي الباوري، الذي تجوّلتُ فيه يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام - إنه إصابة بالجدري لا تندمل ندوبها أبداً. فإذا كان لي اسم فهو cimex lectularius. وإذا كان لي بيت فهو آلة الترومبون المنزلق وإذا كان لدي شغف فهو بالاغتسال حتى النظافة.

---

٢٣ - بيتر بروغل (١٥٣٠ ؟ ١٥٦٩) : رسام فلامنكي . يُعتَبَر تلميذ هيرونيموس بوش أبو السريالية في الرسم

وفي ثورةٍ من الغضب أتناول الفرشاة وأغمسها في جميع الألوان على التوالي وأبدأ بتلطيخ بوابات المقبرة. ألطِّخ وألطِّخ حتى يصبح النصف السفلي من اللوحة بسماكة الشوكولاتة، وتفوح اللوحة برائحة الخضاب. وعندما تفسد تماماً أجلسُ أمامها باستمتاعٍ فارغ وأنا أعبثُ بأصابعي.

وفجأةً أحصل على إلهام حقيقي ؛ فأحملها إلى المغطس وبعد أنْ أنقعها جيداً أكشطها بفرشاة ذات ظِفر. أكشطُ وأكشط ومن ثم أقلب اللوحة رأساً على عقِب تاركاً الألوان تتخثَّر. وبحذر شديد، أمدّها على طاولة المكتب. إنها تحفة فنيّة، أؤكِّد لك ! إنني أتفحَّصها منذ ثلاث ساعات...

قد تقول إنها مجرَّد مصادفة، أقصد هذه التحفة، نعم هي كذلك ! ولكن على هذا الأساس يصحُّ قول الشيء نفسه على المزمور الثالث والعشرين. إنَّ كل ميلاد هو أعجوبة - وإلهام. وما يتبدَّى أمام ناظري الآن هو نتيجة أخطاء لا حصر لها وحركات تراجع ومحوّ وتردُّد، وهو أيضاً نتيجة يقين. وتودُّ أنْ تضعَ ثقتكَ في الفرشاة ذات الظِفر، وفي الماء. إذن افعلْ - وبكل الوسائل. ضعْ ثقتكَ في كل شيء وفي كل شخص. ثِقْ في دانتي، وفي اسبينوزا، وفي هيرونيموس بوش. ثِقْ نقداً وكُنْ مديناً للمجتمع المجهول. واكتب في السجل اليومي : ***تانت مليا***. هكذا. ارسم توازناً. استخدم بنساً لذلك، هه؟ إذا استطعت أنْ تخرج بنساً من جيبك وأنْ توازِن الكتب، فستفعل. لكنَّكَ لم تعُد تتعامل مع بنسات حقيقية. فليس هناك آلة من المهارة بحيث تُلفِّق، وتزيِّف هذا البنس الذي لا وجود له. إنَّ عالمَ الحقيقي والزائف بات خلفنا. وقد أوجدنا اللا ماديّ من الماديّ.

عندمـا تتـمكّن من رسم توازن نظيف لم يكـن مـا بين يديك مـجـرَّد صورة. فـقـد صـار لديك الآن الـلا مـحسـوس، المصـادفـة، فـتـجلس، طِوال الليل ودفـتـر الحـسابات بين يديك تعـصـر جـمـجـمـتك فـوقـه وتحـمل عـلامـة ناقص عـلى يديك. إنَّ كـل المعلومـات الحـيّـة المـتـعـة مُـصنّـفـة في فـئـة الـناقص. وعـندمـــا تجـد المكافـئ الموجب يكـون لديـك – لا شيء. يـكـون لديك ذلك الـشيء الخيـالي، اللحظي المُسمّى " التـوازن ". إنَّ الـتـوازن لا يوجـد أبداً. إنـه خـدعـة، كـتـوقـيـف الـسـاعـة، أو كـالمناداة بالـهـدنة. إنك تكتشف توازناً لتُضيف ثقلاً مُفترضاً، لتخلق سبباً لوجودك.

لم أتوصَّل مرةً إلى رسم توازن. إنني دائماً ***ناقص*** شيء ما. لذا، لديّ سبب لأستمرّ. إنني أضعُ حياتي برمّتها في التوازن لكي تكون النتيجة لا شيء. ولكي تصل إلى اللا شيء عليك أنْ تطرح أرقامـاً لا مـتناهيـة. هذا هو الأمـر كله : في المعـادلة الحـيّـة الإشارة بالنسـبة إليّ هي اللا مـتناهي. ولكي تصل إلى اللا مكان عليك أنْ تعبُر كلّ كونٍ معروف: يجب أنْ تكون في كل مكان لكي تكون في اللا مـكان. ولكي تحصل على الفوضى عليك أنْ تحطِّم كـل شكـل مـن أشكـال الـنظـام. ولكـي تُجنّ يجـب أنْ يكـون لديـكَ ركام هائل من السِمات العاقلة. كل المجانين اللذين ألهمتني أعمالهم كانوا يتمتعون بلمسة من العقلانية الباردة. وهم لم يُعلّموني شيئاً – لأنَّ لوائح التوازن التي سلّموها إلينا قد زُيِّفَتْ. حسـاباتهم لا تعني لي شـيـئاً – لأنَّ الأرقـام قـد بُدِّلَتْ. ودفـاتر الحـسابات المُذهَّبـة الحواف الرائعة التـي أعطوني إياها تحوي الجمال الخفيّ للنباتات المُقحَمَ في الليل.

مـا أروع تحفتي الفنية ! إنهـا مـثل شظيّة تحت الظِفر. إنني أسألكَ الآن وأنتَ تنظر إليـهـا، هل تـرى الـبحيـرات الكـامنة خلف جبـال الأورال ؟

هل ترى كوتنشي المجنون وهو يوازن نفسه باستخدام مظلّة ورَقيّة ؟ هل ترى قوس تراجان[٢٤] يشقُّ دخان آسيا ؟ هل ترى طيور البطريق تذوب في جبال الهيمالايا ؟ هل ترى الإغريق والسيمونوليين[٢٥] ينزلقون مُجتازين بوابات المقبرة ؟ هل ترى الجداريات الجصيّة من النيل الأعلى، بأوزاتها الطائرة، ووطاويطها والأقفاص الهائلة ؟ هل ترى مقابض سيوف الصليبيين والرضاب الذي كان يغسلهم تماماً هل ترى الأكواخ البدائية تشتعل ناراً ؟ هل ترى مادة القلي تغوص وعِظام البغال والبوراكس البرّاق ؟ هل ترى ضريح بالتازار أو الغول الذي يرميه ؟ هل ترى المصبّات الجديدة التي ينوي نهر كولورادو شقّها ؟ هل ترى أسماك النجمة المرتمية على ظهورها والذرّات التي تسندها ؟ هل ترى عينيّ الإسكندر الملتهبتَين، أو الحزن الذي ألهمهما. هل ترى البحر الذي تتغذّى عليه الخربشات ؟

كلا، أخشى أنكَ لا ترى شيئاً ! أنتَ لا ترى إلا الملاك الأزرق الكئيب الذي جمّدته أنهار الجليد. بل حتى أنك لا ترى دعامات المظلّة، لأنكَ لم تتدرَّب على البحث عن دعامات المظلات لكنّكَ ترى ملاكاً، وترى فتحة شرج حصان. وفي وسعك أنْ تحتفظ بهما : ***إنهما لك*** ! لم يعُدْ هناك بثور على الملاك - بل مجرَّد بقعة من الضوء الأزرق البارد تبرز بوضوح بطنه المتدلّي وأضلعه المكسورة. ها هنا يقفُ الملاك كالعلامة الخفيّة ؛ إنه ضمان لرؤاك المعصوبة. ليس للملاك غدّة دَرَقيّة

٢٤ - تراجان (٥٤ ق م - ١١٧ م) : لإمبراطور روماني . معه وصلت الإمبراطورية الرومانية إلى أوجها ، وبعده بدأ انحطاطها

٢٥ - السيمونوليون : شعب من الهنود في أميركا الشمالية يتألفون من اليونانيين الذين انتقلوا إلى فلوريدا في القرن الثامن عشر

مُتضخّمة، أما الفنان فله. الملاك مستعدّ لوضع أغصان بقدونس فوق صحنك المملوء بعجّة البيض، أو وضع النفّل shamrock في عروتكَ. في استطاعتي أنْ أكشط الأسطورة عن عرف الحصان، وأنْ أكشط اللون الأصفر عن النهر الأصفر، وأنْ أكشط الموعد الذي ينتظره الرجل الجالس في الجندول : وأنْ أكشط الغيوم والمنديل الورقي الذي يُغلّف الباقات ذات البريق المتشعِّب... ***لكنني لا أستطيع أنْ أمحو الملاك. الملاك هو علامتي الخفيّة.***

دكّان الخيّاط

عندي لكَ شِعار : فلتكُنْ دائماً مرِحاً ومُستبشراً !

في المعتاد يبدأ اليوم كما يلي : "اطلبْ من فلان الفلاني أنْ يُعطيك شيئاً على الحِساب، **ولكن لا تهنه** ! " كانوا أولاد حرام حسّاسين، أولئك الخروات العجائز الذين كنا نزودهم ببضاعتنا. كان ذلك كافياً لدفع أي رجل إلى السُكر. كان محلنا هناك، قبالة حانة أولكوت مباشرة، وعلى الرغم من أننا كنا محسوبين من بين خيّاطي الجادّة الخامسة إلا أننا لم نكن نقيم في الجادّة. كنا شركة مساهمة مؤلّفة من الأب والابن، وأمٍ تُمسك الغلّة.

في أوقات الصباح، عند الساعة الثامنة أو نحوها، أقوم بمسيرٍ فكريّ نشط من شارع ديلانسي والباوري إلى ما بعد والدورف. ومهما أسرعتُ الخطى أجدُ دائما العجوز بنديكس قد سبقني إلى هناك، وأثار زوبعة مع قصّاص القماش لأنَّ لا أحد من المعلّمين على رأس عمله. كيف كان يحدث ولا نستطيع أنْ نصل إلى المحل قبل ذلك العجوز الأحمق ؟ لم يكن لدى ذلك البنديكس ما يفعله غير أنْ يهرع من محل الخيّاط إلى صانع القمصان ومن صانع القمصان ينتقل إلى محل الصائغ ؛ فخواتمه إما واسعة جداً أو ضيّقة جداً، وساعته إما متأخّرة خمس وعشرين ثانية أو متقدمة ثلاث وثلاثين ثانية. كان يُثير الزوابع مع الجميع، بما فيهم عائلة الطبيب، لأنَّ هذا الأخير لم يستطع أنْ يُنظّف له كليتيه من الحصى. وإذا صنعنا له سترة كيسيّة في شهر آب مع حلول شهر تشرين

الأول تصبح إما واسعة جداً عليه أو ضيّقة جداً. وحين لا يجد ما يشتكي منه يرتدي ملابسه كما ينبغي لكي يستمتع بالصراخ في وجه صانع الملابس الداخلية لأنه يتسبَّب في الضغط على خصيتيّه هو، هـ. و بنديكس. رجل صعب المراس. حسّاس، كثير النزوات، خسيس، غريب الأفكار، بخيل، متقلّب الأهواء، حاقد. وحين أعود بذاكرتي إلى كل تلك الأيام، ويتراءى لي أبي العجوز جالساً عند الطاولة وأنفاسه تفوح برائحة الخمر ويقول " اللعنة، لِمَ لا يبتسم أحدكم، لِمَ يبدو الغمّ عليكم جميعاً "، أشفقُ عليه وعلى الخياطين الذين يضطرون إلى التزلُّف للأغنياء. ولولا حانة أولكوت الكائنة على الطرف الآخر من الشارع ومصاحبته للسكارى هناك يعلمُ الله إلى ما كان سيؤول إليه أبي العجوز. وهو حتماً لم يكن يحظى بأي قدرٍ من العطف في المنزل. لم يكن لدى أمي أدنى فكرة عما يعنيه التزلُّف للأغنياء. كل ما كانت تعرفه هو الأنين والنواح طوال النهار، ونتج عن أنينها ونواحها سكيرٌ وحلوى بطاطا لا يمسّها أحد. وبسبب قلقها سرعان ما أصابنا، أخي وأنا، التوتّر العصبي حتى بتنا نختنق بلعابنا. وكان أخي أبله وسبَّبَ ضغطاً على أعصاب الوالد العجوز أكثر مما فعل هـ. و بنديكس بعبارته " القسّ فلان الفلاني ذاهبٌ إلى أوروبا... والقسّ الفلاني سيفتتح صالة للعب البولينغ " الخ، فيقول الرجل العجوز " القس فلان الفلاني أخرق، ولماذا ليست الزلابية حارة ؟ "

كان هناك ثلاثة أشخاص من آل بندكس - هـ. و، المتذمِّر، و أ. ف، الذي كان العجوز يُشير إليه في دفتر السجلات باسم ألبرت، و ر. ن، الذي لم يزُر المحل أبداً لأنَّ ساقيه مبتورتان، ومع ذلك لم يمنعه هذا من

ارتداء بنطلونه في الوقت المناسب. وأنا لم أشاهد ر. ن أبداً شخصياً. كان مجرد بندٍ في السجل والذي تحدَّثَ عنه القصّاص بنتشيك بكلام متوهّج لأنه عندما كان يحين وقت تجربة بنطلون جديد يتوفَّر بعض شراب الشنابس. كان الأخوة الثلاث أعداء أبديين ؛ لم يكن أيٌ منهم يأتي على ذِكر الآخر في حضورنا. فإذا ما تصادفَ أنْ شاهد ألبرت، الذي كان معتوهاً قليلاً ومولعاً بالبزّات المُنقَّطة، سترة مُذيّلة رسمية مُعلَّقة على المشجب واسم هـ. و بندكس مكتوب بالحبر الأخضر على إشعار التجربة، زمجر بصوت ضعيف وقال - " الجو اليوم أشبه بالربيع، هه ؟ ". ولم يكن من المفروض أنْ يوجد شخص يحمل اسم هـ. و بندكس، على الرغم من أنه كان جليّاً للجميع أننا لا نصنع الملابس للأشباح.

لقد أحببتُ ألبرت أكثر أخويه الآخرَين. كان قد بلغ ذلك السن الناضجة التي تصبح العظام عندها هشّة كالزجاج. وكان لعموده الفقري انحناء التقدُّم في السن، وكأنه مستعدٌ للتكوُّم تمهيداً للعودة إلى الرحم. كان في الإمكان معرفة موعد وصول ألبرت بسبب جَلَبَة المصعد - وكان سيلٌ من اللعنات والتأوهات تتلوه نقرة رشيقة ترافقها عملية وصول أرضية المصعد إلى المستوى التام لأرض دكاننا. فإذا لم تكن الدقة بمقدار ربع بوصة لا تُسمَع النقرة ويقضي ألبرت بعظامه الهشّة وظهره المحنيّ وقتاً طويلاً مُحاولاً اختيار الأزرار المناسبة المتناسقة مع بزّته المُنقّطة، آخر بزّة مُنقّطة يخيطها. (حين توفي ألبرت ورثتُ بزّاته المُنقّطة كلها - وقد خَدَمتني حتى نهاية الحرب) وإذا تصادفَ، وقد حدث فعلاً، وكان العجوز على الطرف المقابل من الشارع يرشف قليلاً من المشروب في وقت وصول ألبرت يتحوَّل النهار كله بصورةٍ ما إلى فوضى عارمة. وأتذكَّر أوقاتاً

كان يستشيط فيها غضب ألبرت من العجوز إلى درجة أننا أحياناً لم نكن نره طوال ثلاثة أيام كاملة ؛ في تلك الأثناء تتبعثر أزرار البزّة في كل مكان وهي مثبَّتة على بطاقات ولا يدور الحديث بعدها إلا عن أزرار البزّة، أزرار البزّة، وتصبح البزّة نفسها غير ذات أهمية، ولا يبقى هناك غير الأزرار. وبعد ذلك، حين تعوَّدَ ألبرت على أساليب العجوز المُهملة - استمرَّت عملية تعوُّد أحدهما على الآخر مدة سبعة وعشرين عاماً - أصبح يتصل بنا هاتفياً ليُبلغنا أنه في طريقه إلينا. وقبل أن يُنهي المكالمة يُضيف : " أعتقد أنه لا مانع لديكم إذا وصلتُ في الحادية عشرة... أرجو ألاّ يكون التوقيت غير مناسب ؟ " ويكون فحوى ذلك الاستفهام الصغير ذا وجهين. فهو يعني - " أعتقد سوف تكونون من الكياسة بحيث أجدكم حاضرين لدى وصولي ولا تجعلونني أتسكع مدة نصف ساعة بينما أنتم تسكرون مع أصحابكم على الجانب الآخر من الشارع "، ويعني أيضاً - " أعتقد أنه في الساعة الحادية عشرة هناك بعض الخطر من الالتقاء مصادفةً بشخصٍ الحرفين الأولين من اسمه هما هـ. و ؟ ". خلال السنوات السبع والعشرين التي صنعنا فيها ما يُقارب ١٥٧٨ بزّة لثلاثي الأخوة بنديكس تصادفَ أنهم لم يتقابلوا قط، ليس في حضورنا على الأقلّ. وحين توفي ألبرت وضع كلٌ من ر. ن و هـ. و عُصابة الحِداد على أكمامهما، وعلى الأكمام اليسرى كلها لستراتهما الكيسيّة ومعاطفهما - أي، على المعاطف التي ليست سوداء - ولكن لم تُقَلْ أي كلمة عن المتوفى، ولا عن مَنْ هو. وطبعاً كان لدى ر. ن المُبرر الكافي لعدم حضور الجنازة - لقد بُترت ساقاه. كان هـ. و من الخِسّة والكبرياء بحيث يزعج نفسه بتقديم عذر.

في حوالي الساعة العاشرة يذهب الرجل العجوز عادة ليتناول جولته الأولى من المشروب. كنتُ أقفُ عند النافذة المواجهة للفندق وأراقب جورج ساندسكي يعتل الصناديق الكبيرة إلى السيارة وعندما لا تعود هناك صناديق يعتلها يقف جورج هناك ويداه مضمومتان خلف ظهره ويأخذ ينحني ويجرّ قدمه على الأرض للزبائن لدى دخولهم وخروجهم من الأبواب الدوّارة. وعندما جئتُ إلى دكان الخياطة للمرة الأولى ووقفتُ عند النافذة الأمامية كان جورج ساندسكي قد أمضى نحو اثني عشر عاماً يجرّ قَدَمه وينحني إلى الوراء وينحني ويعتل ويفتح الأبواب. كان رجلاً فاتناً ناعمَ الحديث ذا شعرٍ أبيض جميل، وقوياً كالثور. وقد جعل من وظيفة تقبيل المؤخرات فنّاً. وقد ذُهلتُ مرةً حين ارتقى المصعد وطلبَ أنْ نُخيط له بزّة. وفي أوقات راحته كان يُصبح الجنتلمن جورج ساندسكي. كان يتمتع بذوقٍ هادئ - دائماً يرتدي النسيج الصوفي الجيد الأزرق أو ينتعل حذاء الأوكسفورد الرمادي. وكان رجلاً يعرفُ كيف يُحسِن التصرُّف في المآتِم أو الأعراس.

بعد أنْ توطّدت معرفتنا ببعض حاول أنْ يُدخِلَ في خَلَدي أنه عثر على المسيح. وقد نجحَ بفضل طلاوة لسانه، وقوته العضليّة، ومساعدة يسوع الحيوية، في ادِّخار بعض المال ليردّ عنه عواتي الشيخوخة. كان الرجل الوحيد الذي قابلته في تلك الفترة ولم يُسجّل باسمه بوليصة تأمين على الحياة. كان مقتنعاً بأنَّ الله يتكفَّل بالمنبوذين كما تكفَّلَ به هو شخصياً، جورج سندسكي. لم يكن يخشى أنْ ينهار العالم إبّان وفاته. لقد اعتنى الله بكل إنسان وبكل شيء حتى الآن - ولا سبب يوجب افتراض أنه سوف يُهمل القيام بالعمل بعد موت جورج سندسكي.

وحين كان جورج سيتقاعد ذات يوم كان سيصعب العثور على مَنْ يحلّ محله. لم يكن هناك أحد متملّق أو مُداهن بقدرٍ كافٍ ليحل مكانه. لا أحد كان قادراً على مُجاراة جورج في جرّ قدمه وانحنائه. وكان العجوز دائماً يحتفظ بحبٍ عظيم لجورج. وكان يُحاول إقناعه بين حينٍ وآخر في تناول مشروب معه، لكنَّ جورج كان دائماً يرفض بما يتّصف به من تهذيب عنيد مألوف جعله عزيزاً على قلوب روّاد حانة أولكوت.

غالباً يكون العجوز في مزاج رائق حين يدعو أحدهم لمشاركته الشرب، حتى وإنْ كان مع جورج ساندسكي. وكان ذلك يحدث عادة في وقتٍ متأخِّر من بعد ظهر أحد الأيام حين تسوء الأمور، ولا يستلم المرء إلا الفواتير. أحياناً كان يمضي أسبوع لا يمر خلاله زبون واحد، فإذا مرَّ أحدهم فللشكوى فقط، أو ليطلب إجراء تعديل، أو ليُثير حفيظة الخيّاط، أو ليطلب تخفيضاً للسعر. كانت تلك الأشياء تُربِد وجه العجوز وكل ما كان يفعله هو أنْ يعتمر قبعته ويخرج ليشرب كأساً. وبدل أنْ يجتاز الشارع كما تعوَّدَ أنْ يفعل يتجوَّل قليلاً بعيداً عن القاعدة، ويغوص في برسلن في بروتزل. وأحياناً يحيد عن الطريق العامة حتى يصل إلى فندق أنسونيا وهناك يحتفظ معبوده، جوليان ليغري، بجناحٍ كامل.

كان جوليان، معبود فترة الصباح، لا يرتدي إلا البزّات الرمادية اللون، بكل تدرّجاته التي يمكن تخيّلها، المهم أنْ تكون رماديّة. كان يتمتَّع بالمزاج المرح بصورة تدعو إلى الانقباض الذي يتّصف به ممثل إنكليزي بدين الوجه يجلسُ بتكاسل هنا وهناك ويُقايض القصص مع بائعي الصوف المتجولين، وتجار الكحول وآخرين لا أهمية لهم. وكانت لكنته كافية لجعل الناس يتحلّقون حوله، وهي لكنة إنكليزية من النوع

الذي يُستخدَم في المسرح التقليدي، دافئة، متملّقة ودبقة تُضفي على الفكر مهما كان تافهاً أهمية. لم يكن جوليان يقول شيئاً يستحق التسجيل ولكنَّ صوته ذاك كان له فعل السحر في مُعجبيه. وبين الحين والآخر عندما يقوم هو والعجوز بجولاتهما يأخذان منبوذاً مثل كورس بيتون الذي يقطن في الجانب الآخر من النهر منذ مطلع هذا القرن. كان كورس بيتون في الفن يُعادلُ بات ماكارن في السياسة.

لطالما شكَّلَ ما كان يقوله العجوز خلال تلك المناقشات منبعاً للغموض بالنسبة إليّ. فالعجوز لم يقرأ كتاباً واحداً في حياته، ولا ارتاد مسرحاً قط منذ أنْ أفسح حي الباوري مكاناً لبرودواي. أكادُ أراه واقفاً هناك عند طاولة الغداء المجاني - فقد كان جوليان شديد الولَه بالكافيار وبسمك الحفش الذي كان يُقدَّم في حانة أولكوت - ويبتلعه ككلبٍ ظمآن. ويتناقش معبودي فترة الصباح حول شكسبير - وسواءً دار النقاش حول ***هاملت*** أو ***لير*** فهي أعظم مسرحية كُتِبَتْ على مدى الدهر. أو يتناقشان حول مواهب بوب إنغرسول.

في ذلك الوقت كان يقف خلف البار ثلاثة أيرلنديين شجعان، وثلاثة رعاع كأولئك كانوا كفيلين بتحويل حانات تلك الأيام إلى ما هي عليه من مراتع مُلائمة. كانت سمعتهم حسنة جداً، إلى درجة أنه كان من قبيل الامتياز أنْ يُناديك شخص مثل باتسي أودود بابن حرام مصّاص أير منحط ولعين ولم يكن لديه ما يكفي من الحسّ بحيث يُزرِّر فتحة بنطاله. وإذا ما سألته، من قبيل المجاملة، إنْ كان هو نفسه يريد أنْ يتناول شيئاً لأجابكَ باتسي أودود بردٍ بارد ساخر بأنه يُلائم شخصاً مثلك أنْ يصبّ غائطاً عفناً في جوفه، وبعد أنْ يقول هذا يرفع كأسك من عنقه

بازدراء ثم يمسح خشب الماهوغاني لأنَّ ذلك يشكِّلُ جزءاً من عمله ويتلقّى نقوداً على ذلك ويلعنكَ إذا ظننتَ أنَّ في استطاعتك إغواء شخص مثله لتُسمِّم أحشاءه بشيءٍ حقير كهذا. وكلما ازدادت رداءة إهاناته صار مُحترَماً. وخبراء المال الذين تعوَّدوا على مسح مؤخراتهم بمناديل حريرية سوف يتوجهون إلى البلدة فوراً، بعد أنْ يسكت التلغراف الكاتب[٢٦]، لكي يسمحوا لذلك الابن الحرام كريه الفم الأيرلندي أنْ يُطلِق عليهم اسم الملاعين السَفَلَة مصّاصي الأير أولاد العاهرات. ويكون ذلك خِتام يوم عارم بالنسبة إليهم.

كان رئيس مخزن السلع المتنوعة الأنيق رجلاً قزماً مهيباً ذا ساقين أرستقراطيتين ورأس أسد. دائماً يسيرُ يتقدَّمه كرشه، وكان دائماً يُخفي دِنّاً من الخمر تحت ردائه، وعادةً يومئ برأسه إيماءة متصلّبة متشامخة للسكارى الجالسين على البار، إلا إذا كانوا ضيوفاً على الفندق. ففي هذه الحالة سوف يتوقف لحظة، ويمدّ ثلاثة من أصابعه الصغيرة البدينة ذات العروق الزرقاء، ومن ثم، يبرم شاربه ويستدير بحَذَر مُصدِراً صريراً حول الكعب ويمضي في طريقه مُبتعداً. كان العدو الأوحد للعجوز. ببساطة لم يكن العجوز يتحمّله. كان يشعر بأنَّ توم موفات يرميه بنظرة ازدراء. وعندما يحين الوقت لطلب زوجٍ من الملابس الداخلية أو معطفاً بلا ذيل أو سترةً للعشاء، يندفعُ كقارب بأبّهته المعتادة، وبطنه البارز إلى الأمام، وشاربه المُشمَّع، وحذائه المُلمّع البرّاق الذي دائماً يُصدِرُ صريراً، وبمزاجه اللا مبالي الضجِر المُزدري والمتحفِّظ يُحيي العجوز كما يلي : "حسنٌ، ألم تُصلح هذا الخطأ بعد ؟ " فيثور غضبُ العجوز ويُخفي براحة

٢٦ – التلغراف الكاتب : يُستخدَم في سوق البورصة

يده قطعة قماش أميركي أو بقاياها عن عينيّ عدوّه توم موفات. ويلي ذلك محاورة طويلة حول " الخطأ الصغير " في كشوف حِساباتنا. ويخرج العجوز عن طوره. واستأجرَ مُحاسباً خبيراً لكي يُصنِّفَ له الحسابات على لائحة طولها ثلاثة أقدام - ولكن دون فائدة. وأخيراً تخطر فكرة على بال العجوز.

عند قُرابة منتصف ظهيرة أحد الأيام، بعد أنْ نال حصته المعتادة، وبعد أنْ استضافَ جميع بائعي الصوف المتجولين وبائعي المزركشات المجتمعين عند البار، شرعَ يلتقط أعقاب السجائر الموجودة على نضد البار وتناول قلم رصاص فضياً مُعلّقاً بسلسلة ساعته ووقَّعَ باسمه على الشيكات وأعطاها لأودود قائلاً : " قُلْ لموفات أنْ يُقيّدها على حِسابي " ومن ثم ابتعد بهدوء، واستضافَ عدداً من أصدقائه المختارين، واحتلَّ طاولةً في غرفة الطعام وطلب مدَّ وليمة. وعندما قدَّمَ له ادريان الضفدع فاتورة الحساب قال بهدوء " أعطني قلمَ رصاص. هاك... أصابعي ترتعش. قيّدها على حِسابي ". وبما أنه من الممتع أكثر تناول الطعام مع الآخرين كان دائماً يدعو أصدقاءه المُقرّبين لمشاركته طعام الغداء، قائلاً للجميع - "إذا امتنع ابن الحرام موفات عن دفع ثمن ملابسه فسنأكلها". وبعد هذا القول يلتهم فرخ حمام يقطر دسماً، أو سرطاناً بحرياً مُعدّاً على طريقة نيويرغ، ويُتبِعه بشرب موزيل أو أي من الخمور المُعتّقة التي يوصي بها أدريان.

المُثير للدهشة أنَّ موفات كان يتظاهر بأنه لا يولي ذلك انتباهاً، ويستمر في طلب حصته المعتادة من ملابس الشتاء، والربيع، والخريف، والصيف، ويستمر أيضاً في التشاجُر بشأن الفاتورة التي صارت سهلة

الإنجاز بعد أنْ اختلطَتْ مع شيكات الحانة والمكالمات الهاتفية، وأفراخ الحمام، وشمبانيا سرطان البحر، والتوت البري الطازج، والخمر البندكتيني، الخ الخ. والحقيقة هي أنّ العجوز كان يُسرِع في التهام هذه الفاتورة إلى درجة أنَّ موفات ذا الساقين الهزيلتين لم يستطع أنْ يرتدي ملابسه بسرعةٍ كافية. فعندما كان يأتي طالباً زوجاً من الملابس الداخلية يكون العجوز قد أكله في اليوم التالي.

أخيراً أبدى موفات رغبةً رصينة في تسديد الحساب بلا تردُّد. وانتهت المناقشة. في أحد الأيام ربَتَ على ظهري وأنا واقفٌ في الردهة واتّخذَ مظهراً ودوداً ودعاني إلى الطابق العلوي حيث مكتبه الخاص. قال إنه طالما اعتبرني شاباً عاقلاً وإنَّ في إمكاننا تسوية المسألة فيما بيننا دون إزعاج العجوز. واطّلعتُ على الحسابات فرأيتُ أنَّ العجوز قد أكلَ معظم الجانب المتميز بإشارة سالب منها. ولعلي أنا أيضاً استهلكتُ بضعاً من معاطف الرغلان وسترات الصيد. لم يكن أمامنا لكي نُحافظ على زبانة توم موفات المكروهة إلا أنْ نجد خطأً في الحساب. فتأبّطتُ حزمة من الفواتير ووعدتُ العجوز غريب الأطوار بأني سأمحِّص المسألة برمّتها.

ابتهجَ العجوز عندما رأى ما آلت إليه الأمور وبقينا ننظر في المسألة على مدى سنوات. وكلما جاء توم موفات ليطلب بزّة يُرحّب به العجوز مستبشراً ويقول " أما سوّيتَ أمر الخطأ الصغير بعد ؟ والآن، هاك قطعة باراثي رائعة حفظتها خصيصاً لك... ". أما موفات فيكفهرّ ويكشّر ويختال رائحاً غادياً كديكٍ رومي، منتصب العرف، وقدماه الهزيلتان مُزرقّتان من شدة الخبث. وبعد مرور نصف ساعة يكون العجوز

واقفاً عند البار يجرع الكؤوس، ويقول " بعْ موفات سترةً أخرى للمساء. بالمناسبة، يا جوليان، ماذا تريد أنْ تطلب على الغداء ؟ "

قلتُ إنَّ العجوز تعوَّدَ أنْ ينزل قرابة الظهيرة ليتمشّى، وكانت وجبة الغداء تتواصل وتستمر من أي وقت في الظهيرة وحتى الساعة الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر.. والصحبة التي كان العجوز يستمتع معها في تلك الأيام رائعة. وبعد انتهاء وجبة الغداء يخرج أفراد الجوقة من المصعد وهم يترنّحون، ويبصقون ويقهقهون، متوردو الوجنات، ويغوصون في مقاعد جلديّة كبيرة بجانب المِبصقة. كان هناك فيرد باتي الذي يبيع مفارش من الحرير، وأغراض صغيرة، مثل بكرات الخياطة، والأزرار، وحشّيات للصدر، وكنفا، الخ. كان رجلاً ضخم الجثة، كسفينة ضربها إعصار، ودائماً يتجوَّل وكأنه مًسرنم ؛ ومن شدة التعب بحيث يكاد لا يقوى على تحريك شفتيه، ومع ذلك كانت حركة الشفتين الخفيفة تلك تجعل كل مَنْ يحيط به ينفجر بالضحك. كان دائماً يتكلم مع نفسه - عن الجبن خاصة. كان كلِفاً بالجبن، خاصة بالشميركاز والليمرغر - وكلما كان الجبن عفناً كان أفضل. وبين أحاديث الجبن كان يحكي لنا حكايات عن هاينه وشوبرت، أو قد يطلب عود ثقاب حالما يرغب في أنْ يُطلِقُ ريحاً ويضغط نفسه على الكرسي حتى نستطيع أنْ نُخبره بلون اللهب. لم يقُلْ أبداً إلى اللقاء أو إلى الغد، بل كان يصل ما انقطع من حديث اليوم الفائت، وكأنما لم تقطعه فترةٌ من الزمن. وسواء أكانت الساعة التاسعة صباحاً أم السادسة مساءً كان يمشي المشية ذاتها الساخطة والبطيئة والمتثاقلة، ويغمغمُ بطريقته الساخرة وهو خافض الرأس، متأبطاً مزركشاته وبطاناته، نفسه فاسد، وأنفه قرمزي اللون شفّاني. كان يسير

مطأطأ الرأس في أكثف حركات المرور، حاملاً في أحد جيبيه جبن الشميركاز وفي الآخر اللمبرغر. وبعد خروجه من المصعد يقول بصوته المُرهَق الرتيب إنَّ لديه بطانات جديدة وإنَّ الجبن كان رائعاً في الليلة الفائتة وهل تفكِّر في إعادة الكتاب الذي استعرته منه ومن الأفضل أنْ تدفع حالاً إذا أردتَ مزيداً من البضاعة أو إذا أردتَ أن تشاهد صوراً بذيئة أرجوك حُكَّ لي ظهري هناك إلى الأعلى قليلاً نعم هكذا عن إذنك أنا ذاهب لأتبرَّز الآن هل لديك وقتٌ لا يمكنني أنْ أبدِّد اليوم هنا من الأفضل الطلب من العجوز أنْ يضع قبعته على رأسه حان وقت الذهاب لتناول مشروب. ويشغّل مواعينه الكبيرة ولا يزال يتمتم ويُدمدم هكذا ثم يضغط على زرّ المصعد بينما العجوز بقبعته المصنوعة من القش والمائلة إلى الخلف يتسلل إلى المنزل من خلف المخزن، ووجهه مُضاء حباً وعرفاناً ويقول : " حسن يا فرد، كيف حالك هذا الصباح ؟ يسعدني أنْ أراك " ويسترخي قناع وجهه الكبير الثقيل لحظة ليتحول إلى ابتسامة عريضة، تدوم لحظة واحدة فقط وبعدها يرفع صوته بأعلى ما تستطيع رئتاه قائلاً - حتى انَّ توم موفات الواقف على الطرف الآخر من الشارع يسمعه - "***يُستحسن أن تدفع حالاً لماذا أبيع هذه الأشياء في اعتقادك؟***"

وحالما يبدأ المصعد بالهبوط يأتي روبن الصغير من غرفة الإصلاح ويقول لي وفي عينيه نظرة وحشية : " أتريد أنْ أغنّي لك ؟ " وهو يعلم جيداً أني أريد ذلك. ويعود إلى المقعد، ويلتقط معطفه الذي يرتقه وينطلق مُرسلاً صيحةً قوقازية ضارية.

إذا تصادفَ ومررتَ به في الطريق، أقصد روبن الصغير، فستقول "إنه كعكة صغيرة قذرة" وربما كان حقاً كعكة صغيرة قذرة لكنّه يُحسِن الغناء وعندما تكونَ مُفلِساً يعرفُ كيف يمدّ يده إلى جيبه وعندما تكون

حزيناً يبقى هو أشدّ حزناً منك وإذا حاولتَ أنْ تطأه بقدمكَ يبصقُ على حذائك فإذا أعلنتَ توبتك يمسحه لك وينفض الغبار عنكَ ويُجعِّد لك بنطلونك بشكل لا يستطيعه حتى يسوع هـ. المسيح.

كانوا جميعاً أقزاماً تضمّهم غرفة الإصلاح - روبن وراب وتشيموفيتز. عند الظهيرة يُخرجون أرغفة كبيرة مستديرة من الخبز اليهودي دهنوها بزبد مُحلّى وبمادة مُسهّلة. وبينما العجوز يطلب أفراخ الحمام وخمر الراين يكون بنتشك المُفصِّل مع ثلاثة من مساعدي الخيّاط جالسين على مقعد كبير بين المكاوي الأوزيّة والأرجل والأكمام ويتحدثون برصانة ورزانة عن أشياء مثل الإيجار أو أنواع القرحة التي أُصيبَتْ بها السيدة تشيموفيتز في رحمها. كان بنتشك عضواً متحمساً في الحزب الصهيوني، ويعتقد أنَّ اليهود ينتظرهم مستقبل زاهر. ولكن على الرغم من كل شيء لم يكن يستطيع أنْ يلفظ كلمة مثل " يخرط " كما ينبغي، ويقول دائماً : " خلَطها ". ثم إلى جانب تحمّسه للحركة الصهيونية كان لبنتشك وَلَهٌ آخر هو أنْ يأتي يوم يرتدي فيه معطفاً يُحيطُ بالعنق. كان زبائنه كلهم تقريباً ذوي أكتاف مستديرة، ومنتفخي البطون، خاصةً العجائز أولاد الحرام الذين لم يكن لديهم ما يقوموا به طوال يومهم غير الركض من محل صانع القمصان إلى الخيّاط ومن الخيّاط إلى الجواهري ومن الجواهري إلى طبيب الأسنان ومن طبيب الأسنان إلى الصيدلي. كان يجب إجراء تغييرات عديدة حتى إذا جهزت الملابس للارتداء فات أوانها وصار لابد من وضعها جانباً حتى حلول العام القادم. فإذا حلَّ العام التالي يكون العجائز أولاد الحرام إما ربحوا عشرينَ جنيهاً أو خسروا عشرين جنيهاً وبوجود قليلٍ من السُكَّر في بولهم والماء في دمهم يصبح من المستحيل إرضاءهم حتى عندما تكون الملابس ملائمة.

وكان هناك أيضاً بول ديكستر صاحب دخل العشرة آلاف دولار سنوياً ولكنه دائماً دون عمل. وكاد يحصل مرةً على عمل لكنَّ الدخل كان تسعة آلاف دولار فقط ولم يسمح له كبرياؤه بقبوله. ولما كان من المهم أنْ يعتني بهندامه أثناء بحثه عن ذلك العمل الخرافي، شعر بول بأنَّه مُلزَم بمعاملة خيّاط جيد مثل العجوز بتنازل. وحالما يستقرّ في العمل كان كل شيء سيسير على أكمل وجه. ولم يكن في ذلك أي شك في ذهنه. لقد كان صادقاً بشكلٍ كُلّي. لكنه كان حالماً. جاء من إنديانا. لكنه ككل الحالمين القادمين من إنديانا كان صاحب مزاج مُحبَّب جداً، وأسلوب شديد الطلاوة، ولذيذ، ومُرطِّب، بحيث لو أنه ارتكب سِفاح القربى لسامحه العالم على ذلك. وعندما كان يضع ربطة العنق المناسبة، وينتقي العصا والقفاز الملائمَين، ويملأ بطنه بربع مكيال من شراب الجودار ولا يكون الطقس شديد الرطوبة أو موحشاً، حينئذٍ ينبضُ من شخصيته ذلك التيار الدافئ من الحب والتفاهم إلى درجة أنه حتى بائعي المزركشات المتجولين الذين اخشوشنوا ولم يعودوا يتأثرون بالكلام المعسول، يذوبون في أحذيتهم. كان في وسع بول، إذا كانت الظروف ملائمة، أنْ يتقدم من رجل، أي رجل على أرض الله الخضراء، ويجرّه من طيّة معطفه ويغرقه في الحب.لم أرَ في حياتي رجلاً يتحلّى مثله بقوة الإقناع، والمغناطيسية. وعندما يبدأ الفيض بالارتفاع فيه يُصبح لا يُقهر.

كان بول يقول " ابدأ بماركوس أورليوس[٢٧] أو أبيكتيتوس[٢٨] وسيتبع الآخرون ". لم يكن ينصح بتعلُّم اللغة الصينية أو البروفنسيّة : كان يبدأ

---

٢٧ - ماركوس أورليوس (١٦١ - ١٨٠) : إمبراطور روماني وفيلسوف رواقي . له "تأملات"

٢٨ - أبيكتيتوس (٥٥ ؟ - ١٢٠ ؟) : فيلسوف إغريقي

بسقوط الإمبراطورية الرومانية. في تلك الأيام كان طموحي الأكبر أنْ أحظى باستحسان بول، لكنَّ بول كان صعب الإرضاء. يعبسُ حين أريه كتاب " ***هكذا تكلَّمَ زرادشت*** "، ويعبس حين يراني جالساً مع أقراني أحاولُ شرح معنى ***النشوء الخلاّق***. وكان قبل أي شيء يكره اليهود. وعندما كان يظهر بنتشك مُفصِّل الملابس حاملاً قطعة من الطباشير وثمة شريط يتدلّى من عنقه، يصبح بول مُفرط التهذيب ومتواضعاً. كان يعلم أنَّ بنتشك يحتقره، ولكن بما أنَّ بنتشك كان يد العجوز اليمنى، راح يُغدق عليه بالكلام المعسول، والمديح. حتى إنَّ بنتشك نفسه أصبحَ مضطراً للاعتراف بأنَّ بول لديه شيء، علامة مميَّزة غريبة في شخصيته حبَّبته إلى قلوب الجميع على الرغم من نقائصه.

ظاهرياً كان بول مملوء بالمرح. لكنه في الأعماق كان كئيباً نكداً. وبين الحين والآخر كانت زوجته كورا تدخل مندفعةً بعينين مُخضّلتين بالدموع وتناشد العجوز كي يستخدم بول. كانا يجلسان عادةً حول طاولة بالقرب من النافذة ويتحدثان بصوتٍ منخفض. كانت زوجته امرأة جميلة، ممشوقة القامة كتمثال رائع لها صوت رنّان ينساب بلمسةِ ألم كلما أتت على ذِكر بول. كنتُ أرى العجوز يضعُ يده على كتفها، ويُهدِّئها. ولاشك في أنه كان يعِدها بأشياء كثيرة، وقد لاحظتُ أنَّ العجوز يُثير إعجابها. كانت تقفُ بالقرب منه وتنظر في عينيه بأسلوبٍ لا يُقاوَم. أحياناً كان العجوز يعتمر قبعته ويذهبان ويهبطان المصعد معاً، ذراعاً بذراع، كما لو أنهما ذاهبان في جنازة، ويبدآن بالبحث عن بول من جديد، فعندما تجتاحه حمّى الشرب لم يكن أحد يعلم أين هو. كان يختفي عن الأنظار على مدى أيام. وفي أحد الأيام يظهر مُسربلاً بالخجل، نادماً مُذلاً،

ويستجدي عفو الجميع. وفي الوقت نفسه يمدّ يده مُقدِّماً بذلته لكي تُنظَّف على الناشف، وتُزال عنها بُقع القيء، ويُجري لها إصلاحُ فنيّ عند الركبتين.

بعد ذلك بفترةٍ قصيرة أصبح بول يتكلّم بطلاقة متناهية. يجلس على إحدى أرائك الجلد العميقة، وقفّازه في يده، والعصا بين ساقيه ويطفق يتحدث عن ماركوس أورليوس، ويكون حديثه أفضل إذا كان عائداً من المستشفى، بعد معالجة من البواسير. وكانت جِلستهُ المنزلقة على الأريكة الجلد تجعلني أظن حينئذٍ أنَّ من الواضح أنه جاء إلى دكان الخياط لأنه المكان الوحيد الذي يجدُ فيه مجلساً مُريحاً. كان الجلوس أو الوقوف بالنسبة إليه عملية موجعة.ولكنه حالما يستقرّ يبدو عليه وكأنه في الجنة وتنهمر الكلمات من لسانه كمخملٍ سائل. وكان في إمكان العجوز أنْ يُصغي إليه طوال اليوم، وعادةً يقول إنَّ لديه موهبة الثرثرة، إلاّ أنَّ تلك كانت طريقته غير المُعلنة للقول إنَّ بول هو أحبّ المخلوقات على أرض الله وأنَّ في أحشائه ناراً. وحين كان يشعر بوخز ضمير شديد بحيث يطلب تفصيل ثوب جديد له يتملّقه العجوز بسبب ذلك قائلاً لبول طوال الوقت : " لا شيء يعزُّ عليك يا بول... لا شيء "

ولابد أنَّ بول أيضاً قد لاحظَ لطف العجوز الزائد. لم أرَ في حياتي شخصين على ذلك القدر من تبادُل الإعجاب الحميم المتوهِّج. كانا أحياناً يجلسان متقابلين ينظر أحدهما في عينيّ الآخر في تعبُّد حتى تنهمر الدموع من عيونهما. لم يكن أيٌ منهما في الحقيقة يشعر بالخجل في إظهار دموعه، وهذه سِمة لم تعُد موجودة في العالم الآن. لا أزال أذكُر وجه بول النَمِش القبيح وشفتيه المائلتين إلى الغِلظَة المفرطة ترتعش بعد

أنْ يكون العجوز قد أخبره للمرة الألف ما أعظمه من شاب. لم يتكلّم بول مرةً مع العجوز كلاماً لا يفهمه. أما ذخيرة الحنان لديه فكان يُسخّرها ليتحدَّث عن الأشياء البسيطة العادية وبجدّية كبيرة حتى أنَّ روح العجوز تبدو وكأنها تغادر جسده وعندما يُغادره بول يبدو كرجل مسلوب الإرادة. بعد ذلك يلجأ إلى زاويته الضيقة من المكتب ويجلس هناك بهدوء وحيداً يُحدِّقُ بنشوة إلى صف من خمٍمة[٢٩] الحمام المملوءة بالرسائل التي لم تُفتَح وفواتير غير مُسدَّدة. كنتُ أتسلّل بهدوء هابطاً الدَرَج وأتوجّه ماشياً إلى المنزل ماراً بالجادّة إلى الباوري ومن الباوري إلى جسر بروكلن، وأجتاز الجسر مروراً بالأسلاك الرخيصة التي تمتد من سيتي هول إلى فلتن فيري فإذا كان الوقت أمسية صيف، ازدحمت مداخل الطُرُق بالمتسكعين، وكنتُ أنقِّلُ ناظري بين تلك الأشكال العَبَثيّة باحثاً ومتسائلاً كَمْ من بول هناك بينهم، وعمّا في الحياة يجعل تلك المخلوقات الواضحة في فشلها مُحبَّبة إلى الناس. أما الآخرون، أقصد الناجحين، فقد رأيتهم مجرَّدين من ملابسهم الداخلية ؛ رأيتُ ظهورهم المنحنية، وعِظامهم الهشّة، وعروقهم المنتفخة، وأورامهم، وصدورهم الغائرة، وسِلالهم الكبيرة المُخصّصة للخبز والتي لم يعُد لها شكل بعد سنين من حشّوها بطعام الخنازير. نعم، عرفت جيداً كل الأشياء التافهة المزخرفة بالحرير - كان لدينا أفضل العائلات الأميركية على لائحتنا. وأي صديد وفحش كان ينبثق حين يفتحون محابسهم القذرة ! وكأنهم عندما كانوا يتعرّون أما خيّاطهم يشعرون باضطرارهم إلى إفراغ نفايتهم التي كدّسوها في بالوعات مُتخمة من أدمغتهم ؛ كل تلك الأمراض

٢٩ - خِممة : جمع خُم : قفص الدجاج والحمام

الجميلة التي تنتج عن الملل والثراء. يتحدثون عن أنفسهم حتى إثارة الغثيان ad nauseam. دائماً " أنا "، " أنا "، أنا وكليتيَّ ؛ أنا وداء النقرس ؛ أنا وحشائش الكبد. حين أفكِّر في بواسير بول المريعة، بواسيره التي استأصلوها، وفي كل الحب والعِلم اللذين انبثقا من جِراحه المُثخنة، حينئذٍ أرى أنَّ بول لم يكن ينتمي إلى هذا العصر أبداً، وإنما هو الأخ الأقرب إلى موسى المعمودي Moses Maimomides، الذي أعطانا في ظل حُكم المسلمين تلك الدراسات المُذهلة في " البواسير " والثآليل، والدمل الخ.

وفي حالة كل أولئك الرجال الذين أحاطهم العجوز بإعجابه كان الموت يأتي بغتة وبسرعة. وفي حالة بول وقع الموت بينما كان على الشاطئ. غرق في شبر من الماء. قالوا إنه هبوط في القلب. وهكذا، في يوم جميل رائع ارتقت كورا المصعد، وهي بثوب الحِداد الجميل، وطَفَقَتْ تبكي في كل موقع من المكان. لم تكن في حياتها أجمل منها عندئذٍ، أكثر عذوبة، أكثر مثالية من جمالها. خاصة مؤخرتها - أذكر كيف تعلَّقَ المخمل مُعانقاً جسمها. ومن جديد وقفا بالقرب من الطاولة المستديرة عند النافذة الأمامية، وهذه المرة بكت بحُرقة. ومن جديد اعتمرَ العجوز قبعته وهبطا المصعد ذراعا بذراع.

بعد ذلك بوقتٍ قصير حثّني العجوز، بدافع نزوة غريبة، على تقديم التعازي لزوجة بول. وحين كنتُ أقرع جرس شقّتها رحتُ أرتجف. توقعتُ منها تقريباً أنْ تخرج إليّ وهي عارية تماماً. وربما وضعت عُصابة الحِداد حول ثدييها. لقد فُتِنتُ بحُسنها، بسنوات عمرها، بطبيعتها الناعسة التي تشبه النباتات التي ورثتها عن إنديانا والعِطر الذي تضمَّخت به. رحَّبَتْ بي وهي بثوب الحِداد المنزلي القصير ؛ ثوب جميل ضيّق من

المخمل الأسود. كانت تلك هي المرة الأولى التي أنفرد فيها بامرأة محرومة؛ امرأة بثديين ينتفضان صارخين. لم أدرِ ماذا أقول لها، خاصة عن بول. تلعثمتُ وتضرّجتُ وعندما طَلَبَتْ مني أنْ أجلس إلى جوارها على الأريكة كدتُ أقعُ فوقها من شدة الاضطراب.

جلسنا هناك على الصوفا المنخفضة، تَغمرُ المكان أضواء خافتة، وردفاها الضخمان يحتكّان بي، والمولاغا Molaga تضرب على صدغي وذلك الحديث الجنوني عن بول ومزاياه، وأخيراً انحنيتُ إلى الأمام ودون أنْ أتفوَّه بكلمة رفعتُ ثوبها وزلقتُهُ فيها. وبينما أنا أفعل ذلك وبدأتُ أديره فيها أخذت تئنُّ بما يشبه الشعور الهذياني بالحزن تقطعه شهقات وصرخات الاستمتاع والأسى، وهي تقول وتكرر مراراً - " لم يخطر في بالي أبداً أنك ستفعل هذا... لم يخطر في بالي أنكَ ستفعل هذا! " وبعد أنْ انتهيتُ نزعت عنها ثوب المخمل، ثوب الحِداد الصباحي الجميل والقصير، وأنزلَتْ رأسي إليها وطلبت مني أنْ أقبّلَها وشدَّتني بذراعيها القويين حتى كادت تقطعني إلى نصفين وهي تئن وتجهش. ثم نهضت وأخذت تمشي في أرجاء الغرفة عارية بعض الوقت. وأخيراً ركعت على ركبتيها بجوار الصوفا حيث كنتُ أتمدَّد وقالتْ بصوتٍ منخفض بُكائي - " عِدني بأنكَ ستحبني دائماً، هل تفعل؟ ألا تعدَني؟ " فقلتُ نعم وإحدى يديّ تعبث في ملتقى ساقيها. قلتُ نعم وأنا أقول لنفسي ما أحمقكَ إذ انتظرتَ كل تلك المدة الطويلة. كانت رطبة جداً وغزيرة السائل هناك، وساذجة جداً، وسريعة التصديق، وأي رجل كان يمكن أنْ يأتيها وينال وَطَره منها. كانت سهلة جداً.

*

دائماً مرحون ومستبشرون ! في كل فصل، وبانتظام، كانت تقع بضع وفيات. أحياناً تكون ميتة جيدة كما في حالة بول، أو جوليان ليغري، وأحياناً أخرى صاحب حانة لكزَ أنفه بظِفرٍ صدِئ - في يومٍ يكون ودوداً بشوشاً، وفي اليوم التالي يموت - ولكن بانتظام، وكحركة الفصول نفسها، يتساقط العجائز، واحداً إثر آخر. Alors، لا يبقى غير رسم خطٍ أحمر بشكل مائل على الجانب الأيمن من دفتر السجلات ووضع علامة " ميت ". وكانت كل ميتة تزيد من وتيرة العمل قليلاً - بزّة سوداء جديدة أو عُصابات للحِداد توضع على الكُمّ الأيسر على كل معطف. وأولئك الذين يطلبون عُصابات الحِداد كانوا من البخلاء، حسب قول العجوز. وهكذا كانوا فعلاً.

حين يموت العجائز كانوا يُستَبدَلون بالدم الشاب. ***الدم الشاب*** ! صرخة الحرب هذه كانت تُسمَع على طول الشارع وحيث وُجِدَ دكان لبيع بزّات مُزركشة بالحرير. كانوا مجموعة رائعة، أقصد ذوي الدم الشاب. مقامرون. مُراهنون في حلبة سباق الخيل، سماسرة بورصة، ممثلون فاشلون، ملاكمون مُحترفون الخ... في يوم يُصبحون أغنياء وفي التالي يعودون فقراء. ليس لديهم شعور بالشرف أو بالولاء أو حتى شعور بالمسؤولية. كانوا مجموعة مُصابة بغرغرينا السفلس، أو غالبيتهم. يعودون من باريس إلى مونت كارلو حاملين بطاقات بريدية تحمل صوراً قذرة وخيطاً يتدلى منه حجران كبيران في عورتهم، وبعضهم مع خصية كبيرة بحجم قطعة من لحم الحَمَل المقلي.

أحدهم كان بارون كارولا فون إشنباخ. وكان قد ربح مبلغاً صغيراً من المال في هوليوود بقيامه بدور أمير متوَّج. حدث ذلك في فترة كانت

تُعتَبَر خلالها مشاهدة أمير متوَّج مُلوَّث بالبيض الفاسد شيئاً يُثير ضحكاً صاخباً. ويجب القول لصالح البارون إنه كان بديلاً جيداً للأمير المتوَّج. برأسٍ يُشبه رأس الموت وأنفٍ متكبِّر، ومشية كمشية الزنبور، وخصر مشدود، ونحيل ومفتون كمارتن لوثر، عنيد، كئيب، متعصِّب، يحمل تلك النظرة المُحدِّقة الحمقاء، الوقحة، التي تتصف بها الطبقة الأرستقراطية. وقبل ذهابه إلى هوليوود كان مجرد نكرة، ابن مُخمِّر للبيرة ألماني يعمل في فرانكفورت. بل لم يكن حتى باروناً. ولكن بعد ذلك، حين أصبح يتلقّى الضربات ككرة التريُّض[30]، وسقطت أسنانه الأمامية في بلعومه وترك عنق زجاجة مكسور ندبة عميقة على خدّه الأيسر، وبعد ذلك عندما تعلَّمَ كيف يتباهى بربطة عنقه، ويتلاعب بالعصا، ويقصّر شاربه، مثل تشارلي تشابلن، عندئذٍ أصبحَ شخصاً مُعتَبَراً ؛ أصبح يضع نظارة مونوكل على عينيه ويُطلِق على نفسه لقب بارون فون إيشنباخ. وكان من الممكن أنْ يسير كل شيء على أحسن ما يرام لو لم يقع في حبائل إحدى المتسكّعات حمراوات الشعر اللواتي يُعشِّش فيهنّ السفلس. وهذا قضى عليه.

وذات يوم ارتقى المصعد مُرتدياً بزّةً رسمية وحذاءً ذا رقبة ووضعَ وردةً حمراء نضرة في عروة السترة ونظارةً أنفيّة على عينه. بدا مرحاً ورشيقاً، والبطاقة التي أخرجها من محفظة نقوده كانت منقوشة بأناقة، وتحملُ شعار النبالة الذي تتميَّز به العائلة، كما قال، منذ تسعمائة عام خلت، ويمثِّل " هيكل العائلة ". وقد فرح العجوز كثيراً لأنَّ بين زبائنه باروناً، خاصةً وأنه سيدفع مقدَّماً، كما وعدَ هذا الأخير. وكان من المثير

٣٠ – كرة التريُّض : كرة كبيرة صلبة مكسوّة بالجلد يقذفها شخص إلى آخر على سبيل الرياضة .

أيضاً مشاهدة بارون يدخلُ مُبتهجاً وقد تعلّقت بذراعه فتاتان مغناجتان – وفي كل مرة كانتا مُختلفتين. ويبدو أكثر مرحاً وابتهاجاً عندما يدعوهما إلى غرفة تغيير الملابس لتُساعداه في خلع سرواله. ويقول مُعلّقاً على ذلك بأنها عادة أوروبية.

وشيئاً فشيئاً تعرَّفَ إلى جميع العجائز المتسكعين حول الدكان. كان يعرض عليهم طريقة المشي عند وليّ العهد، وكيف يجلس، ويبتسم. وفي أحد الأيام أحضرَ معه ناياً وأخذ يعزف عليه لحن لوريلاي. وفي يوم آخر جاء وقد برز إصبع قفازه المصنوع من جلد الخنزير من فتحة بنطلونه. كان في كل يوم يبتكر خدعة جديدة. كان مرحاً، ذكياً ومُسلياً ؛ ويعرف مئات النكات، بعضها جديد تماماً. كان مُشاغباً.

وذات يوم تنحّى بي جانباً وسألني إنْ كان في استطاعتي أنْ أُقرِضه ثمن أجرة المواصلات. قال إنه ليس في إمكانه أنْ يُسدِّد ثمن الملابس التي طلبها، لكنه يتوقَّع أنْ يحصل على عملٍ قريباً في إحدى دور السينما الصغيرة في الجادة التاسعة، كعازف على البيانو. وبعد ذلك، ودون مقدّمات، بدأ يبكي. كنا واقفين في غرفة الملابس، ولحُسن الحظ كانت الستائر مُسدلَة. واضطررتُ إلى إعارته منديلي ليمسح به عينيه. قال إنه ملَّ تمثيل دور المهرِّج، وإنه إنما يأتي إلينا في كل يوم لأنه مكان دافئ ومقاعدنا مُريحة. وسألني إنْ كان في استطاعتي أنْ أدعوه إلى الغداء – فلم يكن قد تناول في الأيام الثلاثة الأخيرة غير القهوة والكعك المُحلّى.

صحبته إلى مطعم ألماني صغير في الجادة الثالثة. كان مطعماً وفُرناً في وقتٍ واحد. وقد جعلَه جو المكان ينهارُ تماماً. لم يكن يستطيع

الكلام إلا عن الأيام الخوالي، أيام ما قبل الحرب. كان ينوي أنْ يصيرَ رساماً. وبعد ذلك نشبَتْ الحرب. رحتُ أصغي إليه بانتباه وعندما انتهى عرضتُ عليه أنْ يأتي معي إلى البيت لتناول العشاء - فربما استطعتُ أنْ أقْبَله عندنا مُقيماً. وبدا أنَّ الشعور بالعرفان يغمره. سوف يأتي، حتماً - في الساعة السابعة punkt (بالضبط) - عظيم!

استمتعت زوجتي بحكاياته ونحن على مائدة العشاء. لم أذكُر أي كلمة عن إفلاسه. قلتُ فقط إنه بارون - البارون فون إشنباخ، صديق تشارلي تشابلن. شعرت زوجتي - وكانت إحدى أوائل زوجاتي - بالإطراء لجلوسها على مائدة واحدة مع بارون. وعلى الرغم من أنها كانت بنت حرام تعتنق مذهباً تطهّرياً، إلاّ أنَّ وجهها لم يحمرّ مرةً واحدة أثناء إلقائه نكاته المكشوفة؛ بل إنها رأت أنها مسلّية - ***أوروبيّة جداً***.

وأخيراً كان لابد أنْ يأتي وقت الحقيقة. حاولتُ أنْ ألقي الخبر بلطف، وكيف يمكن للمرء أنْ يتحدَّث عن موضوع كالسفلس بلطف؟ وأنا لم أذكُر اسم السفلس في أول الأمر - بل قلت " مرض تناسلي " Maladie Intime, quoi! (وهو مرض مألوف). ولكن حتى كلمة " تناسلي " جعلَتْ الرعشة تسري في جسم زوجتي. ونظرتْ إلى الكأس الذي كان يُقرِّبه من شفتيه ونقَّلَتْ نظرها إليّ بتوسُّل وكأنها تقول لي - " كيف تجرؤ على أنْ تطلب من رجلٍ كهذا أنْ يجلس على طاولة واحدة معنا ؟ " ورأيتُ من الضروري أنْ أصل بالمسألة إلى أوجها وعلى الفور، فقلتُ بهدوء " إنَّ صاحبنا البارون سيمكث معنا فترةً قصيرة؛ إنه مفلس ويحتاج إلى مكانٍ يأوي إليه "، ويا إلهي، لم أرَ في حياتي تعبيراً على وجه امرأة يتبدَّل بتلك السرعة. قالت " أنت! أنت تطلبُ مني أنْ أفعلَ ذلك؟

وماذا عن الطفلة ؟ أنت تريدنا أنْ نمرض جميعاً بالسفلس، أليس كذلك؟ ألا يكفيكَ أنْ يكون وحده المُصاب به - وتريد أنْ تُصاب به طفلتك أيضاً ! "

وطبعاً اضطرب البارون اضطراباً فظيعاً بسبب ذلك الانفجار. وأراد أنْ يُغادرنا في الحال. ولكنني طلبتُ منه أنْ يحتفظ بقميصه. فقد كنتُ قد تعوَّدتُ على مثل تلك المشاهد. على أي حال، بدا من شدة التوتُّر إلى درجة أنه أخذ يغصُّ بقهوته. فربتُّ على ظهره حتى احتقنَ وجهه، وسقطت الوردة من العروة إلى الطبق، وبدا مظهرها غريباً وهي هناك، وكأنه لَفَظَها تواً من دمه. جعلني ذلك أشعر بالخزي حتى العظم من زوجتي وكان في وسعي أنْ أشنقها في التو واللحظة. وصحبته إلى الحمّام وكان في أثناء ذلك لا يزال يغصُّ ويبقبق. وطلبتُ منه أنْ يغسل وجهه بالماء البارد. لَحقَتْ بنا زوجتي وراحت تراقبه بصمت قاتل وهو يغتسل. وبعد أنْ جفَّفَ وجهه اختَطَفَتْ المنشفة من يديه وفتحت النافذة على مصراعيها، ورمتها بعيداً. جعلني ذلك أستشيطُ غضباً وأمرتُها أنْ تخرج من الحمّام على الفور مُذكِّراً إياها أنَّ تلزم حدودها. لكنَّ البارون وقف حائلاً بيننا وهتفَ لزوجتي متوسلاً " سترين يا سيدتي الطيبة، وأنتَ يا هنري، لن أدعكما تقلقان بشأن أي شيء. سوف أُحضِر حُقني ومراهمي وسأحفظها في حقيبة صغيرة - هناك، تحت المغسلة. يجب ألا تطردانني. ليس لديّ مكان آخر ألجأ إليه. إنني إنسان يائس. أنا وحيد في هذا العالم. لقد كنتما طيّبَين معي من قبل - لماذا أصبحتما قاسيين الآن؟ أهي غلطتي أني مُصاب بالسفلس ؟ أي شخص يمكن أنْ يُصاب به؛ إنه شيء إنساني. سوف أدفع الأتعاب آلاف الأضعاف. سوف أفعلْ

كل ما تريدان ؛ سوف أرتِّب الأسرّة، وأغسل الأطباق... سوف أطهو لكما... "واستمرَّ على هذا المنوال دون أنْ يتوقَّف ليلتقط أنفاسه مخافة أنْ ترفض. وبعد أنْ أنهى وعوده، بعد أنْ التمسَ الغفران منها مئات المرات، بعد أنَّ خرَّ على ركبتيه وحاول أنْ يُقبِّل يديها أبعدَتهما عنه وبسرعة جلس على مقعد المرحاض ببزّته الرسمية وغطاء كاحليه، وبدأ يجهش ويجهش كالطفل. بدتْ غرفة الحمّام الصقيلة والبيضاء، والمُعقَّمة، مُروّعة، وبدا الضوء المتناثر كأنما ألف مرآة قد تهشّمت تحت عدسة مُكبّرة، وفاقمَ الوضع انهيار البارون، وبزّته الرسمية وغِطاء كاحليه، وعموده الفقري المملوء بالزئبق، ونشيجه الخارج منه كنفخات قصيرة من قطار يلجُ نفقاً. ولم أدرِ ماذا أفعل. إنَّ مشهد رجل جالس على كرسي مرحاض يجهشُ بالبكاء - شيء لا أقوى على تحمّله. بعد ذلك تعوَّدتُ على الأمر ؛ بتُّ مُتحجِّر القلب. والآن أشعر بشكلٍ مؤكّد بأنه لو لم يكن الأمر يتعلّق بالـ ٢٥٠ مريض الذين كان مُلزماً بزيارتهم مرتين في اليوم في المستشفى في ليون رابليه لَما كان مرِحاً بشكل صارخ. أنا واثق من ذلك.

مهما يكن، بالنسبة إلى موضوع النشيج... بعد ذلك بقليل، حين كان طفل آخر في طريقه ولا سبيل إلى التخلُّص منه، على الرغم من أنَّ الأمل كان موجوداً، كنتُ لا أزال آمل في حدوث شيء، ربما معجزة، وكان بطنها منتفخاً كالبطيخة الناضجة، عند حوالي الشهر السادس أو السابع، وكما قلت، كانت متعوِّدة على الاستسلام لنوبات الكآبة، وبينما هي مُستلقية على السرير والبطيخة تُحدِّق إلى عينيها تبدأ بنوبة من النشيج لتحطِّمَ قلبك. أحياناً أكون عندئذٍ في الغرفة الخارجية،

مُتمدِّداً على الأريكة، أحملُ بين يديّ كتاباً ضخماً سميكاً، وتجعلني نوبات النشيج هذه أفكِّر في البارون كارولا فون إشنباخ، وواقي كاحله الرمادي وبذلته الذيلية الرسمية بطيّة صدرتها المُزركشة والورود الحمراء الكبيرة مُثبَّتة في عروته. كان نشيجها بالنسبة إليّ كالموسيقى ؛ وتُرسله استدراراً للعطف، ولم يكن في البيت كله قطرة عطف واحدة. كان مظهرها مُثيراً للشفقة، وكلما زادت الهستيريا زدتُ صَمماً. كأنني أصغي إلى هدير أمواج الشاطئ المتكسرة وطشيشها على طول الشاطئ في ليلة صيفية : يصبح في إمكان أزيز بعوضة أنْ يمحو هدير المحيط. على أي حال، وبعد أنْ أهلكَتْ نفسها حتى الانهيار، ولم يعد في وسع الجيران تحمُّل الضجيج أكثر من ذلك، فيدقّون على الباب، وتزحف أمها العجوز خارجة من غرفة النوم تتوسّل إليّ والدموع تملأ عينيها كي أدخل وأهدِّئ من روعها قليلاً. فأقول " أوه، دعيها وشأنها، سوف تتغلّب على هذا كله ". وعلى الأثر، تكفُّ الزوجة قليلاً عن النشيج وتقفز خارجة من السرير، هائجة، وقد أعماها الحنق، وانسدلَ شعرها وتشعَّثَ، وتورَّمَتْ عيناها وزاغتا، وتبقى تفوِّق وتنشج وتأخذ تضربني بكلتي قبضتيها، وتضربني إلى أنْ أُصاب بهستريا من الضحك. وعندما تراني أهتزُّ وأميل إلى الأمام والخلف كالمجنون، وينال ذراعاها التعب وتلتهب قبضتاها، وتستسلم كمومس سكرى. " شيطان ! ملعون ! " - وبعد ذلك تنسلُّ مُبتعدة ككلبٍ قلِق. ومن ثم، وبعد أنْ أُهدِّئ من روعها قليلاً ، وعندما أُدرِك أنها بحاجة حقيقية إلى كلمة رقيقة أو اثنتين، أطرحها على السرير ثانية وأنيكها جيداً. لعنني الله إنْ لم تكن أفضل امرأة يمكن تصورها بعد مشاهد الألم والأسى تلك ! لم أسمع في حياتي امرأة

تئن وتهذر مثلها. كانت تقول " *افعل بي أي شيء* ! افعل ما تشاء ! " كان في وسعي أنْ أجعلها تقف على رأسها وأنفخُ فيه، وكان في استطاعتي أنْ أخرقها من الخلف، وأنْ أجرّها وأمرّ من أمام منزل القس، كما يقولون، أو أي شيء لعين - لقد كانت ببساطة تهذي من فرط الاستمتاع. كانت تعاني من Uterine hysteria (هستريا الرحم) ! وكما كان الأستاذ الطيب يقول فليأخذني الله إنْ كنتُ أكذب في كلمة واحدة مما أقول.

(الله، المذكور أعلاه، وكما عرَّفه القديس أوغسطين، هو كما يلي : هو كونٌ لا محدود، مركزه كل مكان ومُحيطه اللا مكان)

مهما يكن، *مرحون ومُستبشرون دائماً* ! إذا كان الوقت قبل الحرب ومقياس الحرارة هبط إلى الصِفر أو إلى ما دون الصِفر، إذا تصادفَ أنْ كان عيد الشُكر، أو عيد رأس السنة الجديدة أو عيد ميلاد أحدهم، أو مجرَّد أي عُذرٍ قديم لالتئام الشمل، للانضمام إلى المُسُوخ الأخرى الذين شكّلوا شجرة العائلة الحيّة. ولطالما أذهلني مدى مرح أفراد عائلتنا على الرغم من النوائب التي كانت دائماً تُهددهم. مرحون رغم كل شيء. كان هناك السرطان، وداء الاستسقاء، وتليُّف الكبد، والجنون، والسرقة، وإدمان الكذب، واللواط، وسِفاح القُربى، والشلل، والديدان الشريطية، وعمليات الإجهاض، والتوائم الثلاثة، والبلهاء، والسكارى، والمتبطلون، والمتعصبون، والبحارة، والخيّاطون، وصانعو الساعات، والحمى القرمزية، والسعال الشهّاق، والتهاب السحايا، وجريان الأذن، وتشنّج الأطراف، والمتأتئون، والسجناء المزمنون، والحالمون، وقاصّو الحكايات، والسُقاة -

وأخيراً كان هناك العم جورج والعمة مليا، والمشرحات، ومستشفى المجانين. كانوا مجموعة مرحة والمائدة عامرة بما لذَّ وطاب - مع الملفوف الأحمر والسبانخ الخضراء، ولحم الخنزير المشوي، والديك الرومي، والكرنب المُخمَّر، مع الكارتوفل-كلوس وصلصة مرق اللحم الأسود والحامض، مع الفجل والكرفس، والإوز المحشو، والبقول والجزر، والقرنبيط الأبيض الجميل، والتفاح المطبوخ وتين سميرنا، والموز الكبير الحجم كالهراوة الجلدية وكعكة القرفة والستروسل كوشن، والكعكة المغطّاة بالشوكولاتة والمحشوة بالبندق، بكل أنواع البندق، والجوز والجوز الأرمد، واللوز، وجوز البقان، والجوز القاري، والبيرة المُعتّقة وبيرة الزجاجات، والنبيذ الأبيض والأحمر، والشمبانيا، والكومل، والخمر المالقي، والخمر البرتغالي، والخمر الهولندي، والجبن الحارّ، وجبن المخزن البريء، والجبن الهولندي المُسطَّح، وجبن اللمبرغر والشميركاس، والخمور المنزلية، وخمر الخمان، وعصير التفاح، القاسي والحلو، وكعكة الأرز بنشاء التابيوكا، والجوز المُحمَّص، وبرتقال اليوسفي، والزيتون، والمُخلل، والكافيار الأحمر والأسود، والسمك المُدخَّن، وكعكة الميرنغ مع الليمون، وأصابع الست، وأصابع الشوكولاتة، وحلوى المعكرونة وفطائر الكريما المنتفخة، والسيجار الأسود وسيجار الستوغي الطويل والرفيع، وعلامة ثو ديرهام ومدفع لونغ توم وغلايين مرشوم وغلايين من خشب الذرة وخلاّيات أسنان تسبِّب لك خرّاجاً لَثَويّاً في اليوم التالي، ومناديل بطول ياردة مدروزٌ على زاويتها الأحرف الأولى من اسمك، ونار الفحم المتأججة. والنوافذ تُرسِلُ البخار، كل شيء في العالم جاثم أمام عينيك ما عدا إناء غسل الأنامل.

إنه طقس درجة الصفر وجورج المجنون، ذو الذراع التي قطعها له حصان، ويرتدي مُخلّفات الموتى ؛ طقس درجة الصفر والعمة مليا تبحث عن العصافير التي تركتها قبعتها. صفر، صفر، وزوارق القَطر تشخر هناك في الميناء، وقطع الجليد الطافية تتهادى صاعدةً هابطة وخيوط رفيعة من الدخان تتعالى بشكلٍ لولبيّ من مُقدَّم المركب إلى مؤخره. والريح تهبط هابّةً بسرعة سبعين ميلٍ في الساعة، وأطنان من ندف الثلج مُقطَّعة إلى قِطعٍ صغيرة، كل واحدة منها تحملُ خِنجراً والدلالات الجليدية المُعلّقة كفتّاحات الزجاجات خارج النوافذ، والريح تزأر، وزجاج النوافذ يُقعقع، والعم هنري ينشد " المجد للخامس الألماني!" بردائه الكهنوتي المفكوك وأحزمته المحلولة وعروقه المنتفخة البارزة عند صِدغيه. ***المجد للخامس الألماني*** !

في العلّية مُدَّت طاولة متصدّعة، وفي الأسفل كان الإسطبل الدافئ، والأحصنة تصهلُ في مرابطها، تصهل وتمضغ وتنبش الأرض بحوافرها وتضربها بقوة، ويفوحُ عَبَق السماد وبول الأحصنة، ورائحة التبن والشوفان، والملاءات المتبخِّرة والمضغ الجاف، ورائحة الشعير الذي طالتْ رطوبته والخشب العتيق، وطقم الفرس الجلدي، ولِحاء الدبِاغة تحومُ رائحته القوية وتعلقُ كالبخور فوق رؤوسنا.

الإسطبل واقفٌ على الأحصنة والأحصنة تقفُ على البول الدافئ وبين الحين والآخر تصبح مرحةً وتُحرِّك أذيالها برشاقة وتتبرَّز وتصهل. المدفأة تتوهَّج كالياقوت، والجو مزرقّ من الدخان، الزجاجات موضوعة تحت الطاولة، وعلى الخزانة، وفي المغسلة. ويحاولُ جورج المجنون أنْ يحكّ عنقه بكُمٍ فارغ، ويعبث ند مارتيني، العديم النفع، بالحاكي، وزوجته

كاري تعبُّ المشروب بوعاء من القصدير. الأولاد في الطابق السفلي في الإسطبل يلعبون لعبة الإصبع القذر في الظلام. وفي الشارع، حيث تبدأ منطقة الأكواخ، يصنع الأولاد بركة للانزلاق عليها. اللون الأزرق والبرد والدخان والثلج يعمُّ كل شيء. تانت مليا جالسة في الركن تُسبِّح بمسبحة. والعم نِد يُصلِح طقم الفرس. والجدود الثلاثة مع اثنين من جدود الجدود مجتمعون حول المدفأة يتحدثون عن الحرب الفرنسية-البروسية. وجورج المجنون يلعق الثفل. والنسوة يتجمهرنَ وألسنتهن تتكتك بصوتٍ منخفض. الأشياء تُكملُ بعضها كأحجية الصور المقطوعة - وجوه، أصوات، تلميحات، أَجساد. كلُّ يدورُ في فَلَكه. الحاكي يعزف من جديد، والأصوات تزدادُ عُلواً وحِدَّة. وفجأةً يسكت الحاكي. ما كان ينبغي أنْ أكون هناك عندما أفشوا الأمر، لكنني كنت موجوداً وسمعته. سمعت ماغي الضخمة، التي تدير صالوناً في فلشنغ، هذه الماغي ضاجعت أخاها اللَّزَم ولهذا أصبح جورج مجنوناً. وضاجعت الجميع - ما عدا زوجها. وبعد ذلك سمعتُ أنها كانت تضرب جورج بحزامٍ جلدي، وكانت تضربه حتى يخرج الزَبَد من فمه، وهو ما أصابه بنوبات الجنون. أما مِلْ الجالسة في الركن فلها حكاية مختلفة. فهي غريبة الأطوار منذ طفولتها. وكذا كانت الأم، للسبب نفسه. من المؤسف أنَّ بول قد مات. بول كان زوج مِلْ. نعم، كان يمكن أنْ تسير الأمور على أحسن ما يُرام لو لم تظهر تلك المرأة من هامبورغ وتُدمِّر بول. فماذا كان يمكن لِملْ أنْ تفعل لامرأة ذكية كتلك - لمومس داهية ! كان يجب القيام بشيء من أجل مِلْ. أصبح من الخطر بقاءها بينهم. وكانوا قبل وقت قريب قد فاجؤوها جالسة على المدفأة. ولحسن الحظ كانت النار خامدة. ولكن ماذا لو خطر

في بالها أنْ تضرم النار في المنزل - بينما الجميع نيام ؟ من المؤسف أنها لم يعُد في استطاعتها أنْ تحتفظ بأي وظيفة. آخر مكان وجدوه لأجلها كان وظيفة مُريحة، يا لها من امرأة لطيفة. كانت مِلْ قد بدأتْ تميل إلى الكسل. كانت حياتها رخيّة مع بول.

كان الجو صحواً ومصقعاً عندما خطونا إلى الخارج. النجوم جليّة برّاقة والثلج الأبيض الناصع، الثلج المجروف، العباءة البيضاء التي تغطي الأرض الآثمة القذرة، يستقر على الدرابزينات ودَرَجات السلالم وطنف النوافذ والشعريات. وكان الهواء نقياً ومُصقعاً، صافياً، كتيار عميق من النشادر، وبشرة الجسم صقيلة كملمس الشاموا. ونجوم زرقاء، أكوام وأكوام منها، تندفع مع الأبقار الوحشية. ما أجمله من ليلٍ عميق، يلفّه الصمت، وكأنَّ تحت الثلج هناك قلوب من ذهب ؛ كأنَّ هذا الدم الألماني الأزرق يفرُّ هارباً في المجرور ليُغلق أفواه الأطفال الجائعين، ليغسل آثار الجريمة وقُبح العالم. ليل عميق والنهر مختنق بالثلج، والنجوم ترقص، تدور، تدوِّم كالذُرى. كانت عائلتنا كلها تشقُ طريقها في الشارع الخرِب. تسير على القشرة الأرضية البيضاء، النقية، تاركةً آثار مسارها، آثار خطواتها. العائلة الألمانية العريقة تجرف الثلج بشجرة عيد الميلاد. العائلة كلها موجودة هناك، الأعمام، وأبناء الأعمام، والأخوة، والأخوات، والآباء، والأجداد. العائلة كلها تشعر بالدفء والنشوة ولا أحد من أفرادها يُفكِّر في الآخر، في الشمس التي ستشرق في الصباح، في كل الواجبات القاسية، المروّعة، التي تُفسِد اليوم وتجعل هذه الليلة قدسية، هذه الليلة القدسية المرصّعة بالنجوم الزرقاء والتيارات العميقة، وببراعم زهرة العُطاس والنشادر، ونبات البرْوَق والكاربورندوم[٣١].

---

٣١ - الكاربورندوم : مركَّب شديد الصلابة يُستَخدم في الصقل والكشط

لا أحد كان يعلم أنَّ تانت مليا مجنونة تماماً، وأننا حين نصل إلى منعطف الطريق سوف تندفع إلى الأمام كأيل الرنّة وتقضم قطعة من القمر. عند المنعطف اندفعت إلى الأمام كأيل رنّة وزعقَتْ "القمر، القمر!"، وتحرَّرت روحها، قفزت متحررة من جسدها. انطلقت بسرعة ستة وثمانين مليون ميل في الدقيقة. بعيداً، بعيداً، نحو القمر، وما كان في وسع أي إنسان مهما بلغت سرعة تفكيره أنْ يوقفها. هكذا وقع الأمر؛ مثل بريق نجم.

والآن ها أنا مُقدمٌ على أنْ أبوح بما قاله أولاد الحرام أولئك لي...

قالوا - ***هنري، خُذها غداً إلى المصح، ولا تقُلْ لهم إننا نستطيع تحمُّل نفقاتها***.

عظيم ! دائما مرحون ومستبشرون ! وفي صباح اليوم التالي استقلينا جميعنا الحافلة وخرجنا إلى الريف. وإذا سألتْ ملْ إلى أين ذهبنا فعليَّ أنْ أقول - " لزيارة العمة مونيكا ". ولكنَّ مِلْ لم تطرح أي سؤال. جلست بهدوء بجانبي وأخذت تشيرُ بين حينٍ وآخر إلى الأبقار. رأتْ أبقاراً زرقاء وأخرى خضراء. وعرِفت أسماءها. سألتْ ماذا يحدث للقمر في النهار. وهل تجد معي بالمصادفة قطعة من سجق الكبد ؟

أثناء الرحلة بكيتُ - لم أستطع كبح انفعالي. حين يكون الناس طيبون أكثر مما ينبغي في هذا العالم يجب احتجازهم في أماكن مُغلَقَة. ثمة خطأ في مفرطي الطيبة. صحيح أنَّ مِلْ كانت كسولة. كانت كسولة بالفطرة. وصحيح أنَّ مِلْ كانت ربّة منزل بائسة. وصحيح أنَّ مِلْ لم تكن تعرف كيف تتمسّك بزوج حيث يجدون لها واحداً. وحين هرب بول مع امرأة هامبورغ جلسَتْ مِلْ في الركن وبكت. لقد أرادَ لها الآخرون أنْ

تفعل شيئاً - أنْ تطلق عليه الرصاص، أو تُثير جَلَبَة، أو تقاضيه للحصول على نفقتها. ومِلْ جلستْ. مِلْ بكتْ. ومِلْ شمختْ برأسها. كانت أشبه بزوج من الجوارب الممزقة التي تُرفَس هنا وهناك وفي كل مكان. ودائماً تظهر في الوقت غير المناسب.

وذات يوم تناول بول حبلاً وشنقَ نفسه. ويبدو أنَّ مِلْ فهِمت ما حدث لأنها عندئذٍ وصلَتْ إلى الجنون المُطبَق. وفي اليوم السابق لذلك عثروا عليها تأكل برازها. وفي اليوم الذي سبقه وجدوها جالسة على المدفأة.

والآن هي هادئة تماماً وتنادي على الأبقار بأسمائها الأولى. والقمر يفتُنها. لم تكن تخاف من أي شيء لأنني معها ودائماً توليني ثقتها. كنتُ الأثير لديها. وعلى الرغم من أنها كانت شبه مجنونة إلا أنها كانت طيبة معي. أما الآخرون فكانوا أكثر ذكاءً، لكنَّ قلوبهم كانت شريرة.

حين كان الأخ أدولف يصطحبها في نزهة بالعربة كان الآخرون يقولون - " إنَّ مِلْ تضع عينها عليه ! " لكنني أعتقد أنَّ مِلْ كانت تتكلَّم بالبراءة نفسها التي تتكلَّم بها الآن. أعتقد أنَّ مِلْ، حين كانت تقوم بواجباتها الزوجية، كانت تحلم بكل براءة بالهدايا الجميلة التي ستوزعها على الجميع، أعتقد أنَّ مِلْ لم تكن لديها أدنى معرفة بالإثم أو بالشعور بالذنب أو بالندم. أعتقد أنَّ مِلْ كانت بالفطرة ملاكاً شبه مجنون. أعتقد أنَّ مِلْ كانت قديسة.

أحياناً حين كانت تُطرَدْ من إحدى الوظائف كانوا يرسلون في طلبي لآخذها. مِلْ لم تعرف الطريق إلى منزلها قط. وأذكُرُ مبلغ سعادتها كلما رأتني قادماً. كانت تقول ببراءة إنها ستقيمُ معنا. لماذا لم يكن في استطاعتها أنْ تُقيم معنا ؟ كنتُ أكرّر على نفسي هذا السؤال مِراراً.

لماذا لم يتمكّنوا من إيجاد مكان بجوار المدفأة، ويدعوها تجلس هناك وتحلم، إذا كان هذا ما تريد أنْ تفعله ؟ لماذا يجب على الجميع أنْ يعملوا – حتى القديسين والملائكة ؟ لماذا ينبغي على أنصاف المجانين أنْ يكونوا قُدوة ؟

الآن أفكِّر في أنَّه ربما من الأفضل لمِلْ أنْ تذهب إلى حيث آخذها. لا عمل بعد الآن. ومع ذلك، كنتُ أفضِّل لو أنهم أفسحوا لها زاوية في مكانٍ ما.

أثناء سيرنا على الممشى المُحصّى مُقتربين من البوابة الكبرى انتاب القلق مِلْ. حتى الجرو الصغير يعرف عندما يؤخذ ليُغرَق في البحيرة. ثم أخذت ترتجف. كانوا في انتظارنا عند البوابة. تثاءبت البوابة. أصبحتْ مِلْ في الداخل. وأنا في الخارج. إنهم يحاولون استدراجها إلى الدخول. إنهم لطفاء معها الآن. يكلمونها في منتهى الرقة. لكنَّ مِلْ مصعوقة من شدة الرعب. وإذا بها تستدير وتهرع مندفعةً إلى البوابة. وكنتُ لا أزال أقف هناك. مدَّتْ ذراعيها من خلال القضبان وتشبَّثت بعنقي. قبّلتُها برقّة على جبينها، وأزحتُ ذراعيها برفق. وجاء الآخرون ليأخذوها، ولم أحتمل المشهد. يجب أنْ أذهب. يجب أنْ أركض. وبقيتُ دقيقة كاملة أنظر إليها. بدتْ عيناها هائلتيّ الاتّساع ؛ عينان عظيمتا الاستدارة، ممتلئتان وحالكتا السواد كالليل. كانتا تتفرّسان بي دلالة عدم الفهم. لا يمكن لمجنون أنْ ينظر هكذا. لا يمكن أنْ تصدر عن أبله نظرة كتلك. إلا إذا كان ملاكاً أو قديساً.

كـمـا قلت، لم تـكن مِلْ مُـدبـرة منزل مـاهرة، ولكنهـا كـانت تعـرف طريقة صنع الفـريكاديلا. وإليك وصفـتهـا، ما دامت على بالي : إنهـا خبّيصـة من دُبال الخبز المُرطَّب (ببـول ظريف) بالإضـافـة إلى لحم الخيـول (من قوائمها المكسوة بالشعر فقط) المفروم ناعماً جداً والممزوج مع قليل من لحم السـجق. ثم تُشكَّل لفائِف على راحـة كف اليـد. والصـالون الذي كانت تديره مع بول، قـبل أنْ تدخل امرأة هامبـورغ في حيـاتهـمـا، كـان موجوداً بالقُرب من منعطف الجادة الثـانيـة، ليس بعـيـداً عن دار العـبـادة الصينية التي كان يستخدمها جيش الخلاص.

أثناء هروبي مُبـتـعـداً عن البـوابة تـوقـفتُ بـجـوار جـدار عـالٍ ودفنتُ رأسي في ذراعيَّ، وأسندتُ ذراعيّ على الجدار. ونشـجتُ بالبكاء كما لم أفـعل منذ أنْ كنتُ طفلاً. في تلك الأثناء كانوا يُحمّمون مِلْ ويُلبسـونهـا ثوباً نظاميـاً ؛ فَرَقـوا لها شعرها من الوسط، ومشّطوه وأسدلوه وربطوه على شكل عـقدة عند نقرة عنقهـا. وهكذا لا أحد يبدو مميَّزاً. الكل لهم مظهر الجنون نفسه، سواء أكانوا أشباه مجانين أم ثلاثة أرباع مجانين، أم فـقط مـجـانين قليـلاً. وحين تقـول " هل لي بقلم وحـبـر لأكـتـبَ رسـالة " يقـولـون " نعم " ويعطونكَ مـكنسـة لتكنس بهـا الأرض. وإذا تبـوَّلتَ على الأرض وأنت شارد يمسحونهـا. تسـتطيع أن تجـهشَ بالبكاء قـدر ما تشـاء ولكـن ينبـغي ألاّ تخـرق قـوانين الدار. إذ يجب إدارة مـنزل البق بـطـريقـة مُنظّمة كما يُدار أي منزل آخر.

كـان يُسمح لِمِلْ باسـتقبال الزوار مـرةً واحدة في الأسبوع. وعلى مـدى ثلاثين عـامـاً واظبتْ الأخوات على زيارة منزل البق. ثم سـئمن. حين كنَّ

صغيرات السن كنَّ يزرن أمهنّ في جزيرة بلاكويل. وكانت الأم تقول إنها تعتني بمِلْ، وتسهر على راحتها. وحين وقفَتْ مِلْ عند البوابة بعينين شديدتي البريق والاستدارة بحيث إنَّ عقلها لابد عاد إلى الوراء بسرعة القطار السريع. لابد أنَّ كل شيء قد قفز عائداً إلى ذاكرتها على الفور. كانت عيناها من الاتّساع والبريق، كما لو أنهما شاهدتا ما يتجاوز قدرتها على الاستيعاب. كانتا برّاقتين من فرط الرعب، ومن تحت مظهر الرعب كمِنَت فوضى لا حدود لها. وهذا ما جعلهما برّاقتين بشكل فائق الجمال. ويجب أنْ تكونَ مجنوناً لترى الأشياء بصفاءٍ شديد، وبشموليّة تامة. وإذا كنتَ عظيماً تستطيع أنْ تبقى هكذا وسوف يؤمن الناس بك، ويحلفون باسمك، ويقلبون العالم رأساً على عقِب إكراماً لك. ولكن إذا كنتَ عظيماً فقط جزئياً، أو كنتَ نكرة، فالضياعُ هو نصيبك.

في أوقات الصباح أقوم بنزهات عقلية نشطة سيراً على قدَميّ تحت خط الحديد المرفوع الزاعق، أمشي شمالاً من شارع ديلانسي باتجاه الوالدورف حيث كان العجوز في الليلة السابقة يتسكع في زقاق بيكوك مع جوليان ليغري. وفي كل صباح أكتبُ كتاباً جديداً، أثناء سيري من محطة شارع ديلانسي شمالاً باتجاه الوالدورف. وعلى الورقة الغُفل[٣٢] من كل دفتر كتبتُ بالزاج : ***جزيرة سِفاح القُربى***. وصباح كل يوم يبدأ بقيء سُكر الليلة الفائتة ؛ يُشكِّلُ زهرة غاردينيا أضعها في عروة طيّة سترتي، سترة بزّتي المزدوجة الصدر المُبطَّنة بأكملها بالحرير. وأصلُ إلى دكان الخياطة مع أنفاس الكآبة السوداء، لأجد ربما توم جوردان في غرفة

٣٢ – الورقة الغُفل : هي الورقة البيضاء الموجودة في أول الكتاب (أو الدفتر) وفي آخره

الإصلاح ينتظر أنْ تُزال البُقع عن فتحة بنطاله. وبعد أنْ أكتب ٣٦٩ صفحة أثناء الهرولة يمنعني عقم إلقاء تحية الصباح من التصرف بتهذيب عادي. وفي صباح هذا اليوم بالذات أنهيت المجلد الثالث والعشرين من الكتاب السَلَفي، الذي لا تُرى فيه حتى فاصلة لأنه كله مكتوب بارتجال وبدون استخدام قلم حبر. وأنا، ابن الخيّاط، أوشك أنْ ألقي تحية الصباح على بائع الصوف الممتاز التابع لأنديكوت ممفورد الواقف أمام المرآة وهو بملابسه الداخلية يتفحَّص التجاعيد الموجودة تحت عينيه. كل غصن وورقة من شجرة العائلة يهتز أمام عينيه. ومن قلب الضباب الأسود الجنوني لنهر إلب تظهر جزيرة سِفاح القُربى طافية المتبدّلة هذه التي تُنتج أزهار الغاردينيا الرائعة التي أَضع واحدة منها في عروة سترتي في صباح كل يوم، وأنا أهمُّ بإلقاء تحية الصباح على توم جوردان. إنها ترتعشُ هناك على شفتي. أرى شجرة ضخمة تظهر من بين الضباب الأسود وفي تجويف جزعها تجلس امرأة هامبورغ، ومؤخرتها تنحشر في الكرسي. الباب مُقفَل ومن خلال الشق أرى وجهها الأخضر، الشفتان مغلقتان بإحكام، وفتحتا الأنف منتفختان. وجورج المجنون ينتقل من بابٍ إلى آخر حاملاً بطاقات بريدية تحمل صوراً، والذراع التي كان حصان قد قضمها ضاعت ودُفِنَتْ، والكُمْ الفارغ يُرفرف في وجه الريح. وبعد أنْ يُمزّق أوراق الروزنانة كلها ما عدا الست الأخيرة سوف يقرع جورج المجنون جرس الباب ويقف على عتبة الباب، وقد تدلّى الجليد من شاربه، وقلنسوته في يده، ويهتف - " ميلاداً سعيداً! ". إنَّ هذه أشد الأشجار التي ظهرت من قلب إلب جنوناً، كل عضوٍ فيها ذاوٍ وكل ورقة ذابلة . هذه هي الشجرة التي تهتف بانتظام مرةً في العام - "ميلاداً

سعيداً! " رغم أنف الكوارث، وتفشّي السرطان، وداء الاستسقاء، والسرقة، والكذب، واللواط، والشلل، والديدان الشريطية، والآذان الجارية، والرقّاص، والتهاب السحايا، وداء الصَرَع، وحشيشة الكبد، الخ.

إنني أوشك أنْ ألقي تحية الصباح. إنها ترتجفُ على شفتي. المجلّدات الثلاثة والعشرون من كتاب يوم الحساب كُتِبَتْ بولاءٍ لسفاح القُربى، الأغلفة مُجلّدة بأفخر أنواع الجلد المراكشي وكل مجلَّدٍ مزوَّد بقفل ومفتاح. عينا توم جوردان المُحتقنتان بالدم ملتصقتان بالمرآة ؛ إنهما ترتعشان كحصان ينفض عنه ذبابة. توم جوردان دائماً إما يخلع ملابسه الداخلية أو يرتديها ؛ دائماً يعمل على إزالة البقع أو وضع طيّة جديدة. تانت مليا جالسة في المُبرِّد، تحت ظلال شجرة العائلة. الأم تغسل بقع القيء عن ملابس الأسبوع الفائت القذرة. العجوز يشحذ الموس. اليهود ينتقلون من تحت ظل الجسر، والأيام تقصُر، وزوارق القَطر تشخر أو تنعق كالضفادع، والمرفأ مزدحم بكعك الثلج. كل فصل في الكتاب الذي كُتِبَ في الهواء الطَلقْ يُكثِّفُ الدم ؛ موسيقاه تصمُّ آذان القلق الهائج للهواء الخارجي. الليل يهبطُ كهدير الرعد، يضعني على أرض شارع المُشاة الذي لا يؤدي في النهاية إلى أي غاية، لكنه مُحدَّد بأشعة برّاقة متلألئة على طوله الذي لا عودة عنه ولا مجال للتوقف عليه.

يخرج الرعاع من تحت ظِلال الجسور، وينضمون إلى بعضهم أكثر فأكثر، كدودة حَلَقيّة، تاركين مكانهم تقرُّحاً فاسداً ضخماً ينتقلُ من نهرٍ إلى نهر على طول الشارع الرابع عشر. هذا الخط من الصديد الذي يجري غير مرئيّ من محيطٍ إلى مُحيط، ومن عصرٍ إلى عصر، فاصلاً

عالم غير اليهود الذي عرفته من دفتر السجلات عن العالم اليهودي الذي أنا مُقبلٌ على معرفته من الحياة. بين هذين العالَمين، وسط خط الصديد المُنتقل من نهرٍ إلى نهر، يقفُ أصيص صغير مملوء بأزهار الغاردينيا. يحدثُ هذا ما دام حيوان المستودن المنقرض يتجوَّل، حيث لم يعد في استطاعة الجواميس أنْ ترعى ؛ هنا يبزغ العالم الماكر المُجرَّد كجُرفٍ أُخمِدَتْ فيه نيران الثورة. وفي صباح كل يوم أجتاز الخط، وزهرة غاردينيا في عروة سترتي ومتأبّطاً مجلّداً جديداً كُتِبَ في الهواء الطَلق. في كل صباح أخوضُ في خندقٍ مملوءٍ بالقيء لأصل إلى جزيرة سِفاح القُربى الجميلة ؛ وفي كل يوم يزداد ارتفاع الجروف، وتصطفّ النوافذ برتلٍ مستقيم على طول السكة الحديد وبريقها أشد إبهاراً من بريق جماجم مصقولة. في كل صباح يتثاءب الخندق بتهديدٍ أكبر.

عليَّ الآن أنْ ألقي تحية الصباح على توم جوردان، لكنها تتعلَّق هناك على شفتيَّ مُرتعشة. أيُ صباحٍ هذا أُضيّعه في إلقاء التحية ؟ أهو جيد، سيد الصباحات هذا ؟ إنني أفقد القدرة على التمييز بين صباحٍ وآخر. في دفتر السجلات يوجد عالم الجاموس الذي ينقرضُ بسرعة ؛ في الغرفة المجاورة عمّال البرشمة يخيطون أضلاع ناطحات السحاب القادمة. رجال شرقيون ماكرون ينتعلون أحذية رصاصية ويحملون جماجم من زجاج يضعون خريطة صحيفة عالم الغد، عالم مصنوع بأكمله من التجارة، التي تكدِّس الصناديق واحداً فوق آخر كمصنع صناديق ورقيّة في كارناسي. اليوم لا يزال هناك وقت لحضور جنازة الميت الحديث ؛ وغداً لن يبقَى وقت، ذلك أنَّ الجثث ستُترَكُ حيث هي والويلُ لِمَنْ يزرف دمعةً واحدة. هذا صباحٌ جيد لقيام ثورة لو توفّرت مدافع رشّاشة بدل

الألعاب النارية. هذا الصباح كان سيصبح صباحاً رائعاً لو أنَّ صباح الأمس لم يُخفق إخفاقاً تاماً. الماضي يثبُ مُبتعداً، والخنادق تزدادُ اتّساعاً. والغد أبعد مما بدا في الأمس لأنَّ حصان الأمس ركض بهياج والرجال ذوو الأحذية الرصاصية يعجزون عن اللحاق به. وبين جودة الصباح والصباح نفسه هناك خطٌ من الصديد يُطلِقُ نتانة على الأمس ويُسمِّم الغد. هذا صباح هو من شدة الاضطراب إلى درجة أنه لو كان مجرَّد مظِلّة عتيقة لاستطاعت عطسة صغيرة أنْ تقلب داخله إلى الخارج.

حياتي كلها تمتد على هيئة صباحٍ متواصل. في كل يوم أبدأ الكتابة من الصفر. في كل يوم يُخلقُ عالمٌ جديد، مُنفصل وكامل، وها أنا بين مجموعات النجوم إلهاً شديد الولَه بنفسه إلى درجة أنَّ كل ما يفعله هو أنْ يغني ويَصيغ عوالمَ جديدة. في تلك الأثناء يتفتَّت العالم القديم شذراً. العالم القديم يُشبه غرفة إصلاح الملابس حيث تُكوى الملابس الداخلية وتُزال البقع وتُثبَّت الأزرار. رائحة العالم القديم تشبه درزة رطبة تتلقَّى قُبلة من حديد شديد الحرارة. تغييرات وإصلاحات لا نهاية لها، تطويل كُمْ، خفض ياقة، تقريب زر، ووضع مقعدة جديدة. ولكن أبداً لا توجد ملابس جديدة، ولا خلق جديد. هناك عالم الصباح، الذي يبدأ من الصفِر في كل يوم، وغرفة الإصلاح التي تجري فيها تعديلات وإصلاحات لا حصر لها. كذلك هو الحال مع حياتي التي يخترقها مجرور الليل. طوال الليل أسمعُ المِكواة الإوزية[٣٢] تهسُّ وهي تُقبِّلُ الدرزات الرطبة؛ وقشور العالم القديم تسقط على الأرض ونتانتها كريهة كرائحة الخل.

٣٢ – المكواة الإوزيّة : مكواة خاصة عنقها طويل يستخدمها الخياطون

الرجال الذين أحبّهم والذي كانوا ضعفاء ومحبوبين. خرجوا، كلهم ودون استثناء، كنجومٍ متلألئة في وجه الشمس. خرجوا بهدوء وبشكلٍ كارثيّ. لم تبقَ منهم نتفة واحدة - لا شيء غير ذكرى توهجهم وتألقهم. إنهم الآن يتدفقون داخلي كنهرٍ شاسع مختنق بالنجوم الساقطة. إنهم يُشكّلون النهر الأسود المتدفّق الذي يُبقي محور عالمي في حالة ثورة دائمة. من حزام الليل الأسود، الممتد إلى الأبد، اللا نهائي هذا، ينبثقُ الصباح المتواصل الذي يُبدَّد في الخلق. وفي صباح كل يوم يفيض النهر على ضفّتيه، مُخلّفاً الأكمام وعُرى الأزرار وتنتثر كل قشور كونٍ ميّت على طول الشاطئ الذي أقف عليه أتأمَّل محيط صباح الخلق.

أثناء وقوفي على شاطئ المحيط أرى جورج المجنون مُتكئاً على جدار دكان الحانوتي. كان يعتمر قلنسوته الصغيرة الغريبة، ويضع ياقة السيلولويد وربطة عنق ؛ ويجلس على مقعد بلا ظهر بجوار التابوت، لا هو حزين ولا يبتسم ؛ بل يجلس هناك بهدوء، كملاكٍ خرج من لوحة يهودية. الرجل المُسجّى في التابوت، الذي لا تزال جثته دافئة، يلبس بذلة مُنقطة بالأبيض والأسود وعلى مقاس جورج تماماً. وكان هو يضع ياقة وربطة عنق ويُدلّي ساعة من جيب سترته. فيُخرجه جورج، ويُجرّده من ملابسه، ويضعه على الثلج أثناء تغيير ملابسه. ولا يرغب في سرقة الساعة فيضعها على الثلج بجوار الجثة. ويتمدَّد الرجل على الثلج تُحيط عنقه ياقة من السيلولويد. الظلام يهبط وجورج يُغادر محل الحانوتي، وقد أصبح الآن يضع ربطة عنق ويرتدي ملابس جيدة. وعند المنعطف يتوقف في صيدلية ليشتري كتاباً من النكات كان قد شاهده في الواجهة ؛ ويقفُ في نفق المشاة ويستظهر بضع نكات. إنها نكات جو ميللر.

في ذلك الوقت بالضبط تُرسلُ تانت مليا بطاقات معايدة بمناسبة عيد الحب إلى الأقارب. إنها ترتدي زياً رسمياً رمادي اللون وشعرها مفروق عند المنتصف. تكتبُ قائلة إنها غاية في السعادة مع أصدقائها الجُدُد وأنَّ الطعام جيد. لكنها تريد منهم أنْ يتذكَّروا أنها طلبت منهم بعضاً من Fastnacht Kuchen كعك ثلاثاء المرافع في الزيارة الأخيرة - فهل لهم أنْ يُرسلوا إليها بعضاً منه بالبريد، على شكل طرد ؟ تقول إنَّ هناك بعض أزهار البيتونيا تنمو حول برميل الزبالة خارج المطبخ الكبير. تقول إنها بنزهة طويلة سيراً على القدمين في يوم الأحد الفائت شاهدت العديد من أيائل الرنة والأرانب وطيور النعام. تقول إنَّ تهجيتها للكلمات رديئة جداً، ولكنها بارعة جداً في الكتابة على أي حال. الكل لطيفٌ معها وهناك الكثير من العمل يجب أداؤه. تودّ أنْ تصلها كمية من Fastnacht Kuchen في أقرب وقت ممكن، بالبريد الجوّي إذا أمكن. وطلبت من المدير أنْ يصنعَ لها بعضاً منها ولكن يبدو أنهم نسوا ذلك. وطلبت إرسال بعض الصحف لأنها تحب أنْ تتفرّج على الإعلانات التجارية. وكانت قد شاهدت ذات مرة قبعة، من محل بلومنغديل، في اعتقادها، وكان سعرها مُخفّضاً. فهل يمكنهم أنْ يُرسلوها مع الـ Fastnacht Kuchen ؟ وهي تشكرهم جميعاً على البطاقات البريدية الجميلة التي أرسلوها إليها في عيد الميلاد السابق - إنها لا تزال تتذكرها، خاصة تلك التي فيها نجومٌ فضيّة. الجميع رأوا أنها جميلة. وتقول إنها ستأوي إلى السرير قريباً وإنها ستصلي لأجلهم كلهم لأنهم دائماً طيبون معها.

العتمة تزداد، دائماً في الساعة نفسها، وأنا واقفٌ هناك أحدِّقُ إلى مرآة المحيط. إنه وقت البرد المُثلج، لا هو بالسريع ولا بالبطيء، لكنه

يستلقي جامداً على الثلج ويضع ياقة سيلولويد - ولو حصل لديه انتصاب لكان شيئاً رائعاً... بل أكثر من رائع ! وفي الردهة شبه المُعتمة في الأسفل ينتظر توم جوردان نزول العجوز. كان بصُحبته اثنتان من المومسات البدينات إحداهما تُثبِّتْ رباط جوربها، وتوم جوردان يساعدها في ذلك. وكما أقول، في الوقت نفسه، وعند الغسق، تسير السيدة لوسن في المقبرة لتلقي من جديد نظرةً على قبر ابنها الحبيب. تقول ابنها العزيز الصغير جاك، على الرغم من أنَّ عمره كان اثنين وثلاثين عاماً حين رُفِسَ من الدنيا قبل سبعة أعوام. وقيل إنه مات متأثراً بروماتيزم في القلب، لكنَّ الحقيقة هي أنَّ الفتى العزيز خرقَ العديد من العذارى المصابات بمرضٍ تناسلي بحيث إنهنَّ بعد أنْ استنفذن الصديد من جسده انحطَّ فجأةً كقرصٍ من الخراء. ويبدو أنَّ السيدة لوسن لا تتذكَّر هذا كله. إنه فتاها العزيز جاك والقبر دائماً مُرتَّب وأنيق ؛ وهي تحمل قطعة من جلد الشاموا في حقيبة يدها لكي تلمِّع بها شاهدة القبر في مساء كل يوم.

الغسق نفسه، والجثة مستلقية يابسة على الثلج، والعجوز واقف في حجيرة الهاتف وسماعة الهاتف في إحدى يديه وشيءٌ دافئ ورطب وعليه شعر في اليد الأخرى. إنه يتصل ليطلب ألا ينتظرونه على العشاء، وأنَّ عليه أن يخرج مع زبون وسيعود متأخراً، وألا يقلقوا. جورج المجنون يُقلِّب صفحات كتاب نكات جو ميللر. إلى أسفل أكثر، باتجاه محطة موبايل، يتدرّبون على لحن سينت لويس بلوز دون استخدام أي نوتة مكتوبة أمامهم والناس يستعدّون للإصابة بالجنون حين يسمعونه بالأمس، واليوم، وغداً. الكل يستعد لكي يُغتَصَب، ويُخدَّر، ويُنتَهَك، ويُخلَّل بالموسيقى الجديدة التي تنزُّ من عَرَق الإسفلت. قريباً سيكون

الوقت هو نفسه في كل مكان، بمجرَّد إدارة قرص أو التعلُّق في الهواء فوق الأرض على متن منطاد. إنها ساعة الـ Kaffee-Klatschers المحتفلين حول مائدة العائلة، وكل منهم يعمل لهدف مختلف، المرأة ذات السبلتين والخواتم الثقيلة التي تضعها في أصابعها لأنها مرّت بوقت عصيب أكثر من أي شخص آخر لأنها تستطيع دفع ثمنها.

الجو في مثل هذه الساعة مُذهل الجمال حين يبدو أنَّ كل شخص يطبق أسلوبه الخاص. الحب والقتل، لا يزالان متباعدين بمقدار بضع ساعات. أشعر بمجيئه مع الغسق : ثمة أطفال جدد يخرجون من الرحم، بلحمٍ رقيق، ورديّ اللون، لكي يعلقوا بالأسلاك الشائكة ويصرخوا طوال الليل ويتعفّنوا كعظِام ميتة على بُعد ألف ميل من اللا مكان. وعذارى مجنونات يجري في دمائهن جاز بارد كالثلج يحثثنَ الرجال على إقامة أبنية جديدة ورجال بياقات للكلاب تُحيط بأعناقهم يخوضون في الروث حتى عيونهم بحيث إنَّ قيصر الكهرباء سيحكم الأمواج. ما الذي في البذرة يُشيع الرعب في أوصالي : ثمة عالم جديد قادم يخرج من البيضة ومهما أسرعت في الكتابة لا يموت العالم القديم بسرعة كافية. إنني أسمع في الحال هدير المدافع الرشاشة الجديدة وصوت تهشُّم ملايين العظِام؛ وأرى كلاباً تركض بجنون وطيور الحمام تسقط ورسائل مربوطة إلى كواحلها.

دائماً مرحون ومُستبشرون، سواء شمالاً من شارع ديلانسي أو جنوباً باتجاه خط الصديد ! يداي الرقيقتان في جسد العالم، تحرثان الأحشاء الدافئة، ترتِّبان وتشوّشان، تُقطّعانها، وتعود فتُخيطانها. إنه

إحساس الجسد الدافئ الذي يعرفه الجرّاح، بالإضافة إلى المحار، والثآليل، والتقرحات، والفتاق، وأشطاء السرطان، وداء الكَلَب، ومشابك، وكلابات، والمقص والنباتات الاستوائية، والسموم والغازات كلها موجودة في الداخل ومُغطّاة بشكلٍ كامل بالجلد. ومن الأجزاء الأساسية المثقوبة يتدفَّق الحب كغاز المجرور : حبٌ غاضب يلبسُ قفازاً أسود ورباطاً برّاقاً للجوارب، حب يقضم ويزأر، حب مختبئ في برميل وينفخ ثقب البرميل ليلة بعد ليلة. الرجال الذين ولجوا دكان والدي كانوا يفوحون برائحة الحب : كانوا دافئين ومنتعشين، ضعفاء ومتراخين، يخوتاً بيضاء يُجلّلها الجنس، وحين يمرّون بي ليلاً كانوا ينفخون أحلامي ويُبددوها. وأثناء وقوفي في قلب نيويورك سمعت رنين أجراس الأبقار، أو، حين التفتّ، سمعتُ موسيقى قرقعة الموت العذبة، ثمة خط أحمر من أعلى الصفحة إلى أسفلها وعلى كل كُمّ وُضِعَتْ عُصابة الحِداد. وبليّ عنقي قليلاً استطعتُ أنْ أقفُ عالياً فوق أعلى ناطحات السحاب ونظرتُ إلى أسفل إلى آثار دواليب التقدُّم الحديث. لا شيء كان شديد الصعوبة عليّ إذا كان يحتوي قليلاً من الأسى والحزن. Chez nous (عندنا) كانت الأمراض العضوية كلها - وبعض من اللا عضوية. كنا ننتشر كالبلّور القاسي، من جريمة إلى أخرى. دوّامة مرحة، وفي مركزها عامي الحادي والعشرين المُغطى منذ البداية بالزنجار.

حين ستتوقف ذاكرتي عن العمل سأبقى أتذكَّر الليلة التي كنت أُصابُ خلالها بجرعة من السيلان ورافقَ والدي العجوز وهو شديد السُكر صديقه توم جوردان ليضاجعه. شيءٌ جميل ومؤثِّر - وأنتَ خارج المنزل تُصاب بالسيلان وشرف العائلة على المِحك، أو at par، إنْ صحَّ التعبير.

ولا تكون موجوداً لكي تشهد الشجار، بينما الأم والأب يتصارعان على الأرض والمكنسة تتطاير ؛ ولا تحضر مع بزوغ الصباح البارد حين يكون توم جوردان جاثياً على رُكبتيه ويستجدي الغفران ولا يناله حتى وهو راكع.لأنَّ القلب المتحجِّر لشخصٍ لوثريّ لا يعرف معنى الغفران. شيء مؤثِّر وجميل أنْ تقرأ في الصحيفة في صباح اليوم التالي أنه في الساعة نفسها تقريباً من الليلة السابقة ضُبِطَ القس الذي أنشأ مضمار لعبة البولينغ في غرفة مُظلِمة مع صبي عارٍ يجلس في حضنه ! ولكن ما يجعل هذا شيئاً مؤثّراً وجميلاً إلى أقصى مدى أنني، وأنا جاهل لحدوث هذه الأمور، عدتُ إلى المنزل في اليوم التالي لأطلب السماح لي بالزواج من سيدة تبلغ من العمر ما يؤهّلها أنْ تكون أمي. وما إنْ لفظتُ كلمة "أتزوَّج" حتى شهر العجوز سكيناً في وجهي وهرع يطاردني. وأذكُر أني، وأنا أغادر المنزل، توقفتُ أمام خزانة للكتب وفي نيتي أنْ لأختار كتاباً منها. وكان اسم الكتاب - ***مولد المأساة***[٣٤]. والمضحك أنه، مع ما حدث في الليلة الفائتة بالمكنسة، وسكين تقطيع الخبز، والإصابة بالسيلان، والقس الذي قُبِضَ عليه بالجُرم المشهود، والزلابية التي أخذت تبرد، وأشطاء السرطان، الخ... كنتُ أعتقد حينئذٍ أنَّ كل أحداث الحياة المأساوية قد دوِّنَتْ في الكُتُب وأنَّ ما يجري في الخارج ما هو إلاّ هراء مُخفَّف. اعتقدتُ أنَّ الكتاب الجميل هو جزء مريض من المخ. لم أدرك أبداً أنَّ عالماً بأكمله يمكن أنْ يمرض !

أتمشى جيئة وذهاباً متأبطاً لُفافة. لنقُلْ إنه صباح برّاق وجميل، وجميع المِبصقات مغسولة ومُلمّعة. وأتمتم لنفسي وأنا ألج مبنى وول

٣٤ - " مولد المأساة " : المؤلَّف الأول للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠)

وورث - " صباح الخير سيد ثورندايك، هذا الصباح رائع يا سيد ثورندايك. هلْ أنتَ من المُهتمّين بالملابس يا سيد ثورندايك ؟ " السيد ثورندايك غير مهتم بالملابس هذا الصباح، ويشكرني لمروري به، ويرمي البطاقات في سلة المهملات. لا داعي للإحباط وأجرِّب مبنى الأميركان إكسبريس. " صباح الخير سيد هاثاواي، نهار رائع ! ". السيد هاثاواي ليس بحاجة إلى خياط جيّد - إنه يتعامل مع خياط منذ خمسة وثلاثين عاماً خَلَتْ. وأقول لنفسي وأنا أتعثَّر أثناء هبوطي الدَرَج إنَّ السيد ثورندايك نكِد ومعه حق في ذلك. إنه صباح مشرق، لا شك في ذلك، ولكي أزيل الطعمِ الكريه من فمي وأيضاً لكي ألقي نظرة على المرفأ أستقلُّ الحافلة على الجسر وأعرِّج على شخص خسيس اسمه دايكر، دايكر رجل مشغول. هو من النوع الذي يأمر بإحضار طعامه إليه وتلميع حذائه أثناء تناوله طعامه. ودايكر يُعاني من مرض عصبي بسبب النكاح الجاف. ويقول إنَّ في استطاعتنا أنْ نصنع له بذلة مُنقّطة بالأبيض والأسود إذا توقّفنا عن إزعاجه بالإلحاح على تسديد دينه في كل شهر. لم تكن الفتاة تتعدى السادسة عشرة ولم يكن يريد أنْ يجعلها تحبل. نعم، بجيوب مُثبَّتة، من فضلك ! ثم إنه تزوَّجَ وله ثلاثة أولاد بالإضافة إلى أنه قريباً سيخوض معركة انتخاب القاضي - قاضي محكمة الاستئناف.

الوقت يقترب من الظهيرة. وأهرعُ عائداً إلى نيويورك وأتوقَّف عند مسرح المنوعات والحاجب يعرفني. الصفوف الثلاثة الأولى يشغلها القُضاة والسياسيون. المكان مُظلم وماغري بينيتي واقفة على المعبر إلى خشبة المسرح مُرتدية لباس البهلوانات المُحكَم الأبيض المُتّسِخ. لديها

أجمل مؤخرة رأيتها على امرأة تعمل في مجال المسرح والجميع يعلمُ هذا، بما فيهم هي نفسها. بعد انتهاء العرض أتجوَّل بلا هدف، أتفرَّج على صالات العرض السينمائي وعلى مخازن بيع المعلبات اليهودية أقفُ برهة في ملهى بنسي وأصغي إلى الأصوات الفاتنة الصادرة عبر الميغافون. ما الحياة إلاّ شهر عسل متواصل محشو بكعكة مُغطّاة بطبقة من الشوكولاتة وفطيرة التوت البري. ضعْ بنساً في الشق فترى امرأة تتعرَّى وهي تستلقي على العشب. ضعْ بنساً في الشق فتربح مجموعة من أطقم الأسنان الاصطناعية. العالم يُصنَع من أجزاءٍ جديدة بعد ظهر كل يوم : تُرسَلْ الأجزاء الصلبة إلى مؤسسة التنظيف على الناشف، والأجزاء المُستعملة تُقطَّع وتُباع كخُردة.

أمشي في المدينة وأمرُّ بخط الصديد وأتجوَّل في ردهات الفنادق الكبرى. وإذا رغبت أجلسُ وأراقب الناس يعبرون الردهة. الكُلُّ مُعرَّض لمراقبتي. الأمور تحدث في كل مكان حولي. التوتر الناتج عن الانتظار يُسبب الهياج. الصاعدون والهابطون بالمصعد يتدافعون، وسيارة الأجرة تزعق، وسيارة الإسعاف تقرقع، وعمال البرشمة يبرشمون. الغانيات الحسان بملابسهن البهيّة يبحثن عن أناس لا يرون على مناداتهم بأسمائهم. وفي المراحيض الذهبية السفلية يقفُ الرجال صفاً واحداً في انتظار أدوارهم. كل شيء مصنوع من البْلَش[٣٥] والرخام، والروائح العطرة مُترَفَة، والنضارة تتدفق بروعة، وعلى الممشى الجانبي هناك منصَب للصُحف، لا تزال العناوين الرئيسية طازجة بأخبار الجريمة، والاغتصاب، وإحراق المباني عمداً، والتزوير، والثورة. الناس يدوس بعضهم بعضاً

٣٥ - البْلَشْ : نسيج ذو زئبر أطول من زئبر المخمل

ليقتحموا القطار النفقي. وهناك في بروكلن تنتظرني امرأةٌ في عمر أمي، تنتظرني لأتزوجها، والابن مُصاب بحالة متقدمة من مرض السل بحيث لم يعُد قادراً على مغادرة الفراش. وصاحبة الحَلَمة الرخوة تصعد إلى العلّية لتمارس الحب والابن في الغرفة المجاورة يسعل حتى يكاد يلفظ رئتيه، وهي أجرت حديثاً عملية إجهاض ولا أريد أن أجعلها تحبل من جديد - ليس فوراً على أي حال.

إنها ساعة الزحام ! القطار النفقي مجاني أمام الجنّة كلها. إنني مُلتصق بامرأة بشدة إلى درجة أني أشعر بالشعر الذي على كسّها. والالتصاق مُحكَم بحيث إنَّ براجم يدي تحفرُ آثاراً على أعلى فخذَيها وهي تنظر أمامها مباشرة، على نقطةٍ مجهريّة تقعُ مباشرةً تحت عيني اليُمنى. ومع بلوغنا شارع القناة أنجحُ في وضع أيري حيث كانت براجمي من قبل. إنه ينتفض كالمجنون وكيفما اهتزَّ القطار تتَّخذ هي الوضع المقابل تماماً والملائم له. وحتى عندما يخفُّ الزحام تقفُ وحوضها مُندفع إلى الأمام وعيناها مُثبّتتان على النقطة المجهرية تحت عيني اليُمنى مباشرةً. وعند قاعة بورو تترجَّل، حتى دون أنْ تلقي عليَّ نظرةً واحدة. أتبعها حتى الشارع مُعتقداً أنها قد تلتفت لنقولَ إلى اللقاء على الأقلّ، أو تدعني أشتري لها شوكولاتة مثلّجة مُفترضاً قُدرتي على شرائها. ولكن لا ؛ إنها مُنطلقة كالسهم، دون أنْ تُدير رأسها ولا حتى بمقدار بوصة. لا أعلم كيف يفعلنَ ذلك. إنَّ ملايين الملايين منهنّ يقفنَ مساء كل يوم بلا ملابس داخلية ليقمنَ بمضاجعات لا حسّ فيها. والنتيجة - دُشّ؟ تدليك؟ إنَّ عشرةً منهنّ مقابل واحدة يندفعن إلى السرير ويقمنَ بالعملية بأصابعهن.

مهما يكن، الوقت يقترب من المساء وأنا أتمشّى في كل مكان مع انتصابٍ جديرٍ بأنْ يقتحم فتحة بنطلوني. ويزداد الازدحام ويتفاقم. الكل يقرأ الصحيفة الآن. السماء مُختنقة بالسلع التجارية المُضاءة، وكل صنفٍ منها مضمون بأنه ممتع، صحّي، يدوم، طيّب المذاق، لا يُثيرُ ضجيجاً، لا يتخلله ماء المطر، لا يبلى، لا مثيل له ne plus ultra، والحياة من دونه لا تُحتَمَل لولا أنَّ الحقيقة تقول إنّ الحياة غير مُحتَمَلة فعلاً لأنه لا وجود للحياة. وفي الساعة نفسها تقريباً يُغادر فيها العجوز هنشك دكان الخياطة ليذهب إلى نادي لعب الورق في المدينة، وهو عملٌ جانبي صغير مقبول يُبقيه منشغلاً حتى الساعة الثانية صباحاً. لا يوجد الكثير يعمله - فقط يُناول الرجال قبعاتهم ومعاطفهم، ويُقدم المشروب على صينية صغيرة، ويُفرِغ المنافض ويسهر على أنْ تكون عِلَبْ الكبريت ممتلئة. إنه عملٌ مُسلٍ فعلاً، كل شيء فيه محسوب. ومع اقتراب منتصف الليل يُعِدُّ وجبة خفيفة للسادة، فيما لو رغبوا في الأكل. وهناك مِبصقات طبعاً وإناء للغسل. ولكن كانوا كلهم سادة مُحترمين بحيث إنه كان عملاً سهلاً. وكنت دائماً تجد قطعة جبن صغيرة وقطع من الحلوى تتسلى بقضمها. وأحياناً يتوفَّر مقدار كشتبان من البورت، وبين حينٍ وآخر شطيرة من اللحم البارد للغد. سادة مُحترمون حقاً ! لا جِدال في ذلك. يدخّنون أفضل أنواع السيجار. حتى أعقاب السجائر مذاقها جيد. إنه عمل ممتع جداً جداً والحق يُقال !

وقتُ العشاء يقترب. أغلبُ الخياطين أغلقوا محلاتهم. وقليل منهم، الذين ليس في سجلاتهم غير عجائز هرمين، ينتظرون أنْ يقوموا بالبروفة. إنهم يتنقلون في كل مكان وأيديهم خلف ظهورهم. الكل ذهبوا

ما عدا رئيس الخياطين وربما معه مساعده أو المُفصِّل. ويتساءل الرئيس إنْ كان عليه أنْ يضع المزيد من العلامات الطباشيرية وإنْ كان الشيك سيصل في وقت تسديد الإيجار بالضبط. والمُفصِّل يقول لنفسه - " ولكن نعم، يا سيد كذا وكذا، ولكن تأكَّد... نعم، أعتقد أنه ينبغي أنْ تكون أعلى قليلاً... نعم، معك كل الحق... إنها مائلة قليلاً نحو اليسار... نعم، سوف نُنهيه لك في غضون بضعة أيام... نعم، يا سيد كذا وكذا... نعم، نعم، نعم، نعم، نعم... ". الملابس الجاهزة والملابس غير الجاهزة مُعلَّقة كلها على المنصب، والأحزمة مكوَّمة بإتقان على الطاولات، ولا توجد غير غرفة الإصلاح مُضاءة. فجأة يرن جرس الهاتف. السيد فلان الفلاني على الخط ولن يتمكَّن من المجيء هذا المساء ويتمنّى لو تُرسِل له البذلة على الفور، البذلة ذات الأزرار الجديدة التي انتقاها في الأسبوع الفائت. ويبتهل للمسيح ألاّ تقفز فوق عنقه كالعادة. ويعتمر المُفصِّل قبعته ويرتدي معطفه ويسرعُ هابطاً الدَرَج ليحضر المجمع اليهودي في برونكس. ويُترَك الرئيس وحده ليُغلق الدكان ويُطفئ الأنوار جميعها إذا كانت متروكة خطأ، والذي سيقوم بإرسال البذلة في الحال هو نفسه وهذا لا يهمّ كثيراً لأنه سيزوغ من مخرج التجّار ولن يكون هناك مَنْ يفوقه دهاءً. لا أحد يبدو عليه أنه مليونير أكثر من رئيس خياطين وهو يُسلِّم بذلة إلى السيد فلان الفلاني. أنيق ورشيق ومُلمَّع الحذاء، قبعته نظيفة، وقفازه مغسول، وشاربه مُشمَّع، ولا يتسرَّب إليهم القلق إلا عندما يجلسون على مائدة العشاء. لا شهيّة. لا طلبات اليوم. لا شيكات. ويبلغ بهم الحزن مبلغاً يجعلهم ينامون في العاشرة وعندما تحين ساعة الذهاب إلى السرير يكون النوم قد غادر عيونهم.

أسير على جسر بروكلن... أهذا هو العالم، هذه التمشية جيئة وذهاباً، وتلك الأبنية المُضاءة كلها، وأولئك الرجال والنساء الذين يمرّون بي ؟ أراقب شفاههم تتحرك، شفاه رجال ونساء يمرون بي. عمَّ يتحدثون - وبعضهم يبدو عليهم الجَدّ ؟ أكره أنْ أرى الناس غارقين في الجَدّ في حين أنَّ معاناتي أشدّ سوءاً من معاناة أي منهم. إنها حياةٌ واحدة ! في حين أنَّ هناك الملايين من الحيوات تنتظر أنْ تُعاش. وحتى الآن لم أقُلْ شيئاً واحداً عن حياتي الخاصة. لا شيء. ربما ليس لدي أحشاء. يجب أنْ أعود إلى القطار النَفَقي، وأمسك بإحداهن وأغتصبها في الشارع. يجب أنْ أعود إلى السيد ثورندايك في الصباح وأبصقُ في وجهه. يجب أنْ أقف في ساحة التيمس ممسكاً أيري بيدي وأتبوَّل في المجرور. يجب أنْ أنتزع مسدساً وأطلق النار مُسدَّداً نحو الحشد. العجوز يعيش الحياة على طريقة رايلي. هو وأصدقاؤه المُقرّبون. وأنا أسير في الاتجاهات كلها، وقد اخضرَّ لوني من الحقد والحَسَد. وحين سأعود إلى المرأة العجوز سوف تجهشُ بالبكاء حتى ينفطر قلبها. لا يمكنني أنْ أبقى ليالٍ وأنا أنصت إليها. إنني أكرهها أيضاً بسبب نشيجها بتلك الطريقة. واحدة تسرقني والأخرى تُعاقبني. فكيف أخرقها وأواسيها في حين أنَّ رغبتي القصوى هي أنْ أحطِّم قلبها ؟

أتمشى على طول الباوري... في مثل هذه الساعة من النهار يكون المرج بلون المخاط الأخضر. هناك قوادون، ومجرمون، وعاهرات، وشحاذون، ومُعدمون، وسارقو أخبار المراهنات، وقنّاصون، وصينيون، وإيطاليون، وسكارى. كلهم بُلهاء يسعون وراء لقمة العيش ومكان ينطرحون عليه. ***أمشي وأمشي وأمشي***. أنا في الحادية والعشرين،

أبيض البشرة، وُلدتُ ونشأتُ في نيويورك، رياضي البُنية، يبدو عليّ الذكاء، مُولِّدْ جيد، ليست لديّ عادات سيئة الخ الخ. أسجِّلْ على اللوح. أبيع بسعر التكلفة. لم أقترف أي جريمة، اللهم ما عدا أني ولِدتُ هنا.

في الماضي كان كل فرد من عائلتنا يعمل شيئاً بيديه. وأنا أول ابن حرام عاطل عن العمل ذو لسانٍ زلِق وقلب أسود.

أشقُ طريقي بين الحشد. إصبع بين الأصابع. أُخاطُ وأُخاطُ من جديد. الأضواء تومض - تضيء وتختفي، تضيءُ وتختفي. أحياناً تكونُ إطاراً من المطاط، وأحياناً قطعة علكة. والمأساة في ذلك تكمنُ في أنَّ لا أحد يرى نظرة اليأس المرتسمة على وجهي. آلافُ وآلاف منا يمرُّ أحدنا بالآخر دون أن يُلقي عليه نظرةَ تعارف. وتهتز الأضواء كالإبر الكهربائية، وتجنّ النوى بتأثير الضوء والحرارة. أرى من خلف الزجاج حريقاً يشبّ ولا شيء يحترق. ثمة رجال يقصمون ظهورهم، ورجال ينسفون أدمغتهم كي يبتكروا آلة سوف يتمكن صبي صغير من استخدامها لاحقاً. ليتني أجدُ الطفل المفترض أنه سيُشغِّل تلك الآلة وسأضع مطرقة بين يديه وأقول له : حطِّمْها ! حطِّمها !

حطِّمْها ! حطِّمْها ! هذا كل ما في وسعي أنْ أقول. العجوز يتجول في عربة خيل مكشوفة. إني أحسد ابن الحرام هذا على هدوء أعصابه. إلى جانبه صديق حميم وربع كمية من شراب الجودار تحت حِزامه. أصابع قدميّ تتقرَّح من الخبث. لا تزال أمامي عشرون عاماً وهذا الشيء لا يفتأ يزداد سوءاً كل ساعة. إنه يخنقني. في غضون عشرين عاماً لن يبقى هناك رجال رقيقون أحياء ينتظرون ليحيوني. كل صديق حميم موجود حالياً هو ثورُ ضائع وإلى الأبد. إنني مُحاصَر بسورٍ من الفولاذ

والإسمنت. والرصيف يزداد صلابة على صلابة. العالم الجديد ينهشني من الداخل، يُصادرني. وقريباً لن أحتاج حتى إلى اسم.

ذات مرة ظننتُ أنَّ هناك أشياء رائعة يُخبّئها لي القَدَر ؛ ظننتُ أنني أستطيع أنْ أبني عالماً في الهواء، قلعة من الندف الأبيض النقي يرفعني فوق أعلى بناء، بين الماديّ والروحيّ، يضعني في فضاءٍ رحبٍ كالموسيقى، حيث ينهار كل شيء ويندثر ولكن هناك سأكون منيعاً، عظيماً ؛ شبه إله، أقدس القديسين. كنتُ ***أنا*** الذي يتخيَّل ذلك، أنا ابن الخيّاط ! أنا الذي وُلِدَ من بلوطة صغيرة فوق شجرة كثيفة قوية وفي تجويف كل بلوطة تصلني حتى أوهى رعشات الأرض : كنتُ جزءاً من الشجرة العظيمة، جزءاً من الماضي، ذا بأسٍ ونَسَب، وكبرياء، ***كبرياء***. وعندما سقطتُ على الأرض ودُفِنت هناك. تذكَّرتُ ***مَنْ*** أنا ***ومِنْ أين*** أتيت والآن أنا ضائع، ***ضائع***. أتسمع ؟ ألا تسمع ؛ إنني أعوي وأصرخ - ألا تسمعني ؟ أطفئ الأنوار ! أكسر اللمبات ! والآن ألا تسمعني ؟ أتقول : ***بصوتٍ أعلى ! أعلى*** من هذا ؟ يا للمسيح، أتتسلّى بي ؟ أأنتَ أطرش وأخرس وأعمى ؟ هل يجب أنْ أمزِّق ملابسي ؟ هل أرقص وأنا أقف على قمة رأسي ؟

حسن، إذن ! ها أنا أرقصُ لك ! لفّة جميلة، أيها الأخوة، دعوها تدور، وتدور، وتدور ! انزعوا سروالاً آخر ما دام في استطاعتكم ذلك. لا تنسوا يا شباب، إنني أحسِنُ ارتداء ملابسي. أتسمعون ؟ دعوها على سجيَّتها ! ***فلنكُنْ دائماً مرحين ومُشرقين*** !

جابرفورك كرونستات

هذا الرجل، هذا العقل، هذه الموسيقى...

إنه يُقيمُ في خلفية حديقة غائرة، وهي أشبه بفُسحة من الأجمات وتُظللها أعمدة عربات وسبينوزات[٣٦]، ونبات الأرز الهندي وشجرالباوباب الضخم، وبما يُشبه نسخة مُثيرة للغثيان من موسيقى بوكستهوده[٣٧] مُجلّلة بحشرات الجُنيح الغِمدي والفلوكات[٣٨]. وتمرّ عبر كشك يجلس فيه البواب ويبرم شاربه con furioso (بغضب) كما يحدث في الفصل الأخير من رواية لأويدا[٣٩] Ouida. كانوا يقطنون في الطابق الثالث خلف مبنى مُعمّد ومزركش بكلاب مشكومة وأكياس دهنية، وسندات جمركية وأسماك مفلطحة مُعلّقة في الخارج لتجفّ. وفوق جرس الباب عبارة تقول: ***جابرفورل كرونستات***، موسيقي شاعر، واختصاصي في الأعشاب، ومُتنبّئ بأحوال الطقس، ولُغوي، وعالِم بالمحيطات، والثياب العتيقة، والمواد الغروية. وتحت هذا كتبَ ما يلي : " امسك قدميك وتمخّط ! " وتحت هذه هناك ورديّة[٤٠] أُخِذَتْ من بذلة مُستعملة.

---

٣٦ – سبينوزات : جمع اسبينوزا (١٦٣٢ – ١٦٧٧) : فيلسوف

٣٧ – ديتريش بوكستهوده (١٦٣٧ – ١٧٠٧) : موسيقي ألماني وعازف كبير على آلة الأرغن . كان أستاذ الموسيقار يوهان سيباستيان باخ

٣٨ – فلوكات : جمع فلوكة : سفينة شراعية ضيقة وسريعة

٣٩ – أويدا : الاسم المستعار للروائية ماري لويز دو لا راميه (١٨٣٩ – ١٩٠٨) ، ولقبها مُستمَد من اللفظ الطفولي لاسم لويز . ألّفَتْ خمساً وأربعين رواية ، وتحتوي كل عناصر المغامرة والتشويق اللذين تميَّز بهما فن القصة في عصرها ، على الرغم مما تحتوية من أخطاء في المعلومات .

٤٠ – ورديّة : حلية على شكل وردة

قلتُ لمرافقتي التي اسمها دشيلي زيلا بيه " ثمة شيء غريب يلفُّ هذا كله. لا بد أنَّ النوبة قد عاودته "

بعد أنْ ضغطنا زر الجرس سمعنا صوت طفل وليد يبكي، عويلاً صارّاً، ثاقباً، أشبه بنهاية حلم تاجر خيول.

أخيراً جاءت كاتيا إلى الباب - وكاتيا من هسكاسل - تقفُ خلفها الصغيرة بينوكيني، النحيلة كالرقاقة وتحملُ دمية من الفخّار. وتقول بينوكيني: "يجب أنْ تدخلا إلى غرفة الجلوس، إنهما لم يرتديا ملابسهما بعد". وحين سألتُ إنْ كانا سيتأخران كثيراً لأننا جائعان قالت " أوه كلا! إنهما يرتديان ملابسهما منذ ساعات. سوف تقرأ القصيدة الجديدة التي ألّفها والدي اليوم - إنها على رف المدفأة "

وبينما دشيلي تخلع وشاحها المفرط الطول أخذت بينوكيني تقهقه وتقهقه، قائلةً، أوه، يا إلهي، ماذا دهى العالم، إنَّ كل شيء يحدث متأخراً عن وقته وهل قرأتَ عن الفتاة الصغيرة الكسول التي تُخبّئ عيدان تخليل أسنانها تحت الفراش ؟ أمر غريب جداً، لقد قرأها والدي على مسمعي من كتابٍ كبير من الحديد.

ليس هناك قصيدة على رف المدفأة، بل أشياء أخرى - كتاب "***تشريح الكآبة***"، وزجاجة "برنو في" فارغة، وكتاب "***بحر حجر الأوبال***" وشريحة من التبغ المضغوط، ودبابيس شعر، ودليل أسماء الشوارع، وآلة أوكارينا[٤١]... وآلة للف السجائر، وتحت الآلة كُتِبَتْ ملاحظات على لوائح الطعام، وبطاقات الزيارة، وورق مرحاض، وعلب كبريت... " قابِلْ الكونتيسة كاتكارت في الرابعة "... " مُخاط ميشليه البرّاق "...

٤١ - أوكارينا : من آلات النفخ

"سوائل مُخاطية... فَلَقات... سلّي"... "إذا وقع يوم عيد العنصرة في حضن يوم عيد السيدة، فحذِّر إنكلترا العجوز من الصفعة"... "مِن مُهلهِ نهضَ خليفته"... "أيل الرنة، القضاعة، الـ marmink، الـ mink-frog"

البيانو قائم عند الركن قرب مبنى البلفيدير، صندوق أسود هش مع شمعدان فضي ؛ ومفاتيح البيانو السوداء قَضَمَتها الكلاب. وهناك ألبومات لبيتهوفن، وباخ، وليسْت، وشوبان، مملوءة بفواتير، وبطلاء الأظافر، وأحجار شطرنج، وكِلّة ونرد. وحين يكون في مزاجٍ رائق يفتح كرونستات ألبوماً عليه اسم " غويا " ويعزف مقطوعة لك على مقام دو. وفي إمكانه أنْ يعزف أوبرات، ومقطوعات مينيويت، وشوتيش، وروندو، والسارابند، والبريلود، والفوغ، والفالس، والمارش العسكري ؛ يستطيع أنْ يعزف لتشيرني، وبروكوفييف أو غرانادوس، بل يستطيع أن يرتجل ويُصفّر لحناً بروفنسالياً في وقتٍ واحد. ***ولكن لابد أنْ يكون على مقام دو.***

لا يهم عدد المفاتيح السوداء المفقودة أو ما إذا كانت الكلاب تتوالد أم لا. فإذا تعطّل الجرس، أو انسدَّ المرحاض، أو لم تُكتَب القصيدة، أو سقط الشمعدان، أو لم يُدفَع الإيجار، أو انقطعت المياه، أو سكرت الخادمات، أو انسدَّت المغسلة وتعفَّنت الزبالة، أو سقطت قشرة الرأس وصرَّ السرير، أو تعفَّنت الأزهار، أو تغيَّر لون الحليب، أو كسا الشحمُ المغسلةَ أو بهتَ لون ورقِ الجدران، أو كانت الأخبار بائتة وفشلت الكوارث، أو كانت الأنفاس كريهة أو الأيدي دبقة، أو لم يذُب الثلج، أو أنَّ الدوّاسات لم تدُر، فالأمر سواء ويأتي عيد الميلاد لأنَّ كل شيء يُعزَف على مقام دو إذا تعوَّدتَ على النظر إلى العالم بهذه الطريقة.

فجأة يُفتَح الباب ليسمح بدخول وحش هائل مُصاب بالصَرَع له شاربان على شكل فطر. إنه جوكاثا القط الجائع، وهو بهيمة ضخمة فتيّة ذات فراء أغبر داكن وجوزتين سوداوين مُستترتين تحت ذيله المستقيم. ويجري في كل مكان كلُبؤة، وهو يرفع قائمته الخلفية ككلب، ويتبولّ كبوم.

يقول جابرفورل من خلال إطار الباب " سأعود بعد دقيقة ؛ أنا بملابسي الداخلية "

والآن تأتي إلزا - إلزا من بادن نوهايم - وتضع صينية عليها كؤوس حمراء بلون الدم فوق رف المدفأة. ويثب الوحش ويتثاءب ويضرب مخالبه ويموء بشدة : لقد وصلتْ بضعة حُبيبات من بهار الكين إلى أنفه الرقيق الذي يُشبه ورقة النيلوفر الطافية، والجزء الغليظ من أنفه الرقيق يشبه رصاص دمدم. إنه يضرب مخالبه في كل مكان بنوبات غضبٍ سياميةٍ عظيمة وعِظامِ ذيله أدقّ من أدقّ أنواع السردين. ينتف السجادة بمخالبه ويمضغ ورق الجدران، ويدور بحركة لولبية ويتمدَّد كالتويج، وهو يُخلّص ذيله من العُقَد بخِفَّة، وينفضُ الفطور عن شاربيه، ويعضُّ جيداً مُخترقاً الأرض إلى صُلَب القصيدة. إنه في مقام دو ومجنون جنوناً مُطبِقاً. عيناه حمراوان بلون الأرجوان كأنهما زراّ بذلة من النمط العتيق؛ وأجرد، وأسمر اللون كزهرة الغطاس وأيضاً أخضر بلون نهر النيل؛ عصبيٌ ونفور وحسّاس وسريع الانزعاج ؛ ويمضغ أردية الكهّان الرسمية.

ثم تدخل آنّا - آنّا التي تقطن في هانوفر ميندن - وتحضر معها كونياك، وفلفل أحمر وعشبة الإفسنتين وزجاجة من صلصة الوروسسترشير. ومع آنّا تأتي قطط المعبد الصغيرة - لاهور وميسور

وكونبور. كلهم من الذكور، حتى أمّهم. يتدحرجون على الأرض بهياكلهم الضئيلة، يلوطُ بعضهم بعضاً بلا رحمة. والآن يظهر الشاعر بشحمه ولحمه وهو يسأل عن الوقت على الرغم من أنَّه كان قد أسقطَ كلمة وقت من حسبانه. فالوقت هو نسيب الموت. والموت هو اللفظ الأصمّ والوقت هو النسيب والآن لم يعُد هناك وقت بين الفصول، هو سمنٌ صناعي يمزج فيه الرجل المستقيم شراباً ليجعل عضلات بطنه تنتفض. ويقول، الوقت، الوقت، وهو يمزج قليلٌ من فلفل الكين بهزّهِ في الكونياك. هناك وقتٌ لكل شيء، على الرغم من أني لم أعُدْ أستخدم هذه الكلمة على الإطلاق، يقول ذلك وهو يتفحَّص ذيل لاهور الذي تشكَّلَتْ فيه فَتلة ويُضيف قائلاً وهو يهرش عصعصه الأخير إنَّ المرحاض طُليَ باللون الفضي ويمكنكَ أنْ تجد نسخة من صحيفة Humanite.

ويقول لدتشيلي زيلا بيه : " أنتِ جميلة جداً "، ومع هذه الجملة يُفتَح الباب من جديد وتندفع جيل داخلة مرتدية شالاً بلونِ نهر النيل الأخضر. ويقول جاب " ألا تعتقدين أنها جميلة ؟ "

كل شيء صار جميلاً فجأةً حتى هذا الجوكاثا الضخم اللوّاط المتوحش بجوزتيه السمراوين بلون القرفة والناعمتين كالأشنة.

انفُخْ محارة الأذن ودغدغ الترقوة ! بطنُ جاب يؤلمه حيث يجب أنْ يؤلم زوجته. وهذا الألم ينتابه مرةً في كل شهر، بانتظام مع كل قمر ويجعله ينطرح متوعكاً، ولا تفيده المراهم في شيء. ويكفي الكونياك مع الفلفل الأحمر - حتى تبدأ عضلات بطنه بالانتفاض. ويقول " سأعطيك ثلاث كلمات بينما أقلّب الإوزة في المقلاة : " نزويّ، استسقائيّ، سِلّيّ "

يقول جيل " لِمَ لا تجلس ؟ لقد جاءته الدورة الشهرية "

كونبور مستلقٍ على ألبوم ٢٤ بريلود. ويقول : " سأعزف لكم واحدة سريعة "، ويرفع غطاء الصندوق الأسود ويبدأ ***بلينك، بلينك، بلينك !*** " سأعزف الاهتزازة " ويستخدمُ كل إصبع من أصابع يده اليُمنى في تتابعٍ سريع بضرب المفتاح الأبيض دو في منتصف اللوحة وأحجار الشطرنج ومجموعة طلاء الأظافر والفواتير غير المُسدَّدة تقرقع كلعبة الأقراص والكأس[٤٢] سَكرى. ويقول ووعيناه غلوكوز ويُحيطُ بهما إطارٌ من الندى المتجمِّد ؟ " هذه تقنية ! لا يوجد إلا شيء واحد ينتقل بسرعة الضوء وهو الملائكة. الملائكة فقط يستطيعون الانتقال بسرعة الضوء. الوصول إلى كوكب أورانوس يستغرقُ ألف سنة ضوئية ولكن لم يحدث أنْ وصل أحد إلى هناك ولن يصل إليه أحد. هاك صحيفةً من أميركا. هل سبق لك أنْ لاحظتَ كيف يقرأ المرء صحيفة يوم الأحد ؟ أولاً الطبعة الروتوغرافية rotagravure، ثم الصفحة الفكاهية، ثم الأعمدة الرياضية، فالمجلة، ثم أخبار المسرح، ومراجعة الكتب، والعناوين الرئيسية. تلخيص. تطوُّر الكائن الفرد-التطور النوعي. حدِّد عباراتك ولن تضطر إلى استخدام كلمات مثل وقت، موت، عالم، روح. في كل تصريح هناك خطأ صغير والخطأ يكبر ويكبر إلى أنْ تُسحَق الحيّة. القصيدة هي الشيء الوحيد المعصوم عن الخطأ، شريطة أنْ تعرف ما هو الوقت. القصيدة نسيجٌ يغزله الشاعرُ من جسده طِبقاً لحسابات لوغاريتميّة لنبوءته. وهي دائماً صحيحة، لأنَّ الشاعر يبدأ من المركز ويعمل منطلقاً للخارج... "

الهاتف يرنّ.

---

٤٢ – لعبة الأقراص والكأس : لعبة قِوامها قذف أقراص صغيرة ملوَّنة بحيث تستقرَ في كأس .

" فيثاغوروس كان على حق... ونيوتن كان على حق... وأينشتاين على حق... "

تقول جيل " أجِبْ على الهاتف، من فضلك ! "

" ***ألو*** ! نعم، أنا المسيو كرونستات. Et votre nom, s'il vous plait ؟ ***بيمبرغ*** ؟ اسمع، هل تتكلم الإنكليزية ؟ وأنا أيضاً... ***ماذا*** ؟ نعم، لدي ثلاث شُقق - للبيع أو للشراء. ***ماذا*** ؟ نعم، هناك حمام ومطبخ ومرحاض أيضاً... كلا، مرحاض عادي. كلا، في الصالة - في الشقة. النوع الذي تجلس عليه. أتحبه باللون الفضي أم الذهبي ؟ ***ماذا*** ؟ كلا، المرحاض ! لديَّ رجلٌ هنا من ميونيخ، لاجئ. ***لاجئ ! هتلر ! هتلر*** ! Compris ؟ نعم، بالضبط. إنه يضع علامة الصليب المعقوف على صدره، باللون الأزرق... ماذا ؟ كلا، أنا جادّ. هل أنتَ جادّ ؟ ***ماذا*** ؟ اسمع، إذا كنتَ تريد العمل فهذا يعني الدفع نقداً... ***نقداً*** ! عليك أنْ تدفع نقداً. ***ماذا*** ؟ حسن، هذه هي طريقة العمل هنا. الفرنسيون لا يثقون بالشيكات. في الأسبوع الفائت جاءني رجل، وحاولَ أن يبتزّ مني ٧٥٠ فرنكاً. نعم، بشيك أميركي. ***ماذا*** ؟ إذا لم تعجبك هذه لدي لكَ أخرى مع مصعد صغير[٤٣]. إنه مُعطَّل الآن ولكن يمكن إصلاحه. ***ماذا*** ؟ أوه، حوالي ألف فرنك. هناك قاعة للعب البلياردو في الطابق العُلوي... ***ماذا*** ؟ كلا... كلا... كلا. ليس لدينا مثل هذه الأشياء هنا. اسمع، يا سيد بيمبرغ، عليك أنْ تدرك أنكَ في فرنسا الآن. نعم، بالضبط... حسن في روما... اسمع، اتصلْ بي في صباح الغد، ما رأيك ؟ إنني على مائدة الطعام الآن. الطعام. أنا آكل. ***ماذا*** ؟ نعم، نقداً... باي ! "

---

٤٣ - مصعد صغير : من أجل نقل أطباق الطعام من طابق إلى آخر

يقول، وهو يُعيد سماعة الهاتف إلى مكانها، " كما ترى، نُدير الأمور في المنزل. عملنا سريع. ماذا ؟ العقارات. أنتم تعيشون في أرض الأحلام. تعتقدون أنَّ الأدب هو كل شيء. إنكم ***تأكلون*** أدباً. أما في هذا المنزل فنأكل إوزاً، على سبيل المثال. نعم، لقد تمَّ الأمر الآن. ***آنّا*** ! Wie geht es ؟ (كيف الحال ؟) Nicht fertig ؟ (ألست مستعدة ؟) Merde alors! ثلاث فتيات... لاجئات. لا أدري من أين يأتين. أحدهم أعطاهن عنواننا. فتيات رائعات. صحيحات، ودودات، وممتلئات جذّابات، لذيذات كحبات التوت. لا مكان لهنَّ في ألمانيا. إنَّ أينشتاين مشغول في كتابة قصائد عن الضوء. هؤلاء الفتيات يطلبن عملاً، ومكاناً للإقامة. هل تعرف أحداً بحاجة إلى خادمة ؟ إنهن فتيات رائعات. ومثقفات. ولكن صُنع وجبة واحدة يستلزم وجود الثلاث معاً. كاتيا هي الأفضل ؛ فهي تُحسِن كيّ الملابس. ***وهذه***، آنّا - استعارت آلتي الكاتبة بالأمس... قالت إنها تريد أنْ تكتب قصيدة. إنني لا أحتفظ بكِ هنا لتكتبي قصيدة. هذا ما قلته لها. في هذا المنزل أنا الذي يكتب القصائد - إلا إذا كان هناك ما يستحق الكتابة. بدت عنيدة. قلتُ لها، اسمعي يا آنا ،أنتِ تعيشين عالماً من نسج خيالك. لم يعُد العالم بحاجة إلى قصائد ؛ العالم بحاجة إلى خبز وزبد. هل يمكنكِ أنْ تزيدي كمية الخبز والزبد ؟ هذا ما يحتاجه العالم. تعلَّمي الفرنسية وستتمكنين من مساعدتي في مجال العقارات. أيوه، الناس بحاجة إلى أماكن يعيشون فيها. شيء مضحك. ولكن هذا هو وضع العالم الآن. وهكذا كان دائماً، إلا أنَّ الناس لم يؤمنوا بهذا أبداً. لقد صُنِعَ العالم من أجل المستقبل... من أجل كوكب أورانوس. ولن تُتاح الفرصة لأيٍ كان زيارة كوكب

أورانوس، لكنَّ هذا لا يهمّ أبداً ؛ فعلى الناس أنْ يسكنوا الأماكن ويأكلوا الخبزَ والزبد. إكراماً للمستقبل. وهكذا كان الحال في الماضي. وهكذا سيبقى الحال في المستقبل. الحاضر ؟ الحاضر لا وجود له. هناك كلمة اسمها الزمن، ولكن الكلّ عاجز عن تحديد معناها. هناك ماضٍ وهناك مستقبل، والزمن يمرُّ بهما كتيار كهربائي. الحاضر حالة مُتخيَّلة، حالة حلم... حالة من التناقُض an oxymoron. ولديَّ كلمة أقدمها لك - كهدية . سأكتبُ قصيدة عنها. أنا مشغولٌ الآن... أعمال العقارات تضغط عليّ. يجب أنْ آكل إوزة مع صلصة التوت البري... اسمعي يا جيل، ماذا كانت تلك الكلمة التي كنت أبحثُ عنها البارحة ؟ "

تقول جيل على الفور " أهي Omoplate ؟ " (عظمة الكتف)

" كلا، ليس هذه. أومو... أومو.. "

" أهي Omaphalos ؟ "

" كلا، كلا، أومو... أومو...

وتهتف جيل " تذكَّرتها ؛ إنها omophogia!" (أكل اللحم النيئ)

" هذه هي، Omophogia! هل تحبين هذه الكلمة؟ خذيها معك! ماذا حدث؟ أنتِ لا تشربين يا جيل، أين خلاّط الكوكتيل ذلك الذي وجدته بالأمس على المصعد الصغير؟ هل تتذكّرينه - إنه خلاّط كوكتيل! على أي حال، أنتم الناس تعتقدون أنَّ الأدب شيء ضروري بصورة حيوية؛ إنه ليس كذلك ؛ إنه مجرد أدب. كان يمكنني أنْ أصنع أدباً أيضاً - لو لم يكن عليّ أنْ أُطعِم أولائي اللاجئات. أتريد أنْ تعرف ما هو الحاضر؟ انظر من النافذة. كلا، ليس هناك... بل التي فوق. ***هناك*** ! إنهنَّ يجلسن هناك في كل يوم ويلعبن الورق - فقط هما الاثنتان. إنها دائماً ترتدي

ثوباً أحمر وهو دائماً يخلط الورق. ***هذا هو الحاضر***. وإذا أضفتَ كلمة أخرى تصبح صيغة شرطيّة... "

تقول جيل " يا إلهي، سأرى ماذا تفعل تلك الفتيات "

" كلا، لا تفعلي ! هذا ما ينتظرنه - إنّهن ينتظرنكِ لتذهبي إليهن لتساعديهن. يجب أنْ يعلمن أنَّ هذا عالمٌ حقيقي. أريدهن أنْ يفهمن هذا. وبعد ذلك سأجد لهنّ أعمالاً. لدي الكثير من الوظائف. ولكن سأدعهنّ يُحضِّرن لي وجبة طعام "

" تقول إلزا إنَّ كل شيء جاهز. هيا، فلندخل "

"آنّا، آنّا، اجلبي تلك الزجاجات إلى الداخل وضَعيها على الطاولة!"

تنظر آنّا إلى جابرفورل ببلاهة.

" ها هي ! إنهنَّ لم يتعلمن حتى التكلُّم بالإنكليزية. ماذا سأعمل بهنَّ ؟ آنّا... hier ! 'Raus mit 'em ! Versteht ? وصُبّي لنفسكِ كأساً، أيتها الحمقاء المذعورة "

غرفة الطعام مُضاءة بنورٍ خافت. هناك شمعدان على الطاولة وطقم من الفضيات. وبينما نحن جالسون يرنّ جرس الهاتف. تجمع آنّا أطراف الشريط القيطاني وتنقل الجهاز من البيانو إلى الطاولة الجانبية الموجودة خلف كرونستات مباشرةً. يترك الأطراف القيطانية تسقط وهو يهتف : " ألو ! إنها أشبه بالأمعاء... ألو ! وي ! وي ! مدام... أنا السيد كرونستات... وما اسمكِ من فضلك ؟ نعم، يوجد صالون، وطابق مسروق، ومطبخ، وغرفتان للنوم، وحمّام، ومرحاض... وي، مدام، كلا، ليس غالياً، ليس غالياً أبداً... يمكن تنظيفه بسهولة... كما تريدين مدام... في أي ساعة ؟ نعم... بكل سرور... ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ آه

كـلا ! على العكس ! إنه لمن دواعي سـروري... سـرور عـظيم. أورفـوار مـدام ! " ويـخـبط سـمـاعـة الهـاتف - " Kuss die Hand (أقـبِّل يدك)، مـدام. هل تريدين أنْ تهـرشي ظهـركِ، مـدام ! هل تريدين حليـبـاً مع قهوتك، مدام ؟ هل تريدين... ؟ "

تقـول جيـل " اسمع، مَنْ كـانت تلك بـحق الجحيم ؟ كنتَ فـائق الرقّـة مـعـهـا... ! وي مـدام، نو مـدام ! هل دَعَـتكَ لتناول شـراب أيضـاً ؟ " واستدارت إلينا - " تصوَّروا أنه بالأمس كان بصحبة إحدى الممثلات هنا بينما كنتُ أستحمّ... إحدى مومسات كازينو باريس... ثم أَخَذَته معها وأسْكَرَته... "

" أنتِ لم تروِ ما حدث كما ينبغي، يا جيل. إنه كما يلي... كنتُ أُريها شقّة رائعة مع مصعد صغير - وتقول لي هل تريد أنْ تُسمِعني شِعرَك - Poesie... لفظُها أفضل بالفرنسية... وهكذا أحضرتها إلى هنا وقالتْ لي سأطبعها لكِ باللغة البلجيكية "

" ولماذا بالبلجيكية يا جاب ؟ "

" لأنها كانت بلجيكية - أو Belgianess. على أي حال، ماذا يهمّ نوع اللغة التي ستُطبع بها ؟ يجب أنْ يطبعها شخصٌ ما، وإلاّ فلن يقرأها أحد "

" ولكن ما الذي جعلها تقول ذلك - وبتلك السرعة ؟ "

" اسأليني أنا ! لأنَّ القصائد جيدة، في اعتقادي. وأيُ سببٍ يدفع الناس إلى طباعة القصائد ؟ "

" هراء ! "

" أترى ! إنها لا تصدّقني "

" طبعاً لا أصدّقكَ ! إذا رأيتُكَ مرةً أخرى تُحضر بريمادونات إلى هنا، أو أي من راقصات أطراف الأصابع، أو أيٍ من فنانات السيرك، أو أي شيء فرنسي ويرتدي تنانير، فستدفع الثمن في جهنم. وخاصةً إذا عرضنَ عليكَ طباعة قصائدك ! "

يقول جابرفرول وقد شحب وجهه وثار، " أنتِ قُلتها بنفسك، لذلك أنا أعمل في العقارات... هيا كُلوا، يا ناس... وأَنا أَنظر إليكم "

ويمزج مقداراً آخر من الكونياك والفلفل.

تقول جيل " أعتقد أنكَ شربت ما فيه الكفاية. يا إلهي، كم كأساً شربت اليوم ؟ "

يقول جابرفورل : " شيء مُضحك، لقد وجدتُ لها عملاً جيداً قبل لحظات - قبل أنْ تأتي مباشرةً بينما لم أستطع تدبير عمل لنفسي... "

تقول جيل " يا إلهي، أين تلك الإوزة ! عن إذنك، سأدخل لأرى ماذا تفعل تلك الفتيات "

ويقول جاب مرتاحاً بظهره على المقعد، " لا تذهبي ! سنبقى هنا جالسين وننتظر... ننتظر ماذا سيحدث : أخشى أنَّ الإوزة لن تأتي أبداً. سنبقى هنا ننتظر... ننتظر إلى الأبد... على أي حال، مع الشموع وصحون الحِساء الفارغة والستائر و... أستطيع أنْ أتصوَّر حالنا جالسين هنا وفي الخَارج شخص يكسو الجدران بورقٍ لاصق من حولنا... إننا هنا ننتظر إلزا لتُحضِر الإوزة ويمرُّ الوقت ويهبط الظلام ونحن على جلستنا تلك أياماً وأياماً... أترون تلك الشموع ؟ سنأكلها. وتلك الأزهار التي هناك ؟ سنأكلها أيضاً. وسنأكل الكراسي، والبوفيه، وساعة المنبّه، والقطط، والستائر، والفواتير والفضّيات وأوراق الجدران وعثّ

الملابس... سنأكل روثنا وذلك الجنين الجميل الجديد الذي تحمله جيل في أحشائها... وسنأكل بعضنا بعضاً... "

في تلك اللحظة تدخل بينوكيني لتلقي تحية المساء، وهي تشمخ بما يُشبه رأسها وفي عينيها نظرة ساخرة.

وتقول جيل " ماذا بكِ هذا المساء ؟ تبدين قلقة "

وتقول الصغيرة : " أوَه، لا أعلم ماذا يجري. ثمة شيء أود سؤالك عنه... إنه شديد التعقيد. لا أعلم إنْ كنتُ أستطيع أنْ أعبِّر عما أعني "

يقول جاب " ماذا بكِ أيتها البلهاء ؟ قولي ما تريدين أمام السيدة والسيد. أنتِ تعرفينه، أليس كذلك ؟ هيا، الفظي الجوهرة ! "

بقيَتْ الصَغيرة مُنكّسة الرأس، وتنظر من طرف عينها إلى أبيها بخبث وفجأةً انفجرتْ قائلة : " أوه، ما معنى كل هذا ؟ لماذا نحن جالسون هنا ؟ أيجب أنْ يكون لدينا عالم ؟ هل هذا هو العالم الوحيد ولماذا الحال هكذا ؟ هذا ما أريد أنْ أعرفه "

إنْ كان جابرفورل كرونستات قد ذُهلَ بصورةٍ ما فهو لم يُظهِر أي بادرة، وأجاب بابتهاج وهو يلتقط كأس الكونياك بلا اكتراث مُضيفاً القليل من الفلفل : " اسمعي يا ابنتي، قبل أنْ أُجيبك عن ذلك السؤال - إنْ كنتِ *تُصرّين* على الحصول على إجابتي - عليكِ أولاً أنْ تُحدّدي عباراتك "

عندئذٍ سُمِعَ صفيرٌ ثاقب وطويل من الحديقة.

يقول كرونستات " موغلي ! قولي له أنْ يأتي "

تقول جيل " تعال "، وهي تقترب من النافذة.

لا جواب.

تقول جيل " لابد أنه قد رحل ؛ لم أعُدْ أراه "

ثم وصلنا صـوت امـرأة " Il est saoul ì completement saoul " (إنه سكران... سكران طينة)

ويهـتف كـرونسـتـات " خذيه إلى المنزل ! قـولي لهـا أنْ تأخذه إلى المنزل ! "

" Mon mari dit qu'il faut rentrer chez vous ì oui, chez vous" (قـال زوجي أنْ أُدخِله عندكم... نعم، إلى بيتكم)

وأتى صوت من الحديقة " ! Y'en a pas " (لا يوجد مكان)

ويهتف كرونستات " قُولي لها أنْ لا تُضيِّع نسختي من كتاب باوند " الأناشيد " وأنْ لا تطلبها مني مرة أخرى... ليس لدينا مُتَّسع هنا. لا يوجد مكان إلاّ للاجئين الألمان "

تقول جيل وهي عائدة إلى الطاولة : " شيء مُخزٍ "

يقول جاب : " ها أنتِ تُخطئين من جديد ؛ إنَّ هذا مفيد له كثيراً "

تقـول جـيـل " أوه، إنـه ثـمل، ولكن أيـن تلك الإوزة اللعـيـنة ؟ إلزا ! إلزا ! "

" لا عليكِ من الإوزة، يا عزيزتي ! إنها لعبة. سنبقى جالسين هنا ونقهرهم. القاعدة هي، غداً مربّى وأمس مربّى - ولا يُقال اليوم مربّى... أليس رائعاً لو يجلس الناس هكذا مثلي ومثلك وأبدأ بالانكماش شيئاً فشيئاً... إلى أنْ أصبح نقطة صغيرة، بل غاية في الصغَر... وحينئذٍ سوف تضطرين إلى أنْ تنظري إليّ من خلال عدسة مُكبِّرة ؟ سأصبحُ نقطة صغيرة على مفرش المائدة وأقول - تيمور... تي-مور، وتقولين أين هو ؟ وأقول - تيمور، لوغوديدالي، غليكوفوسفات، بيلانكو، تي - مور... أوه تيمبوس تويدل أسفل الآلة البروكشية... وتقولين... "

تقول جيل " يا إلهي، يا جاب، أنتَ سكران ! "، ويصخب جابرفورل بقصفٍ براّق، وأفلاكه البيضاوية تسخر وتسقسق.

تقول جيل، وهي تنهض لتبحث عن القبعة الأسبانية، " بعد قليل سيُصاب بالزكام "

يقول جاب " هذا صحيح. إنَّ كل ما تقوله صحيح. أنت تظنين أني شخص متناقض جداً " ثم يلتفت إليّ ويقول " اللعنة عليك، أنتَ وصيغ أفعالك المونغولية، وأفعالك المتعدية واللازمة، ألا ترى أي مخلوق دمث أنا ؟ إنكَ تتكلَّم عن الصين طِوال الوقت... هذه هي الصين، ألا تدرك ذلك ؟ هذه... هذه ماذا ؟ أعطني الكاب، يا جيل. أشعر بالبرد. هذا البرد فظيع... بردٌ أدنى من متجمد. أنتم أناسٌ دافئون، أما أنا فأكاد أتجمَّد ؛ أشعرُ بالقبعة المُثلِجة تهبط عليّ : هذه حقيقة. كل شيء يتقدَّم بصورة رائعة، والدولار يهبط، والشقق تُؤجَّر، واللاجئون وُفِّرَتْ لهم الملاجئ، والبيانو دوزنَ، والفواتير سُدِّدَتْ، الإوزة طُبِخَتْ ، وماذا ننتظر بعد ذلك ؟ ننتظر العصر الجليدي التالي ! وسيحلُّ غداً صباحاً. سوف تطلُ من النافذة وسيكون كل شيء قد تجمَّدَ تماماً. لم يبقَ مُعضلات، لا تاريخ، لا عدم. كل شيء تمّ. سوف نجلس هنا هكذا ننتظر آنّا لتُحضِر الإوزة وفجأةً ينهمر علينا الثلج حتى يغطينا. إنني أشعر بالبرد الرهيب منذ الآن ؛ كل الخبز تجمَّد، والزبد شحب لونه، والإوزة طُبِخَتْ، وأصبح لون الجدران أبيض ضارياً، وذلك الملاك الصغير، ذلك الجنين الجديد البراّق الذي تحمله جيل تحت حِزامها، سيتجمَّد بدوره وهو في الرحم، أبله آحيّ بأجنحة متجمّدة من شدة البرد وشفتيّ حلزون. حركة أو حركتان ويصبح كل شيء هادئ جامد. قُلْ شيئاً دافئاً ! ساقاي تتجمدان. يقول

هيـرودوتوس[44] إنَّ طائر العنقـاء، إبّان مـوت والده، يُحنِّط جَسَـده داخل بيضة مصنوعـة من صمغ الراتينج ومرّةً كل خمسمائة عام أو نحوها تُنقَل البويضـة المُحنّطة بصمغ الراتينج من الصحراء العربية إلى معبد الشمس في هليوبوليس. ***هل يعجبكَ هذا*** ؟ وحسب رواية بليني[45] فإنه يضع في كل مرة بيضة واحدة وعندما يشعر الطائر أنَّ نهايته قد حانت يبني عشاً من أغصان القرفة الصينية والبخور ويموت فيـه. ومن هيكل العش تولَد دودة صغـيرة تصبح عنقاء. وهكذا فـالـ bennu هو رمز للبعث. وكيف ذلك ؟ أريد شيئاً أكثر حرارة. هاك واحدة أخرى... إنَّ الذين يمشون على النار في بلغاريا يُسمّون بالـ Nistingares. وهم يرقصون على النار في اليـوم الحادي والعشرين من أيار أثناء احتفال القديسة هيلينا والقديس قسطنطين. إنهم يرقصون على جمرٍ أحمر متوهِّج حتى تزرقّ وجوههم، ومن ثم يلقون بتنبؤاتهم "

تقول جيل " لا يعجبني هذا أبداً "

يقول جاب " ولا أنا، أحبّ حكاية ديدان الروح الصغيرة التي تطير من أعشاشها لتُبعث من جديد. جيل عندها واحدة أيضاً في أحشائها... إنها تنمو وتنمو، ولا يمكن إيقافها. بالأمس كانت مجرَّد شرغوف، وغداً ستصبح كرمة تمتص العسل، وحتى الآن لا أستطيع أنْ أقول إلى ما ستؤول... لا أتنبّأ بنهايتها. إنها تموت في عشّها كل يوم وتولد في اليوم التالي. ضعْ أذنك على بطنها... وستسمع رفرفة أجنحتها.

---

٤٤ – هيرودوتوس (٤٨٥ ؟ – ٤٢٥ ؟ ق م) : مؤرخ إغريقي . صاحب " تواريخ "

٤٥ – بليني الأب (٢٣ – ٧٩ م) : كاتب لا تيني . له " التاريخ الطبيعي " ، وبليني الابن (٦٢ – ١١٤ م) : كاتب لاتيني ، له " رسائل "

وررر... وررر. وبدون مُحرِّك. إنه شيء رائع. في بطنها الملايين منها، وكلها ترفرف محمومةً تتحرّق شوقاً إلى الخروج. وررر... وررر... ولو غرزتَ إبرة إلى الداخل وثقبتَ الكيس لخرجتْ كلها وهي ترفرف... تصورَّ هذا... غيمة عظيمة من الديدان... ملايين منها... وهي من الكثافة بحيث لا نعود نرى بعضنا خلالها... هذه حقيقة ! لا حاجة إلى الكتابة عن الصين. اكتبْ عن هذا ! اكتب عما في داخلك... عن التماسُك القلِق العظيم... والأبواغ والكريات البيضاء... والـ wamroths and the holenlindens . . . إنَّ كل إنسان قصيدة. وقنديل البحر قصيدة أيضاً - أروع أنماط القصيدة. تلكزه من هنا وتلكزه من هناك، فينزلق ويتمايل ؛ إنه عصبي حاد المزاج؛ له قولون وأمعاء وهو دوديّ الشكل وكليّ الوجود. وموغلي في الحديقة يُصفّر بسبب ضخامة الإيجار، هو أيضاً قصيدة، قصيدة بأذنين كبيرتين، قصيدة برتزولرواملية لها لوغامنديدي من الغو - غو. له ديدالي عظمي دائري، وكشكشات دائرية بلون أبو الحِنّاء مفتوحة كعربات يجرها حصان. إنه يتلوّى بالوامبهورست بينما الحلزون البحري ينزلق... يرتعش عبر الوايكات الويندية وهو يورِكُ ويتاته الويرستية... موغلي... أوغلي... ويست وورست... "

وتقول جيل " إنه يفقد عقله "

يقول جاب " ها أنتِ تُخطئين من جديد ؛ لقد عثرتُ على عقلي الآن فقط، كل ما في الأمر أنه نوع يختلف عن العقول التي تتصورينها. أنتِ تظنين أنَّ القصيدة يجب أنْ تكون مُغلقة. إنك بمجرَّد أنْ تكتبي شيئاً لا يعود هناك قصيدة. القصيدة هي الحاضر الذي لا يمكن تحديده. بل يُعاش فقط. كل شيء يمكن أنْ يكون قصيدة إذا تضمَّنَ زمناً. ليس من

الضروري أنْ تستقلّي معدّية أو أنْ تذهبي إلى الصين لتكتبي قصيدة، إنَّ أروع قصيدة عشتها كانت مغسلة مطبخ. هل سبقَ وأخبرتك بهذا ؟ كان صنبوران، واحد بارد (Froid) والثاني حار (Chaud). كان فروا يعيش حياة في وسطٍ متمدد، وبواسطة خرطوم من المطاط موصول به. أما شو فكان ذكياً ومتواضعاً، يقطر طول الوقت وكأنه مُصاب بالسيلان. وفي أيام الثلاثاء والجمعة يذهب إلى الجامع حيث تُمارس عبادةُ لعلاج الصنابير المُصابة بأمراض تناسلية. وكان على فروا أنْ يقوم بجميع أعمال أيام الثلاثاء والجمعة. كان حمار شغل. وهذا كل عالمه. من ناحية أخرى، صار شو على هذا الأساس يزداد دلالاً وتَرَفاً. إذ كان عليك أنْ تقول له " لا داعي للعجلة " وإلاّ سلَخَ عنكَ جلدك. وذات يوم راحا يعملان معاً في انسجام، فروا وشو، لكنَّ ذلك كان نادرَ الحدوث. وفي أمسيات أيام السبت، عندما أغسل قدميّ في المغسلة، كنت أتفكّر في كمال العالم الذي يخضع له هذان التوأمان. ولم يكن ذلك العالم أكثر من تلك المغسلة الحديدية بصنبوريها، بلا بدايات ولا نهايات. كان شو هو ألفا (البداية) وفروا هو أوميغا (النهاية). الأبدية. التوأمان (الجوزاء) يحكمان الحياة والموت. ألفا - الساخن يتنقَّل على درجات الفهرنهايت والريومر كلها، خلال البرادة الممغنطة وذيول المذنبات، خلال مرجل مونالوا الغالي تحت ضوء قمر تيريتياري الجافّ، وأوميغا - البارد يجري عبر تيار الخليج إلى حوض بحر سرغاسو المستنقعي، يجري خلال الحيوانات الجرابية والمنخرية، خلال الحيتان الثديية والتصدعات القطبية، يغوص في أعماق عوالم الجزيرة، خلال الكاثود الميت، خلال العِظام الميتة والعفن الجاف، عبر الثمار الجرابية ومجسّات عوالم لم

تتكوَّن بعد، عوالم لم تُمَسّ، عوالم غير مرئيّة، عوالم لم تولد ومفقودة إلى الأبد. ألفا - الساخن يقطر ويقطر، وأوميغا - البارد يعملُ ويعمل. يد، أقدام، شعر، وجه، أطباق، خضروات، سمك مغسول جيداً حتى الاهتراء، يأس، ملل، حقد، حب، غيرة، جريمة... يقطر ويقطر. أنا، جابرفرول، وزوجتي جيل ومن خلفنا مناطق فوق مناطق... كلها تقفُ عند المغسلة الحديدية. بذور تسقط مع مياه الصرف : بطيخ أصفر يافع، قرع، كافيار، معكرونة، الصفراء، لعاب، بلغم. أوراق الخس، عِظام السردين، صلصة وورسترشير، بيرة تافهة، بول، تخثرات دموية، أملاح كروشن، دقيق الشوفان، تبغ المضغ، غبار، شحم، صوف، خيوط القطن، عيدان كبريت، ديدان حيّة، حبات قمح ممزقة، حليب محروق، زيت خروع، بذور الجدب تنزاح أبداً، وأبداً تعود بكميات نقيّة ذات تركيب كيميائي مُعجِز يرفض أنْ يُسمّى، أو يُصنَّف أو يُبوَّب، أو يُحلَّل، أو يُنتَزَع ويُجزّأ. تعود كما يعود فروا وشو باستمرار، كالحقيقة التي لا يمكن أنْ تُطمَس. يمكنك أنْ تتقبّلها باردة أو ساخنة، أو فاترة. يمكنك أنْ تغسل قدميك أو تغرغر حنجرتك، يمكنك أن تشطف الصابون عن عينيك أو أنْ تزيل حبيبات الرمل عن أوراق الخص، يمكنك أنْ تُحمِّم الطفلِ الوليد أو أنْ تمسح أعضاء الميت المتيبّسة، يمكنك أنْ تنقع الخبز من أجل الفريكاديلا أو أنْ تُخفِّف خمرك. أول الأشياء وآخرها، إكسير الحياة. أنا، جابرفورل، المكوَّن من الفساد والـ H_2O، من السخونة والبرودة ومن كل الأجواء المعتدلة، من الحثالة واللحاء، من أرهف المواد وأحقرها لا أضيعُ أبداً، من أعظم خطوط الاتّصال وأمتن العِظام، من الصدوع الثلجيّة وأنابيب الاختبار، من اندماج المني مع البويضة وانحلالها وانتشارها، من أنبوبٍ

مطاطيّ وصنبور نحاسيّ اللون، من كاثود ميّت والنقاعيات الملتوية، من أوراق الخس وأشعة الشمس المحفوظة في زجاجات... أنا، جابرفورل، الجالس عند المغسلة الحديدية متميَّز ثائر، لستُ أقلّ أو أكثر من قصيدة، من مقطع شِعري من الحديد، ثمرة جرابيّة تغلي، كريّة بيضاء ضائعة. المغسلة الحديدية حيث بصَقتُ حتى كدتُ ألفظُ قلبي، وغسلتُ قدمي، وحملتُ طفلي الأول، وغسلتُ لثّتي المتقرّحة، وغنّيتُ كسلحفاة الرَّق المُصفّحة بدرعٍ مُرصّع بالجواهر. وأنا لا أزال أغني حتى الآن وسأظل أغني إلى الأبد على الرغم من أنَّ مصارف المياه تنسدّ، والصنابير تصدأ، والزمن ينهمر وأنا الموجود دائماً كائنٌ في الحاضر والماضي والمستقبل. **غنِّ**، يا فروا، غنِّ أيها الفعل المتعدّي! **غنِّ** يا شو، غنِّ أيها الفعل اللازم! غنِّ يا ألفا ويا أوميغا! غنوا هللويا! صِبّي غناءك، آه أيتها المغسلة! غنوا بينما العالم يغوص... "

ومدَّدناه على السرير وهو يغني بصوتٍ عالٍ وواضح كبجعةٍ ميتة ومضروبة.

داخل حياة الليل...

كوني آيلند العقل.

الصليب يُلقي ظلّه على أسفل السرير. ثمة سلاسل توثقني إلى السرير. ورنين السلاسل جليّ والمرساة تُنزَل. فجأةً أشعرُ بيدٍ تحطُ على كتفي. أحدهم يهزّني بنشاط. أنظر إلى أعلى وإذا بعجوزٍ شمطاء بملابس قذرة ورثّة. تذهب إلى طاولة الزينة وتفتح درجاً وتُخفي فيه مسدساً.

هناك ثلاث غُرفْ، متجاورة، كشقّة قطارية[٤٦]. أنا أتمدَّد في وسط الغرفة التي تحتوي خزانة للكتب من خشب الجوز وطاولة زينة. تنزع العجوز الشمطاء ثوبها وتقفُ أمام المرآة وهي بقميص النوم. وتحملُ بيدها قطيفة البودرة وبتلك القطيفة الصغيرة تمسح تحت إبطيها، وصدرها، وفخذيها. وطوال الوقت تبكي كبلهاء. وأخيراً تقترب مني حاملةً مِرذاذاً وتبخُّ عطراً ذكي الرائحة عليّ. وألاحظ أنَّ شعرها يعجُّ بالجرذان.

أراقبُ العجوز تتنقَّلُ في أرجاء الغرفة. يبدو عليها الانتشاء. تتوقف أمام طاولة الزينة وتبدأ بفتح الأدراج وإغلاقها. واحداً إثر آخر. بحركة آليّة. ويبدو عليها أنها نسيَتْ لماذا تفعل ذلك. وتلتقط القطيفة من جديد وتُضمِّخ بها تحت إبطيها. على طاولة الزينة ساعة صغيرة فضّية اللون موصولة بقطعة طويلة من شريط أسود. ترفع قميصها وتعلّق الساعة من عنقها، فتصل حتى مُثلّث العانة. يصدر عنها تكّ ضعيف ثم يتحوَّل لونها الفضي إلى أسود.

---

٤٦ - الشقة القطارية : هي شقة في مبنى تحتوي صفاً طويلاً من الحجرات الصغيرة

في الغرفة الأخرى، وهي الصالون، يجتمع الأقارب كلهم. يجلسون على هيئة نصف دائرة، في انتظار قدومي. يجلسون جِلسة صارمة جامدة، وكأنهم مُنجَّدين كالكراسي. وبدل الثآليل وأكياس الدهن هناك شعر حصان ينمو على ذقونهم.

أقفزُ خارج السرير وأنا بقميص النومِ وأبدأ بأداء رقصة الماك كوتشي. أرقصُ وأنا في قميص النومِ، وأحمل مظلّة فوق رأسي، فيراقبونني دون أنْ يبتسموا، ليس بالمقدار الذي يجعل خدودهم تتغضّن وأمشي على يدي لأجلهم، وأتشقلب، وأضع أصابعي بين أسناني وأُطلِقُ صفيراً كالشحرور. ولا يصدر أوهى همس إعجاباً أو استنكاراً. وأخيراً أبدأ بالخوار كالثور، ثم أثبُ كمخلوقٍ أثيريّ، وأتبخترُ كطاووس، وعندما أدركُ أنه ليس لديّ ذيل أغادرُ المكان. ولا يبقَ أمامي إلا أنْ أقرأ القرآن بسرعة البرق، ومن بعده تقارير حالة الطقس، فكتاب "الإيقاع في قصيدة ***البحّار العجوز*** " وكتاب الأرقام.

وفجأةً تدخل العجوز وهي ترقص عارية تماماً، ويداها تشتعلان. وفي الحال تُحطّم مشجب المِظلّة وإذا بالهياج يسود المكان. ومن المِشجب المقلوب يتدفّق سيلٌ من أفاعي الكوبرا تزحفُ بسرعة البرق وتلتفّ وتعقد نفسها حول سيقان الطاولة، وتنقل أوعية الحِساء وتتسلّق طاولة الزينة وتنحشر في الأدراج، وتشقّ طريقها داخل اللوحات المُعلّقة على الجدار، وداخل حلقات الستائر، وخلال الحشيّات، وتلتفُّ حول نفسها داخل قبعات النساء، وطوال الوقت يصدرُ عنها هسيس كبخار الغلايات.

وألفُّ ثُعبانَين من الكوبرا حول ذراعي وأذهبُ إلى العجوز وشهوة القتل تظهر في عينيّ. وتتدفّق الكوبرات من فمها وعينيها وشعرها،

وحتى من فرجها، وذلك الهسيس المُخيف الذي يشبه صوت البخار وكأنه صادر لتوِّه من فوهة بركانٍ يغلي. في منتصف الغرفة حيث أُغلِقَ علينا انكشَفَت غابة كثيفة. ونقفُ وسط عشرة من أفاعي الكوبرا وتتفكّك أجسادنا.

أنا في غرفة غريبة، ضيقة، مُمدَّد على سريرٍ عالٍ. وهناك فتحة واسعة في جنبي؛ فتحة نظيفة دون أنْ تبدو نقطة دم واحدة. ولم أعُدْ أستطيع أنْ أعرف مَنْ أنا أو مِنْ أينَ أتيت أو كيف أتيت. الغرفة صغيرة جداً وسريري قريب من الباب. أشعرُ أنَّ شخصاً يقفُ عند عتبة الباب يراقبني. وأنا مُتيبِّس من شدة الرعب.

حين أرفعُ بصري أرى رجلاً واقفاً عند العتبة، يعتمر قبعة ديربي رمادية مائلة على جانب رأسه له شارب كثيف ويرتدي بذلة من رقعة الداما. يطلب اسمي، وعنواني ومهنتي، وماذا أفعلُ وإلى أين أنا ذاهب وهلم جرا. ويتابع أسئلته الفضولية التي لا تنتهي ولا أقدر على الإجابة عنها، أولاً لأني فقدتُ لساني، وثانياً لأني لا أتذكَّر اللغة التي أنطقُ بها. ويقول لي: " لماذا لا تتكلَّم؟ " وهو ينحني فوقي ساخراً ويرفعُ عصاه الخفيفة الروطانية[٤٧] ويخِزُ فتحة جنبي. ويكون ألمي عظيماً حتى يبدو لي أني يجب أنْ أتكلَّم حتى وإنْ لم يكن لدي لغة، حتى وإنْ لم أكن أعلمُ مَنْ أنا أو مِنْ أين أتيت. وأحاول بكلتا يديّ أنْ أباعد ما بين فكيّ، لكنَّ أسناني مشدودة إلى بعضها. وتتفتَّت ذقني كقطعة طمي جافة، تاركة عِظام فكي مكشوفة. ويقول لي " تكلَّم! " مع ابتسامة ساخرة قاسية، ويرفع عصاه ثانية ويطعن بها فتحة جنبي من جديد.

---

٤٧ – الروطان: نبات هندي متسلِّق

أتمدَّد يقظاً في الغرفة الباردة المظلمة. أصبح السرير يكاد يلمس السقف. أسمعُ هدير القطارات، جَلَبة القطارات المنتظمة الإيقاعية عبر المنصب المتجمِّد، وأنفاس القاطرة القصيرة المختنقة، وكأنَّ الهواء يتشظّى من شِدَّة البرد. في يدي أحملُ قطع الطمي الجاف التي تفتَّتَ من ذقني. وأسناني مشدودة إلى بعضها بقوة أكبر، وأتنفَّس داخل الثقوب الموجودة في جنبي. ومن نافذة الغرفة التي أتمدَّدُ فيها يمكنني أنْ أرى جسر مونتريال، ومن بين عوارض الجسر تتطاير الشرارات وتنهمرُ وتجرفها عاصفة ثلجيّة عاتية. وتتسابق القطارات عبر النهر المتجمِّد وسط حمم من النار. أرى الدكاكين الممتدة في طريق الجسر تتألَّق بالفطائر وشطائر السجق. وفجأةً أتذكَّر شيئاً ؛ أتذكَّرُ أني بينما كنتُ ذات مرة أعبر الحدود إذا بهم يسألونني ماذا لديَّ أُعلن عنه، فأجبتُ كأبله : " ***أريدُ أنْ أعلن أني خائن للجنس البشري*** ". أذكُرُ الآن بوضوح أنَّ هذا تجلّى لي بينما كنتُ أتجول على متن دراجة ألاحقُ امرأة ترتدي تنورة منتفخة : هناك مرايا تُكتنفنا من كل جانب وفوق المرايا درابزين ذات أضلاع، سلاسل متكررة من الأضلاع، واحدة إثر أخرى، منحدرة ومتداعية، مجنونة كأنها كابوس. وعن بُعد أرى جسر مونتريال وتحت الجسر طوافات الجليد التي تتسابق فوقها القطارات. أذكرُ الآن أنه عندما نظرتْ المرأة حولها بحثاً عني كانت تحمل بين كتفيها جمجمة وعلى الحاجب الخالي من اللحم كُتِبَتْ كلمة جنس، متحجّرة تشبه السحلية. رأيتُ الجفنين يتساقطان فوق عينيها ومن ثم التجويف المُعتِم الذي لا قرار له. بعد أنْ هربتُ منها حاولتُ أنْ أقرأ المكتوب على هيكل سيارة تتسابق مرَّت بقربي، لكنني لم ألمح إلا طرف نهايته ولم يكن يعني شيئاً.

أقفُ على جسر بروكلن كالمعتاد في انتظار قدوم حافلة الترولّي متهادية. وتنهضُ المدينة وسط حرارة الظهيرة كدُبٍّ قطبي هائلٍ ينفضُ عنه نباتات الوردية. الأشكال تتذبذبُ والغاز يسدُّ ما بين العوارض، وموجة الدخان والغبار تشبه التمائم. ومن قلب اصطخاب الأبنية ينهمر سيلٌ من قناديل البحر الحارة الأعضاء مُلصَقَة بعضها إلى بعض بواسطة سراويل وتنانير. ويغمرُ المدُّ واجهات الشاحنات المائلة وينشطر كأمشاطٍ زجاجية. وتحت العناوين الرئيسية الرطبة توجد أطراف الأميبا الشفافة تتزاحم متّجهة صوب ألواح الخشب المندفعة، وسيقان التنس الرائعة القوية الملفوفة بأوراق السيلوفان، عروقها البيضاء بارزة من خلال بطّتيّ الساقين والعضلات العاجيّة. المدينة تنفثُ عَرَق الساعة الخامسة. فوق قمم ناطحات السحاب تخيِّمُ كُتلُ الغيم الرقيق كأنها ريش كليوباترا. الهواء يخفقُ ثقيلاً، والوطاويط ترفرف، والإسمنت يرقّ، وسكك الحديد تتسطّح تحت وطأة حواف دواليب الحافلة العريضة. الحياة مُدوَّنة بعناوين رئيسية بعلوّ اثنيّ عشر قدماً مع النقاط والفواصل، والفواصل المنقوطة. الجسر يتأرجح فوق بحيرات الغازولين. يتدحرج البطيخ من الإمبريال فالي، وتنهمر النفايات مارّةً بهَلْ غيت ؛ أسطح السفن تهدر والطحلب ينشقّ وينشطر على مزالق المعديات، وضباب رقيق دافئ مفعم بالرطوبة يجثم فوق المدينة كأنه كأس من الشحم، والعَرَق يقطُر من بين السيقان العارية، ويسيل حول الكواحل النحيلة. وكتل مخاطيّة من الأذرع والسيقان، من الأهلّة ودوارات الطقس، من أبي الحنّاء المستدير، من الفلين والموز اللامع مع لُب الليمون الخفيف داخل بطن القشرة. الساعة الخامسة تدقّ مُخترقةً الظهيرة بسخامها وعَرَقها، والعوارض الحديدية

تُخلِّفُ مساحةً من الظل البرّاق. وتدور دواليب حافلات الترولّلي بفكوكها الحديدية، تطحن الحشود الورقيّة، تلفّها كحزمة من المنقولات.

بعد أنْ أتّخذ لي مقعداً أرى رجلاً أعرفه واقفاً على الرصيف الخلفي يمسكُ صحيفةً بيده. قبّعته القشّية مائلة إلى مؤخرة رأسه، ذراعه ترتاح على مكبح مصلح السيارات النحاسي، وخلف أذنيه تنتشر شبكةُ الكابلات كأحشاء بيانو، وقبعته القشّية تقع على مستوى واحد مع شارع تشامبرز، وترتاح كبيضةٍ مشطورةٍ شرائح فوق السبانخ الأخضر في الميناء. وأسمعُ أسنان الدولاب تنزلق على رأس إصبع قَدَم مُصلح السيارات الثخينة. الأسلاك تُهمهم، والجسر يئنُّ من فرط الاستمتاع. ثمة مقبضان مطاطيان صغيران على المقعد المقابل لي، كمفتاحَين أسودين على لوحة مفاتيح البيانو. هما بحجم ممحاة، ليسا مُستديرين كرأس عصا الخيزران. وثمة شيئان يعلم الله ما هما مطاطيان من أجل تخفيف الصدمة. وصدمة مطرقة مطاطية مكتومة الصوت تضرب على جمجمةٍ مطاطية.

الريف مهجور. لا دفء، لا استكانة، لا تقارُب، لا كثافة، لا شفافية، لا صورة كسْر، لا مخرج. إنه كصحيفة المساء تُقرأ إلى أبكمٍ أصمّ يقفُ على رفّ قبعات وفي يده سعفة من النخل المروحي. لا يوجد في أي مكان من الأرض المُحمَّصة، أي أثرٍ لليد الإنسانية، للصوت الإنساني. ليس هناك غير عناوين رئيسية مكتوبة بالطباشير يمحوها المطر. وبعد مشوارٍ قصير بالحافلة أجد نفسي في صحراءٍ مملوءةٍ بالشوك والصبّار.

وسط الصحراء غرفة حمّام فيها حصانٌ خشبي مع منشارٍ خشبي موضوع بشكلٍ مُعارِض لوضعه. وبقرب الطاولة المكسوّة بالزنك تقفُ

امرأة كنتُ أعرفها تُطلُّ من خلال شَبَك النافذة. تقفُ وسط الصحراء كصخرةٍ من الكافور. يفوح من جسدها عَبَق الحزن القويّ. تقفُ كتمثالٍ يُلوِّحُ مودّعاً. تعلوني برأسها وكتفيها. عجزاها ضخمان بشكلٍ انقضاضي يتجاوزان النِسب كلها. كل شيء صار يتجاوز النِسب كلها ـ الأيدي، الأقدام، الأفخاذ، الكواحل. إنها تمثالُ فروسيّ بلا حِصان ؛ جبلٌ من اللحم تكوَّرَ حتى أصبحَ على هيئة بيضة ماموث. ومن قاعة رقص اللحم يصدحُ جسمها مُغنّياً كالحديد. يا فتاة أحلامي أيُّ قفصٍ رائع صنعت ! أريدُ أنْ أعرف فقط أين مجثم أصابع قدمك الثلاثة المُدببة الصغيرة ؟ المجثم الذي يترنَّح رائحاً غادياً ماراً من بين القضبان النحاسية ؟ تقفين قرب النافذة، ميتة ككناري، أصابع قدميك متيبّسة ومنقارك أزرق. لكِ صورة جانبية مرسومة بخطٍ من ساطور لحم. فمكِ فوهة بركان محشوّة بأوراق الخس. هل سبقَ لي أنْ حلمتُ بأنكِ يمكن أنْ تكوني فائقة الدفء والليونة ؟ دعيني أنظرُ إلى مخالبك الجميلة التي تشبه مخالب ابن آوى، دعيني أسمعُ ضجة أنفاسك الجافة الناعبة.

ومن خلال خيوط العنكبوت أراقبُ الجداجد النبيهة، وأوراق الصبّار الشوكية الطويلة تنزّ حليباً وطباشيراً، والراكبين بحقائب السرج الفارغة، والقرابس[٤٨] الناتئة كسنامات الجِمال. إنها صحراء وطني الجرداء، رجالها عجائز كئيبون، أعمدتهم الفقرية ملتوية، وأقدامهم تنتعلُ ناخساً ومِهمازاً. وفوق أزهار الصبّار تتدلّى المدينة مقلوبة رأساً على عقب، رجالها العجائز الناحلون يُخرّشون السماوات بأحذيتهم ذات المهامز. أتشبَّث بتعرّجاتها المنتفخة : بزواياها الصخرية، بنهودها القوية

٤٨ – قرابس ؛ جمع قربوس : قسم من السرج مقوّس من قُدَّام المقعد ومن مؤخَّره . – المترجم

الدولمنية[٤٩]، بأظلاف حوافرها، وبذيلها ذي الشعر، أضمّها إليّ وسط الزَبَد الخانق للأودية الضيقة تحت سقيفات المراحيض المُغلقة المُحاطة بالرمال الذهبية بينما يمرّ الزمن، وفي موجة الحزن الطاغية يملأ الرمل عظامي ببطء.

هناك مقص كليل صدِئ على الطاولة المكسوة بالزنك بالقُرب منا. الذِراع التي ترفعها موثقة إلى جانبها. وحركة ذراعها الجامدة الواهنة تشبه صرخة النهار المكتومة الخشنة وهو يصل إلى نهايته والحبل الذي يوثقنا مُسربل بحُبيبات الرمل. ويتجمَّع العَرَق عند سالفي، يتكتَّل هناك ويُصدِر صوتاً كأنه تكّات الساعة. الساعة تتعطَّل بفعل خطوط العَرَق العصبية. ويشقُّ المقص طريقه قُدُماً بمفصلين بطيئين، وتتسابق أعصابي على طول أسنان المِشط، أشواكي المُدبَّبة تنتصب، وتتوهَّج أوردتي، هل كل أنواع الآلام بليدة وغير مُحتَمَلة كهذا ؟ وعلى حدّ المقص أشعر بحدّ النهار الكليل الصدِئ يصل إلى نهايته، بحركة الجوع الذي شبِعَ البطيئة المقيَّد، بالمساحة النظيفة والسماء المُرصّعة بالنجوم بين ذراعيّ إنسانٍ آلي.

أقفُ وسط الصحراء أنتظر القطار، وفي قلبي جرسٌ صغير زجاجي وتحت الجرس زهرة إيدلفايس بيضاء. همومي كلها زالت. حتى وأنا تحت الثلج أشعر بالإزهار الذي تُعدّه الأرض أثناء الليل.

يتملّكني، وأنا مُستلقٍ على المقعد الجلدي المُرفّه، شعور غامض بأنَّ الخط الذي أسافر على متنه هو خطٌ ألماني. أجلسُ قرب النافذة وأنا أقرأ

---

٤٩ – الدولمنية ؛ من دوامن : في الأصل تعني ضريح من أضرحة ما قبل التاريخ قِوامه حجر كبير مُسطَّح موضوع فوق عدد من الحِجارة المنصوبة . وهنا استُخدِمَت كدلالة على الصلابة . – المترجم

كتاباً، وأعي أنَّ أحدهم يقرأ عبر كتفي. إنه كتاب من تأليفي وفيه فِقرة تُحيّرني. الكلمات غير مفهومة. نترجل برهة في محطة دارمشتات من أجل تغيير القاطرات. ترتفع السقيفة الزجاجية حتى مستوى صُرّة تدعمها عوارض خشبية سوداء مُخرّمة. قسوة زجاج السقيفة تشبه كثيراً مظهر كتابي - حين يكون مفتوحاً في حجري وقد بدت منه أضلاعه. في قلبي أشعر بزهرة الإيدلفايس تزهِر.

أثناء الليل في ألمانيا، حين تتمشّى على الرصيف، تقابلُ دائماً شخصاً يشرحُ لك ما تستفسر عنه. الرؤوس المدوَّرة والرؤوس الطويلة تلتئمُ وسط سحابة من البخار وتُنزَع الدواليب كلها وتُركَّب من جديد. ويبدو رنين اللغة أكثر نفاذاً من باقي اللغات. وكأنها غذاء العقل، أساسية، مُغذّية، شهيّة ؛ أو ذرات دبِقة تنفصل وتتشتَّت ببطء، بعد انتهاء الرحلة بأشهر عديدة، كمُدخِّن ينفثُ سيلاً رائعاً من الدخان من منخريه بعد أنْ شرب كأساً من الماء. وكلمة gut (جيد) هي الباقية أكثر من غيرها. يقول أحدهم " Es war gut ! " ، فتدمدم كلمة gut في أحشائه كطائر تدرُج سمين. طبعاً لا شيء أفضل من ركوب قطار ليلاً بينما السكان كلهم نائمون ويسيل من أفواههم المفتوحة لُقَمٌ ريّانة من لغتهم غير المنطوقة. وحين ينام الجميع يزدحمُ العقل بالأحداث : يُسافر العقل على شكل حشدٍ ، كذباب الصيف الذي يمتصّه القطار طوال الطريق.

فجأةً أجد نفسي على شاطئ البحر ولا أتذكّر أنَّ القطار قد توقف. بل لا أتذكّر أنه انطلق. بل فقط ينساب على طول شاطئ المحيط كالشهاب.

كل شيء قذر، سيء، ضعيف، كالكرتون. إنه كوني آيلند[٥٠] العقل.

---

٥٠ - كوني آيلند : مدينة ملاهي شهيرة في مدينة نيويورك

أكواخ التسلية مزدحمة حتى آخرها، والأرفف ممتلئة بأواني الصيني والدُمى محشوّة بالقش وساعات المُنبّه والمِبصقات. كل دكان مُعلّق فوقه ثلاث كرات وكل لعبة تتضمّن الكرة. اليهود يتنقّلون لابسين المعاطف المطرية، واليابانيون يبتسمون ، والهواء مفعم بعبق البصل المفروم وبأزيز أقراص اللحم المقلية. بربرة، بربرة، ويطغى على ذلك كله الهسيس الثابت وهدير الكسّارين، وصفير غُدّي[٥١] طويل متواصل ينشر التهاباً رئوياً رطباً على الجهاز القذر. وخلف واجهة الشارع الكرتونية يفلح الكسّارون الليلَ بأسنانٍ فضيّة مُضيئة ؛ الأسماك الصَدَفيّة مُلقاة على ظهورها تبخُّ الأوزون من فتحاتها الشرجيّة. في الليل المحيطيّ يبدو حاجز مضمار سباق الخيل في الحقول أشبه بلحية شتائيّة. كل شيء ينزلق وينهار، كل شيء يتلألأ، يتداعى، يترنّح، يقهقه.

أين ذلك اليوم الصيفي الدافئ الذي رأيتُ فيه الأرض المفروشة بسجادة خضراء لأول مرة وهي تدور ورجال ونساء يتركون كالنمرة ؟ أين تلك الموسيقى الناعمة المُقرقرة التي سمعتُها وتنبع من جذور الأرض الريّانة ؟ أين أذهب إذا كان في كل مكان فخ أبواب وهياكل عظمية مُكشّرة، عالمٌ صار داخله خارجه وكل اللحم مسلوخ ؟ أين سألقي رأسي إذا لم يكن هناك غير دِببة ومعاطف للمطر وصفّارات مصنوعة من خشب الجوز وأضلاع مُحطّمة ؟ هل سأظل أمشي على طول هذا الشارع الكرتوني الذي لا ينتهي، هذا الكرتون الذي يمكنني أنْ أفتح فيه ثقباً بضربة واحدة، وأستطيع أنْ أطيح به بنفخة واحدة، وأضرم فيه النار بعود ثقاب ؟ لقد بات العالم متاهةً صوفيّة أنشأتها عصبةٌ من النجارين أثناء الليل. أصبح كل شيء كذباً، زيفاً، كرتوناً.

---

٥١ – غُدّي : من غُدَّة

أمشي على طول واجهة المحيط. الرمال مفروشة بأسماك إنسانية تنتظر مَنْ ينزع عنها أصدافها. وفي خضم الهدير والصَخَب يعبر أُلُهُم دون أنْ يُلاحظه أحد. الكسّارون يضربونهم، والأضواء ترشّهم، والمدّ يُغرقهم. يستلقون خلف الشارع الكرتوني في الليل العقيقي ويُصغون إلى أزيز أقراص اللحم المقلية. بربرة، بربرة. عُطاس، وأزير، كرات تتدحرج على طول القنوات الطويلة الملساء باتجاه الحُفَر الصغيرة المملوءة بالطُرَف الصغيرة، بأواني الصيني والمباصِق والمزهريات والدُمى المحشوَّة. ويمسح اليابانيون ذوو المظهر الدهني الأزهار الاصطناعية بخُرَق مُبللة، والأرمن يفرمون البصل إلى قِطع صغيرة مِجهرية، والمقدونيون يرمون أنشوطة الحبل بأذرعهم الدبسيّة. وكل رجل، وامرأة، وطفل يرتدي معطفاً للمطر مُصاب بالزائدة الأنفية، والنزلة الصدرية، وسُكّري البول، والسعال الديكي، والتهاب السحايا، وكل ما هو مُنتصب، ينزلق، يتدحرج، يسقط، يتلولب، يُقذَف، يتمايل، وينهار مصنوع من العزقات ومسامير الصمولة. إنَّ فوضى العقل هي مفتاح إنكليزي. سُلطة كرتونية مُطلَقة.

غطَّ السمك الصَدَفي في النوم، والنجوم تخبو، وكل ما صنع من الماء صار الآن يغفو في جيب الضبع الجُرابي. يبزغ الفجر كأنه سقف زجاجي عبر العالم. ويتهادى المحيط الزجاجي من أعماقه في نومٍ هادئ شفّاف.

لا الوقت ليلٌ ولا نهار ؛ إنه الفجر ينتقل بأمواجٍ قصيرةٍ مع رفرفةِ أجنحةِ طائر النورس. والأصوات التي تصلني تكون مُلطَّفة، طنّانة، مكبوتةَ، وكأنَّ كدّ الإنسان الشاقّ يُنفَّذ تحت الماء. أشعر بالمدّ ينحسر دون الخوف من أنْ يجرفني، وأسمع طرطشة الأمواج ولا أخاف الغرق. أمشي

وسط خراب العالم وأنقاضه، لكنَّ قدميّ لا تتأذيان. لا حدَّ للسماء، ولا تقسيمات في الأرض أو في البحر. ألجُ خلال بوابة التصريف والفتحة بقدمين منزلقتين زلاّقتين. لا أشمّ أيّ شيء. لا أسمع أي شيء، ولا أشعر بأي شيء. وسواء أكنتُ مُستلقياً على ظهري أو مُنبطحاً على بطني، سواء أكنتُ مُستلقياً على جنبي كالسرطان أو أتحرّك لولبياً كطائر، فكل شيء سَلِس وثابت كالنعيم.

وتُثير أنفاس بليموث البيضاء الطباشيرية العمود الفقري الجيولوجي، ويتشبَّث طرف ذَنَبَها الذي يُشبه ذنب التنين بالقارّة المُتصدّعة؛ أرضٌ سمراء بدرجة لا تُصدَّق ورجال بشعورٍ خضراء، والصورة العتيقة يُعادُ خلقُها ببياضٍ حليبيّ ناعم، واهتزاز طَرَف الذيل في سكينةٍ غير إنسانية، لا مبالاة بالأمل أو باليأس أو بالكآبة. الأرض السمراء والأكسيد الأخضر ليسا بالهواء أو بالسماء أو بالنظر أو باللمس. السلام والرصانة، السكينة النائية الخفيّة للجروف الطباشيرية، تقطُرُ سُمّاً، أنفاس الشر الناعبة، البغيضة، المُتدلّية فوق الأرض كالطَرَف المُدبَّب لذيل تنين. أشعر بالمخالب الخفيّة التي تتشبَّث بالصخور. وخُضرة الأرض الثقيلة، الغائرة، لا تشبه خُضرة العشب أو الأمل بل تشبه خضرة الشجاعة الموحلة القذرة التي لا تُقهَر. أشعر بقلنسوات الشهداء البنيّة، وشعورهم المُلبَّدة، وبراثنهم الحادة المخفيّة داخل ملابسهم الخشنة، والصوف البني لحقدهم، وضجرهم، وفراغهم. أشعر بتوقٍ هائل إلى هذه البقعة التي تقع في آخر الأرض، هذا الامتداد غير المنتظَم للأرض يشبه بتمساح يستدفئ تحت أشعة الشمس. من الجفن الثقيل، المعدوم الجنس لعينها المُغمَضة تبرز سمكة صَدَفيّة سامة، وخادعة. فمها المتثائب مفتوح

كرؤيا. وكأنَّ البحر وكل مَنْ غرِقَ فيه، وعِظامهم وآمالهم، وصروحهم الوهمية، شكَّلَتْ الملغم الأبيض المُسمّى إنكلترا.

عقلي يُفتّش عبثاً عن ذِكرى أقدم من أي ذِكرى، عن الأسطورة المحفورة على لوحٍ حجريّ مدفونٍ تحت جبل. تحت التكوين المرفوع، النوافذ ممتلئة بالفطائر وأقراص اللحم، الدرابزينات تنعطف بسرعة، الأحاسيس القديمة، الذكريات القديمة تُغيرُ عليّ من جديد. كل ما ينتمي مزوَّد بأحواض سفن، وأرصفة تحميل، وأقماع، ورافعات، ومكابس، ودواليب، وجسور، مُترابط ؛ كل أمتعة السفر والجوع تتكرَّر كآليّة عمياء. ومع اقترابي من مفترق الطرق تمتد الشوارع التي تضج بالحيوية كخريطةٍ مُرصّعة بمظلات ونبيذ يقطع بالفأس. حرارة الظهيرة تُصدِّع السطح المتوهج للخريطة. الشوارع تتشابك وتنغلق.

حيث يُعيِّن نجمٌ صدِئ حدود الماضي تنهضُ كتلة ضخمة من الأبنية المُثلّثة الشكل، والحادة الخطوط، ذات أفواه سوداء وأسنان مكسورة. وتفوح رائحة الأيدوفورم والإثير، والفورمالدهايد والأمونيا، ورائحة قصدير حديث الصُنع وقوالب الحديد الرطبة. الأبنية تتراخى، والسقوف انهارت وسُحِقَتْ. الهواء ثقيلٌ جداً، وقارصٌ وخانق، بحيث لم تعُد الأبنية قادرة على المحافظة على اعتدالها. المداخل غاصت حتى دون مستوى الشارع. هناك شيء ينقّ والجو يسوده طابع الضفادع. ضباب سامّ، رطب، يُغلّف الجوار، وكأنَّ مُستنقعاً يقع تحت الأساسات.

حين أصل إلى منزل والدي أجده واقفاً عند النافذة يحلق ذقنه، أو بالأحرى لا يحلق، بل يشحذ موساه. إنه لم يخذلني أبداً، أما الآن وأنا بحاجة إليه يُصبح أصمّاً. ألمحُ الآن الشفرة الصدئة التي يستخدمها. وفي

أوقات الصباح دائماً يقترن فنجان قهوتي مع شفرته البرّاقة، القطعة الفولاذية الألمانية البرّاقة تلامسُ جلد المِشحذ الناعم الكليل، وصوت صفعتها على الجلد يُشبه إلقاء قطعةٍ من الزبد في القهوة، والثلج متراكم على إفريز النافذة، وهو يُدثّر كلماته باللباد. الآن أصبحت الشفرة كليلة والثلج تحوّلَ إلى بقعة طين، والصقيع الماسي على زجاج النافذة يسيلُ بخطٍ لزِج رفيع يفوح بنتانة شراغف الضفادع وغاز المستنقع. ويتوسّل إلينا " أحضروا لي ديداناً كبيرة وسأحرث لكم سمكَ المنوّه "، مسكينٌ أبي البائس. وأتشبَّث بيدين فارغتين بالطاولة المكسورة.

ليلة قارصة البرد. أتمشّى ورأسي مُنكّس وتنسلُّ عاهرة مُقتربة مني وتشبك ذراعها بذراعي وتقودني إلى فندق يحمل علامة زرقاء مطليّة على الباب. وفي الغرفة الكائنة في الطابق العلوي ألقي عليها نظرةً طويلة متفحّصة. إنها شابة، رياضية البُنية، وأفضل صِفاتها أنها جاهلة؛ لا تعرف اسمَ ملكٍ واحد، بل لا تتكلّم لغتها الأصلية. وكل ما تقصّه عليها تلعقه كأنه شحمٌ حارّ. وتدهن به نفسها. إنَّ العملية كلها تشبه التدفئة، تشبه ارتداء معطفٍ من الشحم ردّاً لبرد الشتاء، كما شَرَحَته لي بلغتها البسيطة. وبعد أن تستخلص الشحم كله من نقي عِظامي تردُ الغطاء عليها ومن ثم تبدأ وبمرح مُذهل في روعته بحركاتها البهلوانية. الغرفة تشبه عش عصفور طنّان. وتتدحرج عارية كثمرة التوت وتتكوَّر كالكرة، رأسها مدسوس بين ثدييها، وذراعاها معقودان أمام مُلتقى فخذيها. تبدو كثمرة توت خضراء تكاد تنبثق منها حبة بازلاء

فجأةً أسمعها تقول بطريقتها الأميركية السخيفة : " انظر، يمكنني أنْ أفعل ***هذا***، ولكن لا أعرف ***ذاك*** ! "، في حين أنها تقوم به. ولكن

تقوم بماذا ؟ ولَوْ : تبدأ بالربت على شفتيّ فرجها، كعصفور طنّان بالضبط. لها رأس صغير فَرَويّ فيه عينان صريحتان كعينيّ كلب، كصورة الشيطان حين كان البلاطيون[٥٢] في أوج ازدهارهم. إنَّ تنافُر المشهد يسحقني. وأجلس تحت مطرقة الباب : كلما نظرتُ إلى وجهها أرى شقّاً حديدياً وخلفه رجل يضعُ قِناعاً حديدياً يغمزني. يا له من مزاج مرعب لأنه يغمز بعين عمياء، عين عمياء ممزّقة تُهدِّد بالتحوُّل إلى حالة تعتيم العدسة الكامل.

لو لم تكن ذراعاها وساقاها متشابكة معاً، ولو لم تكن ثعباناً زلِقاً مُلتفاً على نفسه متدلية من قِناع، لكان في استطاعتي أنْ أُقسِم بأنها زوجتي ألبرتا، أو إذا لم تكن زوجتي ألبرتا فزوجة أخرى، على الرغم من أني أعتقدُ أنها ألبرتا. لطالما اعتقدتُ أنها ألبرتا من شِقّها، لكنَّ كل شق أجوَدْ من الآخر حين يكون ملويّاً على شكل عقدة وقد وَضَعَتْ قِناعاً بين ساقيها وفوق كل بالوعة هناك شعرية، وفي كل قرنة توجد حبة بازلاء، وخلف كل شق يوجد رجل يضع قِناعاً حديدياً.

أجلسُ على كرسي قرب قوائم السرير الحديدية، وحمّالتا بنطلوني متدليتان ومطرقة الباب تطرقُ على جمجمتي، وأبدأ بالحلم بالنساء اللواتي أعرف. نساء تفتحن فروجهن بدقّة لكي يضع طبيب إصبعاً مطاطياً داخلهنّ ويمسح زوايا لهواتهنّ المظلمة. نساء بأغشية رقيقة إذا خُرِّشتْ بإبرة أصدرت صوتاً شبيهاً بانهمار شلالات نياغارا في مثاناتهن الهابطة. نساء يجلسن ساعات يقلبنَ فروجهن إلى الخارج ليغزوهن بإبرة

---

٥٢ – البلاطيون : أمراء إقطاعيون ذوو امتيازات مَلَكية في مقاطعتهم أيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة

رتق. نساء شاذات يُشبهن الكلاب برؤوسٍ فرويّة وهناك دائماً ساعة منبّه أو أُحجية للصور المقطوعة مُخبّأة في المكان الخطأ، وفي اللحظة الخاطئة تماماً يرنُّ المنبّه عالياً، وعندما تكون السماء ساطعة بأنوار الشموع الرومانية، والشرارات الرطبة والسرطانات وأسماك النجم، وعندئذٍ فقط ودائماً ودون وقوع أي خطأ منشارٌ مكسورٌ، سلكٌ ينقطع، ظِفرٌ في إصبع، مشدٌّ نسائي يتعفَّن بالعَرَق الكريه. نساءٌ شاذات يُشبهن الكلاب يضعن ياقات مُنشّاة، والشفاه مُدلاّة، والعيون تنتفض. راقصون شياطين من مقاطعة البلاطيين ذوي مؤخرات ضخمة والباب منفرج دائماً والمبصقة موجودة حيث ينبغي أنْ تكون علاّقة المظلة. رياضيّو السيللوز ينفجرون ككرات البنغ-بونغ حين ينطلقون خلال أنوار الغاز. نساء غريبات الأطوار - وأنا جالس دائماً على كرسي قرب قوائم سرير حديدية أصابعهن من المهارة بحيث إنَّ المطرقة دائماً تطرق على النقطة الميتة من جمجمتي وتشرخ الصمغ الذي يشدُّ الأجزاء بعضها ببعض. قحف الدماغ يشبه قطعة سجق على نافذة ينطلقُ منها بُخار.

حين أمرُّ بردهة الفندق أرى جمعاً مُلتفّاً حول البار. أدخلُ، وفجأةً أسمعُ طفلاً يزعقُ من الألم. الطفل واقف على طاولة وسط الحشد ؛ إنه فتاة وفي جانب رأسها شق. فوق صدغها تماماً. الدم يتدفَّق من صدغها. يتدفَّق - ولا أقول يجري على جانب وجهها. وكلما انفتحَ شقُّ صدغها أرى شيئاً ينشط في الداخل. يبدو كالصوص. وأراقبُ عن كثب. وهذه المرة أراه رؤيةً واضحة. إنه كوكو ! الناس يضحكون. والطفلة تعوي من شدة الألم.

وفي حجرة الانتظار أسمعُ المرضى يسعلون ويهرشون أقدامهم. أسمعُ صفحات المجلات وهي تغلق وعربة الحليب تُدمدم على أحجار

الكوبل في الخارج. زوجتي جالسة على مقعد إفرادي أبيض، ورأس الطفلة مُلقى على صدري، والجرح في صدغها يخفق، ويخفقُ كأنه نبض يضرب فوق قلبي. الطبيب الجرّاح يلبس رداءً أبيض. إنه يتمشّى جيئة وذهاباً، ينفثُ دخانه. وبين الحين والآخر يقفُ أمام النوافذ ليتفقّد حالة الطقس. وأخيراً يغسل يديه ويلبس قفّاز المطاط. ويُشعِل لَهَباً تحت الأدوات بيديه المرتديتين القفاز المُعقَّم، ثم ينظر في ساعته بذهنٍ شارد ويمسك براءة الصحّة الموجودة على الطاولة بأطراف أصابعه. الآن الطفلة تئنُ وجسمها كله يرتعشُ من شِدّة الألم. ثبَّت ذراعيها وساقيها في انتظار غليان الأدوات.

وأخيراً أصبح الجرّاح مُستعداً، فيجلس على مقعدٍ صغير وطوال الوقت ينتقي أداةً دقيقة أطرافها ساخنة حتى الاحمرار ودون أي كلمة تحذير يُقحمها داخل الجرح. تُطلِقُ الطفلة صرخة رهيبة مُروّعة حتى إنَّ زوجتي تنهار على الأرض. ويقول الطبيب الجرّاح الهادئ، الرابط الجأش " لا تركِّز انتباهك عليها " وهو يدفع جسمها بعيداً بقدمه " تشجَّع الآن ! " وبينما يغمس أداته الفظّة في المُضاد الحيوي الذي يغلي يغرز موساه في الصَدغ ويُبقيه هناك حتى ينفجر اللهب داخله. ومن ثم إذا به فجأةً، وبالسرعة الشيطانية نفسها، يسحب الأداة التي يتّصل بها، وبواسطة عينٍ صغيرة، خيطٌ طويل أبيض يتحوَّل بالتدريج إلى نسيجٍ ناعم أحمر اللون وثم إلى علكة وأيضاً إلى فُشار وأخيراً إلى نشارة خشب. وحين تتناثر آخر قطعة من النشارة إذ بالجُرح يلتئم نظيفاً متماسكاً دون أنْ يُخلِّف مكانه ولا حتى أثر ندبة. وتنظر الطفلة إليّ وعلى فمها ابتسامة هادئة ومن ثم تنزلق من حضني، وتمشي بخطى ثابتة حتى زاوية الغرفة وتجلس هناك لتلعب.

ويقول الطبيب الجرّاح " كان ذلك رائعاً، رائعاً جداً ! "

وأهتفُ " أوه، أكان حقاً، هه ؟ " وأقفزُ كالمهووس وأطيحُ به عن مقعده وأطرحه أرضاً وأغرزُ رُكبتي في صدره بقسوة وأقبضُ على أقرب أداة إليّ وأحفره بها، وأنقضُّ عليه كالشيطان. أحفرُ عينيه، وأثقبُ طبلة أذنيه وأشقُّ لسانه، وأكسر قصبته الهوائية، وأفطُسُ أنفه. أمزّق ملابسه عنه وأحرقُ صدره حتى ينبعث منه الدخان، وبينما لحمه لا يزال يدمي ويرتعش من الحديد الحامي أسلخُ الجلد الخارجي وأصبُّ فيه حامض الآزوت - إلى أنْ أسمع قلبه ورئتيه يئزّان ؛ إلى أنْ أكاد أقعُ صريعاً من الدخان المُنبعث.

في تلك الأثناء تُصفِّق الطفلة بيديها مرحاً، وأنهضُ لأبحثَ عن مطرقة خشبيّة فأرى زوجتي جالسة عند الزاوية الأخرى. ويبدو عليها كأنما شُلّتْ من فرط الرعب. ولا يصدر عنها كلام بل همس - " عفريت ! عفريت ! " وأهرعُ إلى الطابق السفلي بحثاً عن المطرقة.

وأميِّز في الظلام شكلاً يقفُ إلى جانب البيانو الصغير العاجي. المصباح يخفت إلا أنَّ الضوء المنبعث منه كافٍ ليُلقي هالة على رأس الرجل. الرجل يقرأ بصوتٍ عالٍ بصوتٍ رتيب من كتاب حديدي هائل الحجم. إنه يقرأ كحاخامٍ يُرتّلُ صلواته. رأسه مرفوعٌ عالياً في نشوة، وكأنه مفصولٌ طوال الوقت. إنه يبدو كمصباح شارع مكسور يتوهّج وسط ضباب كثيف.

وتزداد حلكة الظلام ومعها يزداد ترتيله رتابةً. وأخيراً لا أرى إلا هالةً تحيطُ برأسه وحتى هذه الهالة تختفي أيضاً وأُدركُ أنني صرتُ أعمى. كل هذا يبدو كغورٍ تنهضُ منه حياتي الماضية كلها. ليس فقط

حياتي الشخصية الماضية، بل وماضي الجنس البشري كله الذي أجتازه وأنا أمتطي ظهر سلحفاة ضخمة. إننا نسافرُ مع الأرض بخطوةِ حلزون ونصلُ إلى حدود شكلها البيضاوي وثم نترنَّح بسرعة بمنشية عجيبة، مائلة عائدين خلال جميع المنازل الفارغة في دائرة البروج. إننا نرى أشكال عالم الحيوان الغريبة الشبحيّة، السلالات الضائعة التي ارتقت إلى قمة السلَّم فقط لترمي بنفسها إلى قاع المحيط. خاصةً العصفور الناعم ذو اللون الأحمر الناري ؛ العصفور الأحمر ينطلق مُسرعاً كالسهم متّجهاً دائماً نحو الشمال، وأثناء انطلاقه شاقاً طريقه شمالاً خلال جُثث الموتى يجري في أعقابه سرب من ديدان الأرض، حشدُ متلاطم يُخفي نور الشمس.

وكارتفاع الحُجُب يرتفع الظلام ببطء وأتبيَّن الرسم الجانبي لرجلٍ يقفُ بجانب البيانو يحملُ كتاباً حديدياً ضخماً بين يديه ؛ رأسه مرفوع بشموخ والصوت المُرهَق الرتيب يرتّلُ ابتهالات الموتى. وفي غضون لحظة يبدأ بالتمشّي ذهاباً وإياباً بطريقةٍ آليّة نشطة وكأنه يتمرَّن بذهنٍ شارد. تتبعُ تحركاته إيقاعاً ذاتياً مُهتزاً تثير مشاهدته السُخط. إنه يتصرَّف كحيوان مُختبر أزيح منه جزء من العقل. وكلما اقتربَ من البيانو يوقِعُ عدَّة نغمات متآلفة بشكلٍ عشوائي - بلينك، بلانك، بلونك ! ومعها يُتمتم بشيءٍ تحت أسنانه. ويتّجه بنشاط نحو الجدار الشرقي وهو يتمتم - " نظرية التهوية " ؛ ثم يتجه نحو الجدار الغربي ويُغمغم - " نظرية الأضداد " ويسير بطريق متعرِّج نحو الشمال الغربي ويغمغم - " نظرية مُكيَّفة ورطبة " وهلم جرا. إنه يتحرَّك كمركبٍ رباعي الصواري يواجه عاصفة، ذراعاه متدليتان بارتخاء، ورأسه منحنٍ قليلاً على أحد جنبيه.

حركة ناشطة لا تكلّ تشبه حركة مكّوك يمرُّ فوق نول. وفجأةً يتكتم وهو يتوجّه شمالاً - " ز من أجل زيبرا... زب، زوت، زكريا... لاشيء يُشير إلى أنَّ b يدلُ على Bretzels"...

وأقلّب صفحات الكتاب الحديدي فأرى أنه عبارة عن مجموعة أشعار من القرون الوسطى تتحدَّث عن المومياءات، وكل قصيدة تتألَّف من وصف طريقة لمعالجة أمراض الجلد. إنه يوميات عن الوباء العظيم كتبه راهب يهودي ؛ نوع من تسجيل دقيق لتاريخ أمراض الجلد يُغنّيها المطربون الجوالون. كُتِبَ الكتاب على شكل نوتة موسيقية تمثّل جميع الوحوش التي تنذر بالشر أو لها تصرّفات مُرعبة كالخلد، والعلجوم، وعظاءة البازيليست، والأنقليس، والخنفسة، والوطواط، والسلحفاة، والفأر الأبيض. كل قصيدة تحوي تعويذة لتخليص الممسوس من الشياطين التي تغزو طبقات ما تحت الجلد.

وتتجوَّل عيني مُتنقّلة من الصفحة الموسيقية إلى مُطاردة الذئاب التي تجري خارج الأبواب. الأرض مُغطّاة بالثلوج وفي الحقل البيضاوي بالقرب من أسوار القلعة هناك فارسان مُسلّحان برمحَين طويلين يُرعبان الذئب حتى الموت. وبفضل النعمة الإلهية المعجزة والبراعة أمكنَ محاصرة الذئب في وضع الضربة القاضية. ويجتاحني شعورٌ حسّي وأنا أراقبُ لعبةَ الموت التي طالَ أمدها. وعندما يكاد الرمحُ يقذف ينضمُ الحصان إلى راكبه بمرونة مؤلمة. وبحركة واحدة متواقتة يدور الذئب والحصان والراكب حول محور الموت وعندما يطير الرمح مُخترقاً جسد الذئب تميدُ الأرضُ برفقٍ إلى أعلى، ويميلُ خط الأفق قليلاً، وتصيرُ السماء زرقاء كحدّ السكين.

أمشي بين صفَّين من الأشجار حتى أصلُ إلى الشوارع الغائصة المؤدية إلى المدينة. البيوت مُحاصَرة بمداخن طويلة سوداء تنفثُ دخاناً كبريتياً متواصلاً. وأخيراً أبلغُ المصنع الصندوقي الشكل وألمحُ من نافذته المُقعدين جالسين في صف واحد في الفناء. ليس منهم مَنْ له قدمان. وقلّةٌ منهم لهم ذراعان؛ وجوههم مُغطّاة بالسخام، وعلى صدر كلٍ منهم عُلِّقَ وسام.

وأتبيَّنُ ببطء وقد تولاّني الرعب والذهول أنَّ سيلاً متواصلاً من الأكفان يصبُّ من الأنبوب المائل المنحدر من جدار المصنع إلى الساحة. وأثناء سقوطهم يتقدَّم العامل المُشرف على ذلك ويقفُ على منبره المكسور ويبقى هناك برهة ليُعدِّل من وضع الحمل على ظهره ويمشي بخُطى متثاقلة وهو يرزح تحت ثقل كَفَنه ويستمر هكذا بلا توقُّف، بلا أقلّ انقطاع، بلا أدنى صوت. وجهي يتبخَّر عَرَقاً. أود لو أركض لكنَّ قدَميّ مزروعتان في مكانهما، وربما لم يكن لي قدمان. إنَّ رعبي عظيم حتى إني أخافُ أنْ أنظر إلى أسفل. وأتشبَّثُ بإطار النافذة وبدون أنْ أجرؤ على النظر إلى أسفل أرفعُ قدميَّ بحَذَر وخوف حتى يصبح في إمكاني لمس كاحلي بيدي وأكرِّرُ التجربة مع القَدَم الأخرى. ثم، وفي غمرة الرعب، أنظرُ حولي بسرعة بحثاً عن مخرج. الغرفة التي أقفُ فيها مزدحمة بصناديق التعبئة الفارغة، وهناك مسامير ومطارق مُبعثرة في كل مكان. أشقُ طريقي بحذر بين الصناديق الفارغة بحثاً عن الباب. وحالما أجده تتعثَّر قدمي بصندوقٍ فارغ وأنظرُ إلى أسفل لأكتشفَ أنه - ليس فارغاً! وبسرعة ألقي نظرة على بقية الصناديق، فلا أجد أياً منها فارغاً! وفي كلٍ منها هيكل عظمي مُحاط بنشارة الخشب. وأهرعُ

متنقّلاً عبر القاعات لأشمَّ فيضاً من نتانة التحنيط تنبعثُ من الأبواب المفتوحة. وأصلُ أخيراً إلى السُلَّم وأثبُ هابطاً الدَرَج لأرى يداً مطليّةً بالمينا عند المنبسَط السفلي تشيرُ إلى - مستودع الجثث.

*

الوقت ليل وأنا في طريقي إلى المنزل. طريقي يقعُ داخل حديقة بريّة كالتي كنتُ أتعثَّرُ فيها في الظلام عندما تكون عيناي مغمضتين ولا أسمع غير تنفُّس الجدران. لديّ إحساسُ بأني على جزيرة مُحاطةٍ بالخلجان الصغيرة الصخرية وبالثغور. هناك الجسور نفسها بمصابيحها الورقيّة، والمقاعد الصدئة الموزّعة على طول الممرات المُبلَّطة، وهياكل الباغودا التي يُباعُ فيها الملبّس، والـ skups البرّاقة، والمظلات الشمسية، والجروف الصخرية التي تطلُّ على الخليج والأغلفة الصينية الرقيقة التي أخفيتُ فيها المفرقعات النارية. كل شيء على ما كان عليه تماماً، حتى ضجيج الدويّخة. الفرق الوحيد هو أنَّ الوقتَ الآن شتاء. إنه منتصف الشتاء وكل الطرقات مُغطاة بالثلوج، ثلوج عميقة تكاد تسدُّ الدروب.

عند أعلى نقطة من أحد الجسور اليابانية المُنحنية أقفُ قليلاً، أميلُ على السور ألملمُ أفكاري. جميع الطرقات ممتدة بوضوح أمامي، تجري بخطوط متوازية. أشعرُ في هذه الحديقة المُشجَّرة والتي أعرفها حقّ المعرفة بأمانٍ تامّ. أستطيعُ أنْ أقف هنا على هذا الجسر إلى الأبد، واثقاً من قَدَري. وبالكاد تكون هناك أي ضرورة لمتابعة البقية الباقية من الطريق فأنا الآن أقفُ على عتبة مملكتي، كما كنت، التي يُسمّرني قُرب تحقّقها. كم أعرفُ هذا الجسر الصغير، وكتلته الخشبية، والسيل الذي يهدرُ من تحتي ! يمكنني أنْ أقفَ هنا إلى الأبد ضائعاً في أمانٍ لا حدود

له، أتهادى غارقاً في غرغرة الجدول المُهدهدة. وفوق الحجارة المُغطاة بالطُحلُب يُدوِّمُ الجدول باستمرار. جدولٌ من الثلج الذائب بطيئاً متكاسلاً غب الأعلى وسريعاً في الأسفل. تحت الجسر وضوحٌ ناصعٌ كالثلج. شديد الوضوح إلى درجة أنه يمكنني قياس عمقه بعينيّ المُجرّدة. واضحٌ كالثلج حتى العنق.

والآن، ومن قلب الغابة المجنونة بالظلام، وسط أشجار السرو والأشجار الدائمة الخُضرة، خرجَ شبحان يمسك أحدهما بيد الآخر، حركتهما بطيئة واهنة ؛ شبحان يرتديان ملابس السهرة - المرأة بثوب ذي ياقة منخفضة، والرجل بأزرار قميصه البرّاقة. ينتقلان فوق الثلج بخطوات أثيرية، قَدَما المرأة رقيقتان وجافتان، وذراعاها عاريتان. لا يُسمَع صوت تقصُّف الثلج، ولا هبوب الريح. لا يوجد إلاّ نور يومض كالحلي ونهيرات الثلج الذائب في الليل ؛ نهيرات من الثلج الناعم تنزلق تحت الأشجار الدائمة الخُضرة. لا صوت لفكٍ يُسحَق، لا عواء ذئب، بل مزيد من النهيرات في ضوء القمر المُثلِج، وهدير المياه المتدفقة البيضاء وتويجات تُراب الجسر، والجزيرة تطفو مُبتعدة بانسيابٍ مُستمر، صخورها متشابكة بواسطة خِصلٍ من الشعر، ووديانها الصغيرة وخلجانها متلألئة في سوادها وسط ومض النجوم الفضي.

ويحثّان خطاهما في السيل الشبحي، قُدُماً نحو أسفل الوادي، والمياه ذات السبلات البيضاء داخل أعماق التيار ذي النقاء الثلجي يمشيان، بظهرهما المكشوف وأزرار قميصه البرّاقة، ومن بعيد يُسمَع رنين الستائر الزجاجية الحزين وهي تصطدم بمُسننات الأرجوحة المعدنية. وينهمر الماء على شكل غلالة زجاجية رقيقة بين روابي الضفتين

الانسيابية البيضاء ؛ إنه يجري تحت مستوى الركب، حاملاً معه القَدَمين المبتورتين كقوائم مُحطّمة أمام جلمود. وتنزلقان إلى الأمام على جدعتيهما المتجمدتين، وجناحاها الواطواطيان منشوران، ورداءاهما مُلصقان بأعضائهما والماء دائماً يرتفع أعلى فأعلى والهواء يزداد برودة، والثلج يومض كغبارٍ من الماس. ومن فوق أشجار السرو ينهمر لون الأخضر الكليل المعدني، ينهمر كظل فوق الضفتين يُلطّخ أعماق التيار الثلجيّة الرقراقة. المرأة تجلس كملاك فوق نهرٍ من جليد، جناحاها منشوران، وشعرها مُنتثر إلى الخلف بتموّجات زجاجيّة متيبّسة.

وفجأةً إذا بالتيار يتسارع، كأنه زجاج لدِنٌ يُسخَّن تحت لهبٍ أزرق، حتى يُصبح كألسنةٍ من نار. وعلى طول الشارع المُضرم بالألوان يتحرك حشدٌ كثيف استوائيّ ؛ إنه شارع الأحزان المُبكِّرة حيث تتطاولُ الشُقق كعربات سكة الحديد وجميع البيوت مُطوَّقة برزّاتٍ حديدية. شارعٌ ينحدر بهدوء نحو الشمس ويتجاوزها كسهمٍ تائهٍ في الفضاء. والمكان الذي كان فيما مضى ينعطف عنده مُسبِّباً ضجّة صارّة كئيبة بأسطحه الصلبة الفخمة والجدران الفارغة الميتة أصبحَ الآن كالتحويلة المفتوحة، كالميزاب يصبُّ في مكانه، والبيوت تقعُ في صفٍ مُنتظم، والأشجار تُزهِر. لا الزمن يزعجني الآن ولا الهدف. إنني أتحرَّك داخل دندنة ذهبية خلال عصير مُركَّز من الأجسام الدافئة الكسول.

أمشي كابنٍ مُبذّر في حريةٍ ذهبية في شارع شبابي ؛ لا أنا محتار ولا خائب الأمل. تجوّلتُ عائداً بدءاً من حدود الأقاصي الستة مُتخذاً دروباً نائية صوب المحور الذي يتغيَّر عنده كل شيء ويتحوَّل. إنني حَمَلٌ دائماً يُغيِّرُ جلده. تُرى متى عويتُ من شدة الألم فوق قمم الجبال ؛ متى

اختنقتُ بالقلي في الوديان البيضاء القائظة، متى تشقَّقتْ قدماي من الصخر والأصداف وأنا أخوض في التيارات الكسولة، متى لَعَقتُ العَرَق المالح عن حقول الليمون أو استلقيتُ في أتُنٍ[٥٢] مُشتعلة لأشوى، **متى حدث هذا كله الذي لم أنْسَه أبداً ولم يعُدْ له وجود الآن** ؟

هل سَلَختُ جلدي حين قادوا في الشارع البارد الجنائزي عربة الموتى التي حيَّيتها بفرح ؟ كنتُ حَمَلاً وحوَّلوني إلى نمِرٍ مُخطَّط. وُلدتُ في دغلٍ مكشوف وأنا مُتلفَّع بغطاءٍ صوفي أبيض ناعم. بعد أنْ بقيتُ فترةً قصيرة أرعى في سلام شعرتُ بمخلبٍ يحطُّ عليّ. ووسطَ لهبِ انقضاء النهارِ الرطِب الحارّ سمعتُ صوتَ تنفُّسٍ خلف مصراعَيّ النافذة. ومررتُ بالمنازل كلها وأنا أتمشّى ببطءٍ مُصغياً إلى خفقِ الدمِ الكثيف. ومن ثم في إحدى الليالي استيقظتُ وأنا مستلقٍ على مقعدٍ قاسٍ في حديقةٍ مُتجمّدة في الجنوب. سمعتُ صفيرَ القطار الباكي، وشاهدتُ الطرقات الرملية البيضاء تلمعُ كآثار العقل.

إذا تصادفَ وتجوّلتُ في طول العالم وعرضه دون فرحٍ أو ألم فذلك لأنهم في تالاهاسي انتزعوا أحشائي. في زاويةٍ تقعُ قِبالة سورٍ مكسور وصلوا إلى داخلي بمخالبهم القذرة وبسكاكينهم القذرة بتروا كل ما يخصّني، كل ما كان مُقدّساً، خصوصياً، تابواً. في تالاهاسي انتزعوا أحشائي، وجرّوني حول المدينة وخطَّطوني كالنمر. وفي أحد الأيام رحتُ أُصفِّر بطريقتي الصحيحة. في أحد الأيام تجوَّلتُ في الشوارع أصغي إلى الدم ينبضُ في الضوء الذي يرشح من المصاريع. والآن في داخلي هديرٌ ككرنفالٍ في أوجه. جانبيَّ يتفجّران بملايين الأنغام المنبعثة من أرغنٍ

٥٢ - أتُن : جمع أتون : موقد كبير ، أو فرن

يدويّ. أمشي في شارع الأحزان المبكّرة والكرنفالٍ في أوجه. أواصلُ شقَّ طريقي وأنا أسفحُ الأنغام التي تعلّمتُها، وفسادٌ سعيد يتأرجح من رصيفٍ إلى رصيف. شلّة من اللحم البشري تتمايل كحبلٍ ثقيل.

وقُرب حدائق الكازينو المُعلّقة حيث تتمزّق الشرانق ترتقي امرأةٌ ممر الزهور على مهلٍ وتتوقف برهة لتُدرِّب كامل ثقلها الجنسي عليّ. يتمايل رأسي آلياً من طرفٍ إلى طرف، وقرعَ ناقوس أحمق في أحد الأبراج. وأثناء ابتعادها بدأ معنى كلماتها يتجلّى. قالت، ***المقبرة. هل رأيتَ ماذا فعلوا بالمقبرة*** ؟ وأمشي على مهل في معصرة الخمر الدافئة، الستائر كلها مرفوعة، والأروقة تعجُّ بالأطفال، وأظلُ أفكّر في كلماتها. أمشي بهدوء مع وهمٍ زنجيّ خفيف، عاري العُنق، ممسوح القدم، بأصابع قدم عريضة، وكيس صَفَن مشدود. وثمة عَبَق جنوبي دافئ يكتنفني، وارتياحٌ طيّب يحومُ بجناحيّ نسر.

إنَّ ما أنجزوه من أجل الشوارع يُعادلُ ما أنجزه يوسف من أجل مصر. ولكن ماذا فعلوا هم ؟ لم يعُد هناك " أنتم " أو " هم ". إنها أرض أكواز الذرة الذهبية الناضجة، أرض الهنود الحمر والرجال السود. أمّا مَنْ هم أو كانوا فلا عِلمَ لي. أعرفُ فقط أنهم استولوا على أرضٍ وجعلوها تبتسم ؛ واستولوا على المقبرة وجعلوها حقلاً خصباً يئنّ. أزيلت منها الحجارة كلها، واختفت منها أكاليل الزهور والصلبان، والآن تمتد بالقرب من بيتي رقعة داما مُثقلة بحملها تئنُ من كثرة ما عُلِفَتْ، والتربة الطفليّة غنية وسوداء، والبغال القوية الصبورة تغرزُ حوافرها النحيلة في التربة الرطبة التي يقطعها المحراث كأنها قطعة من الجبن. المقبرة كلها تغني مرحة بغلّتها الدسمة الوافرة ؛ المقبرة كلها تغني بين

سنابل القمح، وأكواز الذرة والشوفان، والجاودار، والشعير ؛ تعجُّ بأشياءَ تؤكل والبغال تهزُّ أذيالها، والرجال السود الضِخام يدندنون ويغنّون والعَرَق يسيلُ من أطرافهم.

الشارع كله يضجُّ بالحياة خارج نطاق المقبرة. هناك ما يكفي الجميع، بل ويفيض. وفائض العَلَف ينهمر كالسيل، كالغناء والرقص، والفسق والطيش. مَنْ كان يحلم أنَّ هؤلاء البهائم الموتى المساكين الغائري الصدور الذين يتعفّنون تحت البلاط الحجري ينطوون على تلك الحِكمة المُخصِبة ؟ مَنْ كان يظن أنَّ أولئك اللوثريين الناتئي العِظام، أولئك المشيخيين ذوي الأطراف النحيلة، لا زالت عظامهم مكسوّة بكل ذلك الكمّ الدسِم من اللحم، وأنَّ في استطاعتهم أَنْ يُقدّموا مثل ذلك المقدار من المحصول الرائع من التدمير، وكل تلك الحشود من الديدان ؟ وحتى نقوش الأضرحة الجافة التي نقشها الحجّارون مارست قوتها المُخصِبة. وهناك تحت سطح التربة الباردة يمارس أولئك الغيلان قوتهم ومجدهم بهدوء. لم أرَ دهري في أي بقعة من طول العالم وعرضه مقبرة مزدهرة كتلك ؛ ولا أغنى وأكثر فعالية من هذا السماد. يا شارع الأحزان المُبكّرة، إنني أضمّك بين أضلعي ! لم يعُد هناك وجوه بيضاء شاحبة، ولا أدمغة بيتهوفنيّة، ولا عِظام متقاطعة، ولا أطراف نحيلة ؛ لا أرى إلاّ الذرة وأكوازها، والقضبان الذهبية والليلك ؛ أرى المِعزقة الشائعة وفي إثرها البغل، بقوائمه المفلطحة العريضة وفلقتيّ حافريه المشقوقين وتربة الأرض الغنية الحريرية وهي تنقلب لتغطّي ما بين حافريه ؛ أرى مناديل حمراء وقمصاناً بلون أزرق فاتح وقبعات سومبريرو عريضة تلمع من العَرَق. أسمعُ الذبابَ يطنُّ بالإضافة إلى طنينِ أصواتٍ بليدة. الريح تُهمهم بلا مُبالاة، بمرحٍ

صاخب ؛ تُهمهم الريح من الحشرات وأجنحتها المُغبرّة تنشرُ غبار الطلع والفِسق. لا أسمعُ أي أجراس، ولا صفير، ولا أجراس كهربائية، ولا صرير كوابح، بل أسمعُ طرق المِعزقة وصوت ماء يقطر، وضجيج الكدّ الجحيمي الهادئ. أسمعُ القيثارة والهارمونيكا، صوتَ تَمْ تَمْ ناعم، وربتَ أقدامٍ تنتعلُ حذاءً منزلياً. أسمعُ ستائر تُسدَل ونهيق حمار غارقٍ في عَلفه.

لم تعُد هناك وجوهٌ بيضاءُ شاحبة، شكراً ليسوع ! أرى حمّالاً هندياً، والرجل الأسود، وفتاة من الهنود الحمر ؛ أرى ظِلالاً بلون الشوكولاتة والقرفة ؛ أرى زيتوناً من شواطئ المتوسط، وذهباً هاوائياً أسمر مصفرّ ؛ أرى كل ظل نقي وكل ظل متقاطع، ولكن ليس أبيض. واختفت الجمجمة والعظام المتصالبة مع شواهد القبور، وعِظام العِرقْ الأبيض البيضاء سلّمَتْ محصولها. أرى أنَّ كل ما له صِلة باسمها وذاكرتها قد اختفى، وهذا بالذات، هذا ما يُشيع فيَّ الفرح الجامح. أمّشي بلا هدف وسط طنين الحقل المكشوف المجنون مُنحدِراً نحو الأخاديد الغائرة الرطبة التي تشقّها الحوافر الرنّانة العطشى، حيث كانت الأرض ذات مرة مكسوةً بأكَمات العشب المجنون القصير ؛ وأنثرُ طَفَال الملفوف الرطيب في كل الأنحاء، والطنين المعصور تحت وطأة الدواليب، والأوراق الخضراء العريضة، والتوت البرّي المسحوق وعُصارة كعكة الزيتون. وفوق ديدان الموتى السمينة أمشي مشية التبريك وأنا أُدحرجها فوق العشب. أترنَّح من جنبٍ إلى جنب كبحّارٍ مخمور، مُبلّل القدمين، جافّ اليدين. أمدُّ بصري خلال سنابل القمح نحو كتل السحاب الغبارية، وتسافرُ عيناي على طول النهار، وعلى قوارب الدهر، وحركة شراعها

وساريتها البطيئة. أرى الشمسَ تقذفُ أشعتها الفسيحة، وتغوصُ في حضن النهر بلطف. وعلى الطرف النائي تقومُ أعمدة أكواخ الويغوام المُدببة، والتفافة الدخان الكسول. أرى فؤوس التوماهوك تنطلقُ شاقّةً الهواء استجابةً لصيحات سفك الدماء المعروفة. أرى وجوهاً، وخرزات برّاقة، ورقصة المقسّين المتهادية، وحَلَمات طويلة مُفلطحة وطفل من الهنود الحمر له ضفائر.

أرى قبائل ديلاوير ولا كوانا، وموونونغهالا، والموهوك، والسيناندوح، والناراغانست، والتسكاغي والأوسكالوزا، والكالامازو، والسيمينول والبوني، والتشيروكي والمانيتو العظيم، والبلاك فيت، ومدى النافاجو كأنها سحابة هائلة حمراء، كعمودٍ من نار، إنها رؤى الروعة المُحرّمة لأرضنا تمرُّ أمام عيني. لا أرى أياً من اللتيين، أو الكرواتيين، أو الفنلنديين، أو الدانمركيين، أو السويديين، لا ميكيين، لا مهاجرين إيطاليين، لا صينيين، لا بولنديين، لا أشباه ضفادع، لا فاسقين ولا كايكيين. أرى يهوداً جالسين في أعشاشهم الغرابية، وجوههم مُحمّصة يابسة كالجلد المدبوغ، جماجمهم ذابلة وخالية من العِظام.

ومن جديد تلمع فؤوس التوماهوك، وتتطاير فروات الرؤوس، ومن حوض النهر تتدحرج غيمة برّاقة متلاطمة من الدم. ومن منحدرات الجبال، ومن الكهوف العظيمة. ومن المستنقعات والسبخات يتدفّق فيضٌ عارم من الرجال المُلطّخين بالدماء. من السييراس وحتى الأبالاشيين تتصاعدُ أبخرةُ دماء المغدورين من الأرض. فروة رأسي مسلوخة عني، واللحم الرمادي مُعلّق فوق أذني مُزَقاً ؛ قدماي محروقتان تماماً، وخاصرتاي تخترقهما السهام. أستلقي في قلم حبر مغروز في سورٍ

مكسور وأحشائي إلى جانبي، كلها مُتداخلة وتلطّخُ بالدم صدغي الأبيض الجميل المطوط جلداً وعضلاً. الريح تدوّم في معيي المستقيم المتقطّع تعوي كستّين من المجذومين البيض. وثمة لهبٌ أبيض، ويفيضُ من الثلج الأزرق، ورذاذ من ضوء مشعل تدوّم في أحشائي الخاوية. ذراعاي منزوعتان من تجويفهما، وجسمي قبرٌ تلغُّ فيه الغيلان. أنا مملوء بأحجار كريمة خام تنزفُ بريقاً ثلجياً، وتخترقُ الشمسُ جراحي كألف رمحٍ مُدبَّب، وتلتهبُ الأحجار الكريمة، وأحشائي تصرخ. لا أعلمُ إنْ كان الوقتُ ليلاً أم نهاراً، وخيمة العالم تتقوّض ككيس مملوء بالغاز، ووسط لهيب الدم أشعرُ بلمسةِ ملقط باردة: يجُرّونني في مجرى النهر الضيّق، وأنا أعمى وعاجز؛ أختنقُ، ألهثُ، أصرخُ وَهَناً، وأسمعُ عن بُعد انهمار الماء المُثلج، وعواء أبناء آوى من تحت المروج الخضراء، وفي قلب الغابة الخضراء المُظلمة تنبثق بقعة من ضوء، ضوء نضِر بروسيّ يُلوِّن الثلج وأعماق التيار المُثلجة. إنها قرقرةٌ خانقة سارّة، ضجيج هادئ كالذي يصدُر عن ملاك يفرش جناحيه يطفو بلا أرجل تحت الجسر.

المزاريب مسدودة بالثلج. إنه فصل الشتاء والشمس تَسطعُ كومض الظهيرة اللامع الواهن. أمشي في الشارع وأمرُّ بالمنازل مدة ساعة أو ساعتين، والشمس تلزمُ مكانها، ويتحوَّل كل شيء إلى ماء، كل شيء يتدفَّق، يسيل، يُقرقر. وبين الحاجزَين الحجريين وتخوم الثلج ينبثقُ سيلٌ من الماء ذي لونٍ أزرق شفّاف. في داخلي طوفان يسدُّ ممرات عروقي الضيقة. في داخلي تيارٌ أزرق شفّاف يتجوَّل مُتنقّلاً من أسفل قدميَّ وحتى ناصيتي. إنني ذائب تماماً، أختنقُ بالبهجة الثلجيّةِ الزُرقَة.

أمشي في الشارع ماراً بالبيوت، والبهجة الثلجيّةِ الزُرقَة في

عـروقي الضـيّـقـة المسـدودة. ثلوجُ الشـتـا ء تذوب، والقنوات تفـيض. زال الحـزن وذاب الفـرح، وصـار يسـيلُ ويتـدفّق في المصـارف، وفـجـأة تـبـدأ النواقيس بالقرع، أجراسُ جنائزيةٌ هائجة ذات ألسنة فاحشة، ذات مطارق حديدية جامحة تُهشِّم نزيف العروق الزجاجي. ووسط الثلج الذائب هناك مذبحة تسود. أحصنة صينية قصيرة مُعلّقة من نواصيها، وحشرات طويلة لها مفاصل دقيقة وفكوك سُفلى خضراء اللون. وأمام كل بيت سور حديدي مُسربل بالأزهار الزرقاء.

في شارع الأحزان المُبكّرة تطاردُ الأم الحيزبون الريح، أشرعتها الفسيحة منشورة، وثوبها مُنتفخ بالجماجم ؛ نرتعبُ ونقضي الليلَ هاربين، نطاردُ الألبومَ الأخضر، بزخرفة ساقيه الأماميتين الراقية، وحاجبيه الناتئين. من الشرفات العفنة يُسمَعُ هسيس الأفاعي التي تتلوّى في الحقيبة، والحبل مربوطٌ، والأحشاء معقودة، وأزهارٌ زرقاء مُنقّطة كاللبوءات، مسحوقة، ممصوصة الدماء، والأرض لطخةٌ نضِرة، ذهبٌ، نقي عظام. غبارٌ براّق كالعِظام، وثلاثة أجنحة مُحلّقة والمارش العسكري أو الحصان الأبيض، والعيون النشادريّة.

الثلج الذي يذوب يذوبُ نحو الأعمق، والحديدُ يصدأ، والأوراق تُزهِر. وعند ناصية الشارع، وتحت الحافلة المرفوعة، يقفُ رجلٌ يعتمرُ قبعة مضغوطة، ويرتدي بذلة من الصوف الأزرق ويضعُ طِماقاً من الكتان، وشاربه مقصوص بدقّة. ويُدار المفتاح ويسيل عصير التبغ كله، والليمون الذهبي، وأنياب الفيل، والشمعدانات. مويش بيبيك، تاجر الليمون، مُحمَّل بالحَمَام الذي يبيض بيضاً قرمزياً في جيب سترته، وبأربطة عنق قرمزية وبطيخ وسبانخ وسيقان نباتات قصيرة ليفيّة،

مُلطّخة بالقطران، ويتعالى صفير الاستهجان، ولفيفٌ من العاهرات مُضمّخات بالليزول، وبالنشادر وببقع الكافور. أكواخ الميكا الصغيرة، وقشور الفول السوداني المُثلّثة والمتغضّنة، كلها تمشي مِشية النصر مع نسيم الصباح. ويشرقُ نور الصباح على شكل تغضّنات، وزجاج النافذة مُخطَّط؛ الأغطية ممزقة والمُشمَّع يذبُل. هناك رجل مُنتصب الشَعر يمشي، لا يركض، ولا يتنفّس ؛ رجلٌ له دوّارة ريح تتغيَّر زواياها بحِدّة ثم تستقر؛ رجلٌ ليست لديه أسئلة بل يُتابعُ سيره في ليلٍ حالك كل نجومه واقعة في المسيرة وبسوالف غزيرة مُشذَّبة. ويقضي الليل الحزين يُدمدمُ ويهمهم مع أشراكٍ تحوِّلُ اليسارَ إلى يمين، والظهيرة الجاثمة تسطعُ على المحيط الشتوي، والظهيرة الجاثمة على كل جانب من السطح وعالياً على متن النجوم. وها هي الدوّارة من جديد مُزوَّدة بمجدافَين طويلين آتية عبر ثغور الميناء وجميع الأصوات مكبوتة. الليل هادئ في الجهات الأربع، كالإعصار ؛ هادئ مع كراميلة محشيّة في داخلها قطعة نقدية. الأخت مونيكا تعزفُ على القيثارة وقميصها مفتوح والأربطة محلولة، وفي كل أذُن شقٌ عريض ؛ الأخت مونيكا مُخطَّطة بطلاءٍ صِمغيّ، جيريّ، عيناها يعلوهما عفنٌ فِطري، مكسوّتان بقماش الكريب، قذرتان، مزوَّدتان بكوى لإطلاق النار.

ويتَّسعُ شارع الأحزان المُبكّرة، والشفاه الزرقاء تنتحب، وطائر البطريق يحثّ طريقه طائراً عنقه المُلطّخ بالدم مفصول عنه، أسنانه متفرّقة. والرجل ذو قبعة البولر يُطقطق ساقه اليسرى، وإلى اليمين وأسفل قليلاً هناك ثلمان، تحت شفير كل مركب، والعَلَم الكوبي موصول بالمعكرونة والبرتقال المُزيَّف، وبأزهار مغنوليا بريّة وسِعف غضّة من

النخيل المروحي ممزوجة بالطباشير واللعاب الأخضر. وتحت السرير الفضيّ مزهريةٌ من أزهار الغيرانيوم، وثوبان للصباح وثلاثة للمساء وقنادس تُهمهم بحثاً عن دم. ويخرج الدم بدفقٍ أبيض، دفقٍ أبيض خنّاق من الطمي مملوء بالأسنان المكسورة، وبسائل صِمغي وعِظام نخِرة. الأرض زلِقة من كثرة الذهاب والمجيء، والمقصّات اللامعة، والسكاكين الطويلة والملاقط الحارّة والباردة.

وإلى الخارج في الثلج الذائب تنفلتُ الحيوانات المُحنّطة ؛ أولاً تخرجُ حمير الوحش بألواحها الخشبية المُنمّقة البيضاء، ومن ثم طيور الصيد والغداف، ثم نباتات الأفاقيا والحيّات مُعيَّنة الظهور. النباتات الخضراء تتثاءبُ وأصابع قوائمها متباعدة، والعصفور الأحمر ينطلقُ ثم يغوصُ مُنحدراً، وكُتَلُ النفايات تتسرَّب من الشقوق، والسحلية تبول، وابن آوى يُخرخر، والضِباع تتجشّأ وتضحك وتتجشّأ من جديد ؛ ورقعة المقبرة الفسيحة بأكملها المُنقّطة بأمان تفرقعُ أوصالها أثناء الليل. والأناس الآليون يُطقطقون أيضاً أثوابهم الضخمة المُدرّعة التي تُعيق الحركة ومفاصلها الصدِئة وأقفالها المفتوحة مغمورة بالثقة الزائفة. الزِبْد يُزهِر أكاليل ضخمة مروحيّة الأوراق، زبدٌ دسِم مسموم ومطبوع بمخالب غُراب ومُحزَّم بشكلٍ مُضاعَف بصورة الجلاّد جون الخرّاء. الزبد يعوي في معرض الجثث، وأشعة شاحبة من ضوء القمر تتسرَّب، ومصبّات الأنهار مسدودة، والحمولات ترتعد، والجوانب مُقفَلَة، وهناك دجاجات بانتام سمراء تشبه كلب البيغل مُزيَّنة بحوصلات حمراء، وفِراء ثعلب الماء يُغطي الأراضي المنخفضة، ونبات العليق ينزف، وآبار المغنيزيا تشتعل، والنسر يُحوِّمُ عالياً وساطورٌ يخترقُ كاحله.

ليلةٌ دموية بربرية مُزيّنة بمخالب صقر ؛ ليلة دموية بربرية فيها جميع أبراج الكنائس تصرخُ وجميع الأضلاع ممزّقة وكل أنابيب الغاز تنفجر ؛ ليلة دموية بربرية فيها كل العضلات ملويّة، وأصابع الأقدام متصالبة، والشعر منتصب، والأسنان حمراء، والعمود الفقري مكسور، والعالم كله يقظ تماماً يُغَرِّد كالصباح، ونارٌ حمراء واطئة تزحف فوق الصمغ، وطوالَ الليل تنكسر الأمشاط، والدعامات تغني. الفجر يبزغ مرّتين، ثم ينسلُّ غائباً من جديد. في الثلج المنساب يُصدِرُ الأكسيد دخانه، ومن خلال الشوارع كلها تمرُّ عربات نقل الموتى رائحة غادية، رائحة غادية، والسائقون يمضغون سياطهم الطويلة، بأثوابهم المصنوعة من الكريب الأبيض وقفّازاتهم القطنية.

شمالاً نحو القطب الأبيض، وجنوباً نحو مالك الحزين الأحمر يخفقُ النبضُ وحشياً متواصلاً. يقطعون الحِبال، واحداً إثر آخر بأسنانٍ زجاجية برّاقة. ويأتي فرخُ البط مع فاتورته العريضة ثم ابن عرس ذو البطن المنخفضة. يأتون واحداً إثر آخر، يُستدعَون من الفِطر، أذيالهم يعلوها الريش، وأرجلهم متشابكة، يأتون على دُفُعات، منحنون كأعمدة الحافلات، ويمرّون من تحت السرير. على الأرض طينٌ وإشارات غريبة، النوافذ تتلظّى، ولا شيء غير أسنان، ثم أيدي، ثم جُزُر، ثم بصلٌ بَدَويّ بعيونٍ زمرّديّة، ومذنبات تأتي وتذهب، تأتي وتذهب.

شرقاً صوب المغول، غرباً نحو الغابات الحمراء، ويهتز النبضُ أماماً وخلفاً. البصل يمشي بانتظام. البيض يُثرثر، والحيوانات المُحنَّطة تتلولَبْ كالذروة. وعلى بُعد أميال ممتدة على الشواطئ تقعُ مكامن الكافيار الأحمر. الكسّارون يُزبدون ؛ يفرقعون بسياطهم الطويلة. المدّ يهدرُ تحت طبقات الجليد الأخضر. وسريعاً فأسرع تدور الأرض حول نفسها.

ومن قلب الفوضى السوداء تخرجُ مغازل النور مُزوَّدة بكِوى مسدودة. ومن العدم والفراغ يبزغُ التوازن الأبدي. من فك الحوت وكيس الخيش يخرجُ ذلك الشيء الجنوني المُسمّى النوم الذي يسير كساعة الثمانية أيام.

التسكُّع في طول الصين وعرضها.

الآن لم أعُدْ وحيداً. في أسوأ الأحوال أنا من دون الله !

أدخل باريس، أخرج من باريس، أغادر باريس أو أعود إلى باريس. دائماً باريس وباريس هي فرنسا وفرنسا هي الصين. وكل ما ليس مفهوماً لدي يجري كسورٍ عظيم فوق التلال والوديان التي تجولتُ فيها. وداخل ذلك السور العظيم أستطيع أن أعيش حياتي الصينيّة بسلام وأمان.

أنا رحّالة، ولستُ مُغامِراً. تقعُ لي الحوادث أثناء بحثي عن مخرج. وحتى هذه اللحظة أنا أعمل في نفقٍ لا تُعرف له نهاية، أحفرُ أحشاء الأرض بحثاً عن النور والماء. وبما أنني من القارة الأميركية ، لا أستطيعُ أنْ أؤمن بأنَّ هناك مكاناً على الأرض يمكن للإنسان أن يكون فيه نفسه. وبضغطٍ من الظروف أصبحتُ صينياً - صينياً في وطني ! أُخِذتُ إلى أفيون الحُلُم لكي أواجه بشاعة حياةٍ لم يكن لي فيها دور. وكسقوط غصن صغير بهدوء وحركة طبيعية إلى نهر الميسيسيبي سقطتُ من تيار الحياة الأميركية. إنني أذكُرُ كل ما حدث لي، ولكن ليست لدي رغبة في كشف الماضي، ولا أكنُّ أي توق أو ندم. إنني أشبه برجلٍ أفاقَ من نومٍ طويل ليجدَ أنه يحلم. إنها حالةُ ما قبل الولادة - الإنسان المولود يعيشُ غير مولود، والإنسان الذي لم يولَدْ هو مولود يحتضر.

إنني أولَدُ ثم أولدُ من جديد مراراً وتكراراً . أولدُ حين أجوبُ الشوارع، وأولَدْ وأنا جالس في مقهى وأولد وأنا أضاجع عاهرة. أولدُ ثم

أولد من جديد مراراً وتكراراً. خطوٌ سريع وجزاؤه ليس مجرَّد الموت، بل الموت المتكرِّر. يكاد يستحيل عليّ أنْ أشعر أني في الجنة، مثلاً، حين تهتزُّ الأبواب وتُفتَح لأجدَ أحجار الشارع تحت قدمي. ***كيف تعلّمتُ المشي بتلك السرعة ؟ بقَدَميّ مَنْ أمشي ؟*** إنني أمشي الآن متوجهاً إلى القبر ؛ أمشي في جنازتي. أسمعُ قرقعة الرفش، ووابل التربة السطحية. عيناي لا تكادان تُغمضان، وليس لديّ إلاّ القليل جداً من الوقت لأشمَّ الأزهار التي أمطروني بها، وإذْ فجأةً بانغو ! لقد عشتُ خلوداً آخر. إنَّ التردُّدَ على الأرض على هذا الشكل يجعلني يقِظاً حذِراً. يجب أنْ أحافظ على جسدي في حالةٍ يكون فيها مقبولاً من الديدان. يجب أنْ أحافظ على روحي سليمة من أجل الله.

في أوقات بعد الظهيرة أجلسُ في اللا فورش، وأتساءلُ بهدوء : "إلى أين نحن متوجهون من هنا ؟ " وحالما يهبط الليل أكون قد سافرتُ إلى القمر وعدتُ. أجلسُ هنا عند تقاطع الطُرُق وأستعيد حالماً جميع ذواتي المنفصلة والخالدة. وأبكي فوق كأسٍ من البيرة. في الأمسيات أعودُ ماشياً إلى كليشي، حاملاً الشعور نفسه. وكلما جئتُ إلى لا فورش أرى دروباً لا متناهية العدد تشعُّ من قدميّ ومن حذائي تخرجُ ذواتي التي لا حصرَ لها وتسكنُ عالم كياني ؛ أرافقها مُتشابكي الأذرع على الطرقات التي كنتُ من قبل قد طرقتُها وحيداً : إنها المشاوير العُظمى لحياتي ومماتي التي تتلبَّسني. أتحدَّثُ إلى أولئك المرافقين الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم كما قد أتحدَّث إلى نفسي فيما لو كنتُ من سوء الحظ بحيث أعيشُ وأموتُ مرةً واحدة وأبقى هكذا وحيداً إلى الأبد. ***أما الآن فلم أعُد وحيداً أبداً ؛ في أسوأ الأحوال أكون مع الله !***

هناك شيء في المسافة ما بين كليشي ولا فورش هو السبب في كل حالات ازدهار المشاوير العظمى التي تتلبّسني دفعةً واحدة. إنها كالانتقال من أحد الانقلابات الشمسية إلى آخر. وعلى فَرَض أني غادرتُ مقهى ويلر وكنتُ أتأبَّطُ كتاباً، كتاباً يتحدَّث عن الأسلوب والإرادة. لنفرض أنني بينما أقرأ الكتاب لم أكن أفهم أكثر من فقرة أو اثنتين، وربما كنتُ أعيد قراءة الصفحة نفسها طوال الأمسية، وأنني لم أكن في مقهى ويلر على الإطلاق، بل أسمع موسيقى، وإذ بي أغادر جسمي وأطير. ***فأين أكون حينئذٍ*** ؟ ولِمَ العَجَب، حينئذٍ أكون خارجاً في نزهة تتلبّسني، نزهة قصيرة لمدّة خمسين سنة أو نحوها تُقضى أثناء قلب الصفحة.

سمعتُ ذلك الحفيف الغريب عندما كنتُ مُغادراً مقهى ويلر. لا حاجة إلى الالتفات إلى الوراء - أنا أعرفُ أنه صوت جسمي يُسرِعُ لينضمّ إليّ. وفي هذه اللحظة عادةً تكون مضخّات البراز مصطفة على طول الشارع. الخراطيم ممدودة عبر الرصيف كديدان ضخمة تئن. الديدان السمينة تمتصّ البراز من المجاري. هذا المشهد هو الذي يهبني الدفق الروحي اللازم لكي أنظر إلى نفسي وأنا أميلُ فوق كتابٍ في مقهى، أرى العاهرة تقفُ إلى جانبي وتقرأ عبر كتفي ؛ أشعرُ بأنفاسها تلفحُ عنقي. إنها تنتظر أنْ أرفع نظري، ربما لأُشعلَ لها السيجارة التي تحملها بين أصابعها. ستسألني ماذا أفعل هنا وحدي وإنْ كنتُ أشعرُ بالضجر. الكتاب يتحدَّث عن الأسلوب والإرادة وقد جلَبَته معي إلى المقهى لأقرأه لأنَّ من الرفاهية أنْ أقرأ في مقهى يعجُّ بالضجيج وهو أيضاً بمثابة حماية ضد الأمراض. الموسيقى تكون جميلة جداً في مقهى ضاجّ - إنها تزيدُ

الإحساس بالعزلة، بالوحدة. أرى الشَفَة العليا للعاهرة ترتجفُ من فوق كتفي. أرى فقط بقعةً مُثلّثة من الشفة، ناعمة كالحرير. إنها ترتعش على النغمات الحادّة، ومتوضعة كغزال الشاموا فوق وهدة، وأنا الآن أقبل التحدّي، أنا ونفسي مُلتصقان معاً. الامتداد الصغير من ساحة كليشي وحتى اللا فورش. ومن الأزقة المسدودة التي تكثُرُ على طول الامتداد الصغير تنبجسُ حشودُ كثيفة من العاهرات، كوطاويط يعميها نور النهار ؛ يتسلّقنَ شَعري، وأذنيّ، وعينيّ ؛ يتشبّثنَ بأنياب ٍ تمتصُّ الدماء. وطوال الليل يتقرّحنَ في الأزقة الجانبية، تنبعثُ منهنّ رائحة النباتات بعد مطرٍ غزير، ويُصدرنَ أصواتاً خافتةً كالتي تَصدر عن النباتات، وصرخات تحبُّب بلهاء تجعل الجسم يتخدَّر. يحتشدنَ فوقي كالقمل، قمل له حوالق طويلة كالنباتات، ويمتصصن العَرَق عن مسامي. العاهرات، الموسيقى، الحشود، الجدران، الأضواء على الجدران، البراز ومضخّات البراز تعمل ببسالة، وهذا كله يُشكّلُ سديماً يتكاثف على صورة عَرَق بارد مُنشِّط.

كل ليلة، بينما أنا متوجّه نحو اللا فورش أواجه التحدّي. كل ليلة تُسلَخ فروة رأسي وأُقطَّع بفأس التوماهوك. وإذا لم يحدث الأمر هكذا لافتقدته. وأصلُ إلى المنزل وأنفضُ القملَ عن ملابسي، وأغسلُ الدماء عن جسمي، وآوي إلى الفراش وأغطّ في النوم. ***هذا تماماً هو العالم الذي يُناسبني*** ! إنه يحفظ لي جسمي ناعماً وروحي سليمة.

البيت الذي أسكنه تهدَّم ؛ الغرف كلها تعرَّتْ ؛ أصبحَ بيتي كجسمٍ إنساني سُلِخَ عنه الجلد ورق الجدران. ورق الجدران تدلّى بالياً، وهيكل السرير بلا حشيّة. والبلاليع مسدودة، وكل مساء وقبل أنْ ألجَ منزلي

أقفُ لأنظر إليـه. الرعب الذي ينبعث منه يذهلني. ولكن قبل كل شيء، مـاذا يمنع أنْ يكون هناك القليل من الرعب ؟ إنَّ كل مـخلوق حي هو متـحفٌ يحتـوي رعب سلالتـه كلهـا. وكل إنسـان يُضـيف جناحاً إلى المتـحف. وهكذا، أقفُ كل مسـاء أمـام المنزل الذي أعـيشُ فـيـه، البـيت الذي تهـدَّم تمامـاً، أحـاول أنْ أستـحـوذ على مـغـزى هذا. وكلمـا تعـرَّتْ الدواخل أحـببتُ منزلي أكثـر. أحبُّ وعـاء البـول الموضـوع تحت السـرير، والذي لم يعُد يستخدمه أحد.

في أميـركا عـشت في منازل عِدّة، إلا أنني لم أعُد أذكُر دواخل أي منهـا. فـقد كان عليَّ حـينئذٍ أنْ أتقـبَّل مـا يحدث لي وأُبقـيه مـعي وأنا أمـشي في الطريق. وذات مـرة استـأجرتُ عربة خـيل مكشـوفـة وسرتُ بهـا في الجادّة الخامسـة. كان ذلك بعد ظهـيرة أحد أيام الخريف وكنتُ أجوبُ مـدينتي. وكـان الرجال والنسـاء يتنزهون على الأرصِفة : وحوشٌ غـريبـة، أنصاف إنسانيين، أنصاف سيليلوزيين. يتمشّون في الشارع جيئة وذهاباً كـأنصـاف مـجـانين ؛ أسنانهم مُلمّعـة وعـيـونهم تومضُ. النسـاء يـرتدين أثواباً جـمـيلة، وكلٍ منهنّ مُـزوَّدة بابتـسـامـة باردة بائتـة، والرجال أيضـاً يبتـسـمون بين الحين والآخـر، كـمـا لو أنهم يمشـون في أكـفـانهـم ليُقـابلوا مُخلّصهم السماوي ؛ يبتسمون وهم يعبرون الحياة يحملون النظرة المعتوهة الزجـاجـيـة في عـيـونهم. الألوية منشـورة، والجنس يتـدفَّق بعذوبة في البلاليع. كنتُ أحملُ معي مسدساً وحـالما وصلنا الشارع الرابع والعشرين فـتحت النـار. ولم ينتبـه أحد. حَـصَدتُهم ذات اليـمين وذات اليـسـار لكنَّ الحشدَ لم يقُلْ عـدداً. الأحيـاء يمشون فوق الأموات، يبتسمون طوال الوقت ليُعلنوا عن أسنانهم البيضـاء الجميلة ؛ تلك الابتسامة الفظّة البيضـاء هي

التي تلتصق في ذاكرتي. أراها في نومي عندما أمدُّ يدي مُستجدياً - ابتسامة جورج س. تيليو[٥٤] التي تطفو فوق الموز المُتدلّي على امتداده في مضمار سباق الحواجز. أميركا تبتسمُ ساخرةً من الفقر. ما أقلّ ما يُكلّف الابتسام - فلماذا لا تبتسم وأنتَ تستقلُّ عربة خيل مكشوفة ؟ ابتسم، ابتسم، ابتسم، وسيغدو العالم مِلكُكَ. ابتسمْ، عليك اللعنة ! ***ابتسامةٌ لا تنتهي أبداً*** !

إنها بعد ظهيرة يوم ثلاثاء وأنا واقف في المترو وجهاً لوجه مع نساء أوروبا المألوفات. في وجوههنَّ جمالٌ متهرِّئ، وكأنهنَّ الأرض نفسها شاركْنها في معاناة كوارث الطبيعة كلها. تاريخ سلالتهنَّ محفور على وجوههن، جلدهنَّ كرقٍ سُجِّلَ عليه صراع الحضارة برمّته. الهجرات، الضغائن، ممارسة الاضطهاد وحروب أوروبا - كلها تركت بصماتها هناك. إنهنَّ لا يبتسمن، وجوههن مُركَّبة وما كُتِبَ عليها مُركَّب من كل ما له صِلة بالسلالة، والشخصية، والتاريخ. أرى على وجوههن خارطة أوروبا المَتهرِّئة والمتعددة الألوان ؛ خارطة مُخطَّطة بسكك الحديد، والسفن البخارية وخطوط الطائرات، بالحدود الوطنية، بتحاملات ومنافسات لا تُمحى أو تُستأصَل. إنَّ رثاثة الخطوط الخارجية نفسها، والثغرات الكبيرة التي تدل على البِحار والبحيرات والحَلَقات المُفكَّكة التي تُشكِّل الجُزُر، والعادات والآثار المتخلّفة عن الماضي الخرافية العجيبة والتي هي أشباه الجُزُر. هذا التوتُّر والتآكل كله يدل على الصراع الدائر إلى الأبد بين الإنسان والحقيقة ؛ صراعٌ ليس هذا الكتاب إلاّ خارطة أخرى له. إنني وأنا أحدِّق في هذه الخارطة، يتكوَّن لدي انطباع

---

٥٤ - جورج تيليو : مُصمم مدينة ملاهي ستيبلتشيس بارك في كوني آيلند

بأنَّ القارة الأوروبية هي أكبر بكثير مما تبدو، وأنها في الواقع ليست قارة على الإطلاق بل جزءٌ من الكرة الأرضية طَغَتْ عليه المياه ؛ أرض طغى عليها البحر. كانت اليابسة تنهار عند بعض نقاط ضعفها، ولا داعي ليعرف المرء كلمة واحدة في عِلم طبقات الأرض ليفهم التقلّبات التي تعرَّضَت لها هذه القارة الأوروبية بشبكة أنهارها، وبحيراتها وبحارها الداخلية. ويمكنُ له أنْ يلمح بسرعة البرق الجهود الجبّارة التي بُذِلَتْ في فترات مختلفة، بالإضافة إلى الجهود المُجهَضَة والمُحبَطة. وطبعاً يمكن أنْ يشعر بتغيرات الطقس العظيمة التي تبعث التغيّرات المختلفة للقشرة الأرضية. إذا نظر المرء إلى هذه الخارطة بعيني عالم بالخرائط يمكنه أنْ يتصوَّر ماذا سيطرأ من تبدلات بعد خمسين أو مئة سنة من الآن.

وهكذا، أنظرُ إلى البحر واليابسة التي تُشكِّل قارات الإنسان، فأرى تشكُّلات مُعيَّنة سخيفة، هائلة الحجم وغيرها مما يُعتَبَر شاهداً على الصراعات البطولية. يمكنني أنْ أتتبَّع على طول الأنهار المتعرّجة فقدان الإيمان والشجاعة، والابتعاد عن الفضيلة ، وتآكُلْ الروح البطيء التدريجي. وأرى أنَّ الحدود مُعلَّمة بمتاريس ثقيلة طبيعية وأيضاً بخطوط خفيفة متذبذبة، مُتغيِّرة كالريح. يمكنني أنْ أشعر حتى بالمكان الذي سيتبدل فيه الطقس، وأفهمُ بشكلٍ حتمي أنَّ بعضَ المناطق الخصبة ستجفّ وأماكن أخرى جرداء ستُزهِر. إنني متأكّد من أنه في أصقاعٍ معيَّنة ستتحقق الأسطورة نفسها، وأنه سيُعثَر على حلقة ضائعة هنا وهناك بين كياننا الذي كان مجهولاً وكياننا المجهول الآن، وسوف توحي الفوضى العظمى التي يتميَّز بها الماضي بالفوضى العظمى القادمة، وأنَّ

الشيء الوحيد المهم هو الاضطراب والفوضى، وأننا يجب أنْ نركع ونعبدها. ونحن كبشر فينا العناصر كلها التي تُكوِّن الأرض، بجوهرها وأسطورتها. إننا نحمل معنا في كل مكان ودائماً تغيُّرنا الجغرافي، ومناخنا المتغيِّر. إنَّ خارطة أوروبا تتغيَّر أمام عيوننا، ولا أحد يعرف أين تبدأ القارة الجديدة أو تنتهي.

إنني هنا وسط تغيُّرٍ عظيم. لقد نسيتُ لغتي ومع ذلك فأنا لا أُحسِنُ التكلُّم باللغة الجديدة. إنني في النقطة الميتة لحقيقةٍ تتغيَّرُ لم تُبتَكَر لها لُغةٌ جديدة. وحسبما تقول الخريطة فأنا في باريس، وحسب الروزنامة أنا أعيشُ في العقد الثالث من القرن العشرين، لكنني لستُ في باريس ولا في القرن العشرين ؛ أنا في الصين ولا توجد هنا ساعات أو روزنامات. أُبحِرُ في النهر الأصفر على مركبٍ شراعي والطعام الذي أجمعه أنتقيه من النفاية التي ترميها قوارب المدفعية الأميركية. إنَّ إعداد وجبة متواضعة يستغرق مني النهار بأكمله، ولكنها تكون وجبة لذيذة وأنا أتمتَّع بمعدة من حديد.

أنا قادم من جهة لوفيسيين... في الأسفل مني يقعُ وادي السين. باريس كلها تمتد بارتياح، كمسحٍ جيودوسي[٥٥]. أمدُّ بصري عبر السهل الذي يحضنُ حوض النهر وأرى مدينة باريس : حلقات وحلقات من الشوارع ؛ قرية داخل أخرى، وحصناً داخل حصن. إنها تنهض هناك وحيدة مهيبة كغابة حمراء من الجذوع العقدية المتشابكة في سهل السين الفسيح. تقف في البقعة نفسها دائماً وأبداً وقد أصبحت الآن تتضاءلُ وتنكمشُ، ثم تنهض وتمتد " إنه البعث الجديد من القديم، القديم الذي

---

٥٥ – جيودوسي ، من عِلم الجيوديسيا : وهو دراسة شكل الأرض وقياس سطحها

يبلى ويموت. بعيدة عن كل علوّ، عن كل مسافة زمنية أو مكانية تقفُ هي، مدينة باريس الحسناء، ناعمة، كالدرّة. قلعة مقدّسة تمتد ممراتها السرّية تحت بحرٍ من الأسقف المتعانقة لتنفتح أخيراً على السهل الفسيح.

أجلسُ وسط هَرَج ومَرَج ساعة الازدحام وأحلمُ وأنا أتناولُ طبقاً من المشهيات. السماء راكدة، والغيوم لا تُبدي حِراكاً. أجلسُ في قلب حركة المرور، يُرغمني على السكون هدوءُ حياةٍ جديدة تنمو من الاهتراء الذي يجري حولي. قدمايَ تلمسان جذور جسدٍ لا يعرف الهَرَم ولم أعطه اسماً. إنني على اتّصال بالأرض كلها. ها أنا ذا في رحِم الزمن ولا شيء يمكنه أنْ ينتزعني من سكينتي ؛ جوّال آخر عثرَ على لهب قلقه. أجلسُ هنا في عراء الشارع أؤلّفُ أغنيتي ؛ أغنيةً سمعتها وأنا طفل، الأغنية التي أضعتُها في العالم الجديد والتي ما كان يمكن أنْ أستعيدها لو لم تقع كغُصين في محيط الزمن.

بالنسبة إلى مَنْ كان مُرغَماً على الحلم بعينين مفتوحتين على آخرهما تحدث الحركات كلها بالعكس، وكل فعل يتحطّم إلى شظايا غزيرة الألوان. أعتقد، وأنا أمشي خلال رعب الحاضر، أنَّ الذين لديهم ما يكفي من الشجاعة كي يُغمضوا عيونهم، الذين غيابهم الأبدي عن الحالة المعروفة باسم الواقع يمكن أَنْ يؤثّر على قَدَرَنا. أعتقدُ، وأنا أواجه هذا الرعب الكامل اليقظ والحادّ، أنَّ موارد حضارتنا كلها سوف تُثبتُ عدم كفائتها لاكتشاف ذرّة الرمل الصغيرة اللازمة لإخلال التوازن التافه لعالمنا. أعتقد أنَّ حالِماً فقط لا يعرفُ خوفاً من الحياة أو الموت هو الذي سيكتشف ذرة القوة الصغيرة المتناهية في الصِغر والتي ستنسف الكون

بضربة واحدة - ***وعلى الفور***. إنني لم أؤمن ولا للحظة بالتطوُّر البطيء والمؤلم، والفخم والمنطقي، واللا منطقي بشكلٍ غامض، للأشياء ؛ أؤمنُ بأنَّ العالم بأكمله - ليس فقط الأرض والأشياء التي تكوِّنها، ولا الكون الذي صنّفنا عناصره الأوّليّة، بما فيه الأكوان-الجُزُر التي تتجاوز بصيرتنا ووسائلنا - وإنما العالم كله، المعروف منه واللا معروف، مُختلّ، يصرخ من الألم والجنون ؛ أؤمنُ بأنه إذا اكتُشِفَتْ غداً الوسائل المناسبة التي نطير بواسطتها إلى أبعد نجم، إلى أحَد تلك العوالم التي تقول عنها حِساباتنا العجيبة إنه حين سيصلنا نورها ستكون الأرض ذاتها قد بادتْ؛ أؤمن بأنه إذا استطعنا أنْ ننتقل إلى هناك في زمنٍ لم يبدأ بعد فسوف نعثر على رعبٍ مُطابق، بؤسٍ مُشابه، وجنون مماثل ؛ أؤمنُ بأننا لو نتمكَّن من التناغم الفائق مع إيقاع النجوم التي تحيط بنا بحيث نهرب من معجزة التصادُم فسوف نتناغمُ أيضاً مع القَدَر الذي تحقَّقَ في وقتٍ واحد هنا، هناك، وفي البعيد، وبأنَّ لا مهرب من هذا القَدَر العالمي إلاّ إذا آمنَ به في وقتٍ واحد هنا، هناك، وفي البعيد، وفي كل مكان، وكل شخص، أرجلاً كان، أم حيواناً، أم نبات، أم معدناً، أم صخرة، أو نهراً وشجرة وجبلاً.

في ليلةٍ لم يعُد فيها للأشياء أسماء أمشي حتى نهاية شارعٍ مسدود وأقفز، كرجلٍ وصلَ إلى أبعد ما يمكن الوصول إليه، عبر الشفير الذي يفصل الأحياء عن الأموات. وأثناء ابتعادي عن سور المقبرة، حيث لا تزال آخر مبولة متهدِّمة تغرغر، تتجمَّع طفولتي كلها كتلةً خانقة في حنجرتي. وفي كل موقع جعلتُ منه سريراً لي كافحت كالممسوس لأبعِد شبح الماضي. إلا أنه يبقى وحتى اللحظة الأخيرة الماضي الذي يشمخ

منتصراً، الماضي الذي يغرق المرء فيه. ويعرف الإنسان وهو في لهاثه الأخير أنَّ المستقبل ما هو إلا مرآة زائفة، قذرة، وهو الرمل الموجود في قعر الساعة الرملية ؛ الخَبَث البارد، الميت، الخارج من الفرن العالي الذي خَبَتْ ناره. وأثناء دخولي الليفالوا-بيته أمرُّ بعربي واقف عند مدخل زقاقٍ مسدود، يقفُ هناك تحت قوس متوهّج من النور وكأنه مُتحجّر. لم يكن هناك ما يدلّ على أنه من البشر - لا وجود لمقبض، أو عَتَلة، أو نابض يمكنه بلمسةٍ سحريةٍ أنْ يرفعه من غيبوبة النشوة التي يغوصُ فيها. وأثناء متابعتي تسكعي وتستمر قامة العربي في الغوص أعمق فأعمق داخل وعيي. قامة العربي تقفُ في وضع النشوة الجامد تحت ضوء الشارع المتوهج ؛ وأشكال الرجال والنساء تقفُ في رطوبة الشوارع الباردة - أشكال لها ملامح بشريّة تقفُ في نقاطٍ صغيرة في حيّزٍ أصبحَ متحجّراً. لم يتغيَّر شيء منذ ذلك اليوم الذي نزلتُ فيه للمرة الأولى إلى الشارع لألقي نظرة على الحياة متحملاً مسؤولية ذلك وحدي. وكل ما تعلّمته منذ ذلك الحين زائفٌ ولا فائدة منه. والآن، وبعد أن استبعدتُ الزائف بدا لي وجه الأرض أشد قبحاً مما كان عليه في البداية. في هذا القيء وُلِدتُ وفي هذا القيء سأموت. لا مهرب. لا توجد جنة يمكنني الهروب إليها. الميزان في وضع التوازن. ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من ذرّة صغيرة جداً، لكنَّ هذه الذرّة المتناهية الصِغَر من الرمل يستحيل إيجادها. فالروح والإرادة مفقودتان. وأفكّر من جديد في السِحر والرعب اللذين أوحى لي بهما الشارع في المرة الأولى. أتذكّر البيت الذي عشتُ فيه، بالقناع الذي كان يضعه، بالشياطين الذين كانوا يسكنونه، بالغموض الذي يُغلّفه، أتذكّر كل مخلوق عبر أفق طفولتي، والسحر

الذي كان يكتنفه من كل جانب، والشذا الذي كان يسبح فيه، وملمس جسمه، والعَبَق الذي كان ينشره ؛ أتذكَّر أيام الأسبوع والآلهة التي كانت تحكمها، وقدرتها على الإهلاك، وعبيرها، وكان كل يوم جديداً وفائق الروعة أو أحياناً طويلاً وخاوياً بصورة مرعبة ؛ أتذكَّر البيت الذي بنيناه والمواد التي تألَّفَ منها، والروح التي بثَّت الحياة فيه ؛ أتذكَّر حتى أحلامي، الليلية منها والنهارية، ومنذ أنْ تجاوزتُ العربي وأنا أسير في طريقٍ مستقيمة وطويلة يتّجه نحو الأبدية، أو على الأقلّ أتوهَّم أني أسير في طريقٍ مستقيمة لا نهاية لها. لقد نسيتُ أنه يوجد شيء يُسمّى المنحنى الجيوديسي وأنه مهما بلغ اتّساع الانحراف، وكان لابد من أنْ أمضي في طريقي، فسأعود مراراً وتكراراً إلى حيث يقفُ العربي. وعند كل تقاطُع طرق سأصادفُ شكلاً له ملامح بشرية يقفُ في وضع النشوة المتحجّرة، قامة منحوتة على الزقاق المسدود ومصباحُ قوسيّ يشعُّ بنوره عليه.

اليوم أخرجُ لأقوم بمسيرٍ عظيم هاجسيّ آخر. إنني وذاتي ملتصقان معاً بقوة. من جديد السماء تتدلى بلا حِراك، والهواء راكد، أخرس. وخلف السور العظيم الذي يُطوقني يُدوزن الموسيقيون آلاتهم. لم يبقَ إلا يومٌ واحد وبعده يأتي الانهيار ! يومٌ واحد ! وبينما أُغمغمُ بهذا لنفسي أنعطفُ فجأةً متجاوزاً سور المقبرة إلى شارع ميستر. والانعطاف الحادّ نحو اليمين يُدخلني إلى عمق أحشاء باريس. ويتغلغلُ الشارع خلال أمعاء مونمارتر الكثيرة التلافيف، والزلاّقة، كجُرحٍ أحدثه سكّين ثلِم. إنني أخوضُ في الدماء، وقلبي يتلظّى ناراً. غداً سيختفي هذا كله، وأنا معه. وخلف السور الشياطين يدوزنون آلاتهم. أسرَعْ، أسرَعْ، فقلبي يتلظّى ناراً.

أرتقي هضبة مونمارتر ؛ على أحد جانبيَّ يقوم سان أنطوني، وبعلزبوب[56] على الجانب المقابل. واحدٌ يرتفع عالياً فوق الهضبة، متألّقٌ بردائه الأبيض. سطحُ العقلِ يتحطَّم إلى بحرٍ متلاطم الأمواج. السماء تدور، الأرض تترنح. وأرتقي جانب الهضبة، فوق أجفان السقوف المُبرغلة، فوق مصاريع النوافذ المندوبة ورؤوس المداخن اللاهثة...

عند تلك النقطة التي يضطجع فيها شارع ليبيك على جنبه ليأخذ قسطاً من الراحة، وينحني كدبوس شعر ليبدأ من جديد في ارتقاء المنحدر يبدو وكأنَّ مدّ الطوفان قد تقهقر وخلَّفَ وراءه ترسّبات بحرية غنية. وصالات الرقص، والحانات، والملاهي، وكل الأشرطة والزَبد التي تزيِّن أسيجة الليل المُكهربة أمام كميات الطعام الهائلة الحارّة وتطوِّق أسفل التل. وتحكُّ باريس بطنها. باريس تتلمَّظ بشفتيها. باريس تشحذ فكَّها استعداداً للوليمة التالية. ها هو الجسد يتحرَّك دائماً في محيطه – إنه موكبٌ حيويّ عظيم، كأفاريز معبد مصري، كأسطورة أتروسكية، كفجر الازدهار الكريتيّ. كل شيء ثمل بالحياة، يعجُّ بالمادة المتميِّزة. خلية الجسد الإنساني الدافئة، وعنقود العنب، والعسل المُخبّأ كالجواهر الدافئة. الشوارع تحتشد وتتغلغل بين أصابعي. أجمعُ فرنسا كلها بيدٍ واحدة. إنني أقبعُ داخل قرص عسل، في بطن أبي الهول الدافئ. السماء والأرض يهتزان من ثقل الإنسانية المفعم بالحياة وبالرقة. الجسد يقعُ في قلب المركز. وفي البعيد يقع الشك، واليأس والخيبة. الجسد هو الأصل، هو الذي لا يفنى.

---

٥٦ – بعلزبوب : هو رئيس الشياطين في الأساطير التوراتية ، ويكون عادة على هيئة ذبابة ضخمة

تغـوصُ الشـمس على طول شـارع أورسل. ربما كـانت الشـمس هي التي تغـرب، وربما كـان الشارع هو الموحش كـمـمرٍ مـسـقـوف. دمي ينوء تحت عبء ثقله في تشنُّج الأعـصـاب الهش الزجاجي. وعلى الواجـهـات التي يُسربلها الحزن هناك طبقـة من الدهن ؛ رُقاقة خفيـفة خضراء من الخُبوّ، لمسة من خَبَل. ومن ثم فجأةً بريسـتو ! يتغـيَّر كل شيء ؛ فجأةً يفغر الشارع فكَّيه حتى آخرهما وهناك، وكحُلمٍ أبيض مقدَّس. الوقتُ هو قرابة الغروب ووطأة بياضه تُسبِّبُ الاختناق. بياضٌ ثقيل، ناعس، كبطن امرأة قذرة. يتحرَّكُ الدمُ أماماً وخلفاً، وتستديرُ الخطوط الخارجية بتأثير الضوء الخفيف، والقِباب الهائلة المنتفخة مشدودة كحَلَمات همجيّة. وعلى الجروف التي تُسبِّب الدوار تنتأ الأشجار كأشواكٍ فروعها زُغبيّة تلوِّحُ بكلل عبر التيار الخفيّ الذي يتحرَّك ممتداً من تحت الجذور. لا تزال قِطعٌ من السماء تتشبَّثُ بأطراف الأغصان - وهي خُصَل رقيقة، قطنيّة ملوَّنة بالأزرق الشرقي. طبقةٌ فوق أخرى تغطُّت الأرض الخضراء بفُتات الخبز، بكلابٍ جرباء، بآكلي لحم بشرٍ أقزام يقفزون خارجين من أكياس حيوانات الكنغر.

ومن عِظام الشهداء لا تزال الدرابزينات البيضاء وأطراف الشهداء تتلوَّى من الألم. سيقان حريرية متصالبة بأحرفٍ كوفيّة. والصَرحُ الناتئ بأكمله ببشرته البيضاء الشبيهة بجلد فيل وثدييه الحجريين الثقيلَين شامخٌ فوق باريس يُهدِّدُ بهلاكٍ بربريّ.

الليل يحثُّ خُطاه، ليل الشوارع، بسماءٍ حمراء كلظى جهنم، ومن كليشي إلى باربيه يمتد نقش شَبَكي من القبور المفتوحة. إنه الليل الباريسي الناعم، كسُلَّم من اللثى الخالية من الأسنان والغيلان تُكشِّرُ من

بين الدَرَج. وعلى طول سفح التل تغرغر المبولات، وأفواهها محشوة بالخبز الطازج. في الليل فقط تبرز كنيسة القلب الأقدس جليّة بجمالها النتن، وبياض جلدها الثقيل وأنفاسها الرطبة الحجرية تتشبَّثُ بالدم كالصمّامات. الليل وباريس تتبوَّل دمها الأبيض المحموم. الزمن يتدحرج على الإكسيلوفون، القمر جرسٌ كهربائي، والعقل مُقتَلَع بظِفر. يحلُّ الليل ككأسٍ مقلوبة وكأزهار العقل الجميلة، وأزهار النرجس الأسليّ الذهبية والخشخاش الطباشيري كلها مُضغَتْ حتى سال اللعاب. وعالياً فوق هضبة مونمارتر، تحت مظلة زرقاء بلون السماء، تمضغ الأحصنة الكبيرة الحجرية دون ضجيج. قرقعة حوافرها تهزُّ الأرض شمالاً حتى سبيتزبرغر، وجنوباً حتى تاسمانيا. وتدور الكرة الأرضية على أرض الجادات الرخوة. تدور أسرع فأسرع. أسرع فأسرع، في حين أنَّ حافة الموسيقيين تنقلب. من جديد أسمع النغمات الأولى من الرقصة. رقصة الشيطان مع السُمّ وقنبلة الشظايا، رقصة نبض القلب الملتهب، كل قلب يلتهب ويتقلّص في الليل.

فوق التل العالي، في ليل الربيع، وحدي داخل جسد الحوت الهائل مُعلَّقاً مقلوباً رأساً على عقب، عيناي مملوءتان بالدم، وشعري أبيض كالديدان. بطن واحد، جثة واحدة، وجسد الحوت الهائل يتعفَّن كجنينٍ تحت أشعة شمسٍ ميتة. رجال وقمل، رجال وقمل، موكب لا ينتهي متّجه نحو كومة اليرقات. هذا هو الربيع الذي غنَّى له يسوع، والإسفنجة على شفتيه، والضفادع ترقص. لا أثر لصدأ، لا مسحة كآبة. الرأس المُدلّى من بين منفَرَج الساقين هو حلمٌ أسود هائج، الماضي يغوصُ ببطء، الصورة تُكوَّر وتُكبَّل. في كل رحم تُسمَع قرقعة حوافر حديدية،

وفي كل قبر يسمع هدير أصداف جوفاء. رحمٌ وصَدَفة وفي جوف كل رحم هناك أبله بأكمله يجمع عشب الحوذان. رجلٌ وحصان. يتحركان الآن في جسدٍ واحد، الأيدي رقيقة، والحوافر مشقوقة أتوا بخُطى وئيدة على شكل موكب، بمُقَلٍ حمراء وعُروف مُتَّقِدة. قادمون على أجنحة أحصنة عُروفها ترفرف، وفتحات أنوفها تنفث.

على شارع كولينكور، عبر جسر الأضرحة، ينهمر المطر كنافورة رقيقة. وإلى الأسفل مني الكنائس الصغيرة البيضاء حيث يُدفَنْ الموتى. وبقعٌ ليس لها شكل معيَّن من الظلال المتكسِّرة تُلقيها عوارض الجسر الثقيلة الشبكيّة. العشب يشقُ طريقه خلال الطبقة العليا للتربة، وقد أصبح الآن أشد خُضرة منه في النهار - عشب كهربائي يتوهّج بقُدرة تُقدَّر بقيراط قوة الحصان. وفي مكانٍ آخر من شارع كولينكور أصادفُ رجلاً وامرأة. المرأة تعتمر قبعة من القش، تحمل بيدها مظلة لكنها لا تفتحها. وأقتربُ منهما فأسمعها تقول " هذا ! combinaison " - وأعتقد أنَّ كلمة combinaison تعني رداءاً داخلياً فأُصيخُ سمعي بانتباه. إلاّ أنها تكون نوعاً آخر من الـ combinaison تتحدث عنه وفجأةً يتطاير الفرو الذي ترتديه. الآن بتُّ أعرفُ لماذا لم تفتح مظلتها. وتهتف "combinaison"، وبهذا تبدأ باستخدام المظلة، وكل ما يتمكن الشيطان المسكين من قوله هو - " Mais non, ma petite, mais non ! " ("كلا، يا صغيرتي، كلا ! ")

يبعثُ هذا المشهد الصغير فيَّ متعةً عظيمة - ليس لأنها تدفعُ إليه بالمظلة، بل لأنني نسيتُ المعنى الآخر لكلمة combinaison. وأنظرُ إلى يميني، جهة اليمين تجثمُ باريس التي طالما بحثتُ عنها. إنكَ قد تعرفُ كل شارع في باريس ولا تعرف باريس نفسها. لكنكَ عندما تنسى أين

أنت وبينما المطر يهطلُ ناعماً فجأةً تصلُ أثناء تجوالك إلى الشارع الذي كنتَ قد طرقته مراراً في نومك، ***وهو الشارع الذي تمشي فيه الآن.***

في هذا الشارع بالذات مشيتُ ذات يوم ورأيتُ رجلاً مُلقى على الرصيف. كان مُمدَّداً على ظهره وذراعاه منشورين على طولهما - وكأنما أُنزِلَ عن الصليب لتوّه. لم يقترب منه إنسان، ولا إنسان واحد، ليرى إنْ كان ميتاً أو حياً. كان مُلقى مكانه على ظهره، وذراعاه ممدودتان، ولم تكن تصدر عن جسده أدنى حركة. وحين اقتربتُ من الرجل تأكّدتُ من أنه ليس ميتاً. كان يتنفَّس بتثاقُل ويسيل من فمه خيط رفيع من عُصارة التبغ. وحين وصلتُ إلى المنعطَف توقفتُ لحظةً لأرى ما سيحدث. وما كدتُ ألتفتْ إلى الوراء حتى صافحَتْ أذنيّ نوبةٌ من الضحك. وفجأةً اكتظّت أبواب الدكاكين بالناس، وفي لمح البصر صار الشارع برُمّته يضجُّ بالحيوية؛ رجالٌ ونساء واقفون وأيديهم على خواصرهم، ودموعهم تجري على خدودهم. اقتحمتُ طريقي وسط الحشد الذي تجمَّعَ حول الجسد المنطرح على الرصيف، ولم أفهم سبب اهتمامهم المفاجئ؛ سبب ذلك القصف الذي اندلعَ بينهم فجأةً. وأخيراً تمكّنت من شق طريقي بعد جُهدٍ ووقفتُ بالقُرب من جسد الرجل. كان لا يزال مُستلقياً على ظهره، وهناك كلبٌ يقفُ بجواره يهزُّ ذيله بمرح، وأنفه مدفوناً في فتحة بنطلون الرجل. ولهذا كان الجميع يضحكون. حاولتُ أنْ أشاركهم الضحك، فلم أستطع؛ اجتاحني الحزن؛ حزنٌ مُريع؛ حزنٌ لم أشعر بمثله في حياتي كلها. لا أدري ماذا ألمَّ بي...

أتذكّرُ ذلك كله الآن وأنا أرتقي الشارع المنحدر. لقد حدث ذلك أمام دكان اللحّام المواجه لي تماماً عبر الشارع، الدكان ذو المظلة الحمراء

والبيضاء. وأعبر الشارع لأجدَ على الرصيف المُبلَّل، وفي الموقع الذي استلقى فيه الرجل، جسدَ رجلٍ آخر متمدِّد ومنشور الذراعين. أقتربُ لأراه جيداً. إنه الرجل نفسه، مع فارقِ أنَّ فتحة بنطلونه مُغلقة وأنه ميّت. أنحني فوقه لأتأكَّد تماماً من أنه الرجل نفسه ومن أنه ميت. وأتأكَّد من ذلك قبل أنْ أنهض وأتابعُ تجوالي الشارد. وأتوقَّف عند المنعطف. ماذا أنتظر ؟ إنني أتوقفُ هناك مائلاً على جنبي متوقّعاً أنْ أسمع من جديد قصف الضحك الذي أتذكَّره بحيوية. ولكن لا صوت. ليس في الأفق إنسانٌ واحد. وفيما عداي والرجل المُمدَّد أرضاً أمام دكّان اللحام كان الشارعُ قَفراً. لعلّه مجرّد حلم. أنظرُ إلى إشارة الشارع علّني أرى إنْ كنتُ أعرفُ اسمه، أعني اسماً يمكنني أنْ أميِّزه عندما أستيقظ، وألمسُ الجدار المجاور لي، وأقتطعُ مُزقةً صغيرةً من الإعلان المُلصَق على الجدار. أمسكُ مُزقة الورق بيدي برهةً، ثم أضغطها حتى تصبح كرة صغيرة وأطيِّرها إلى البالوعة، فتقفز بعيداً وتستقرّ في بركةٍ صغيرة موحلة تومض. بات الآن جليّاً أنني لا أحلم. وفي اللحظة التي أؤكِّدُ لنفسي أني يقِظ يتملّكني بردٌ مُخيف. ***فإذا لم أكنْ أحلم فأنا مجنون.*** بل والأدهى من ذلك أني إذا كنتُ مجنوناً فلن أتمكَّن من إثبات إنْ كنتُ حالِماً أم يقظاً. ولكن ربما لم يكن ضرورياً إثبات أي شيء، هكذا قال لي فِكري. المؤكَّد هو أنني الوحيد الذي يشكّ. وكلما فكَّرتُ فيه اقتنعتُ أكثر بأنَّ ما يُقلقني ليس ما إذا كنتُ حالِماً أم مجنوناً، بل ما إذا كان الرجل المنطرح على الرصيف، الرجل ذو الذراعين الممدودَتين هو أنا نفسي. إذا كان ممكناً أن أغادر الجسد في الحلم، أو في الموت، فربما يكون ممكناً مغادرته دائماً. وأنْ أمشي بلاِ هُدى وبلا جسد، لا شيء

يربطني، بلا هوية، وبلا اسم ؛ روح منفلتة، غير مبالٍ بأي شيء، روح خالدة، ربما غير قابلة للفساد، كالله - مَنْ يدري ؟

إنه جسدي *أنا* - الأماكن التي زارها، أماكن لا حصر لها، وكلها غريبة ولا صلة لي بها. الرب أجاكس يجرّني من شعري، يجرّني خلال شوارع نائية في أماكن نائية - *أماكن تُثير الجنون*... كيبك، تشولا فيستا، براونزفل، سوريسنز، مونت-كارلو، تشيرنوفيتز، دارمشتات، كانارسي، كاركاسون، كولونيه، كليشي، كراكو، بودابشت، أفينيون، فيينا، براغ، مارسيليا، لندن، مونريال، ينابيع كولورادو، إمبريال سيتي، جاكسونفل، شين، أوماها، توسون، بلو إرث، تالاهاسي، شامونيكس، غرينبوينت، بارادايس بوينت، بوينت لوما، دورام، جونو، آرل، دييب، اكس لا شابيل، اكسان بروفانس، هافر، نيم، آشفيل، بون، هركيمر، غلنديل، تيكوندروغا، ناراغانسيت، نيورمبرغ، هانوفر، هامبورغ، لمبرغ، نيدل، كالغاري، غالفستن، هونولولو، سياتل، أوته، إنديانابوليس، فيرفيلد، ريتشموند، مبنى بلدية أورانج، كلفر سيتي، روتستر، يوتيكا، باين بوش، كارسون سيتي، ساوثولد، بلو بوينت، خواريز، مينتولا ،سبايتن دايفل، باوتكت، ويلمينغتن، كوغانز بلَفْ، نورث بيتش، تولوز برينان، فونتونيرو، ويدكومب إنْ زامور، موبايل، لوفيسين... في كل مكان من هذه الأمكنة وقع لي أمرٌ مُهلِك. في كل موقع من تلك المواقع تركتُ جثةً على الرصيف ممدودة الذراعين، وفي كل مرة انحنيتُ فوقها لأنظر إلى نفسي، لأطمئن إلى أنَّ الجثة لم تعُد حيّة وأنَّ ما خلّفته ورائي ليس أنا بل ذاتي الأخرى. ***وأواصلُ طريقي - أواصل وأواصل وأواصلُ***. ولا أزالُ حيّاً، ولكن عندما يبدأ المطر بالهطل أثناء تجوالي

أسمعُ خشخشة تلك الذوات الميتة المنسلخة عني وأتساءلُ - ***وماذا بعد*** ؟ قد تظن أنَّ هناك حداً لما يمكن للجثة أنْ تتحمّله، ولكن كلا. إنَّ الجثة تسمو عالياً جداً فوق الألم بحيث إنه بعد أنْ يفنى كل شيء تبقى هناك دائماً قُلامة ظِفر أو كتلة من الشعر تنبُتْ وتلك البراعم الخالدة هي التي تبقى إلى أبد الآبدين. بحيث إنه حتى بعد أنْ تموت وتفنى يبقى جزءٌ مجهريّ منكَ ينبُتْ، وبعد أنْ تصبح المستقبل الماضي الميت يتبقّى جزء صغير حيٌ ينبت من جديد.

وهكذا أقفُ بعد ظهيرة أحد الأيام تحت أشعة الشمس اللاذعة خارج محطة صغيرة في لوفيسيين، وقد بدأ جزء صغير جداً مني حيٌ ينبت. إنها الساعة التي يُبثُّ فيها تقرير البورصة عبر الأثير - أو ***فوق الأثير***، كما يُقال. في المقهى الصغير الكائن على الطرف المقابل للمحطة يختبئ رجلٌ وفي الرجل يختبئ صوت. والصوت، الذي هو صوت رجل أبله مكتمل النمو - يقول - أميركان كان... أميركان تل-أند-تل... "يقول هذا باللغة الفرنسية مما يُضفي عليه مزيداً من الغباء " أميركان كان... أميركان تل-أند-تل... " وفجأةً، وكما حدث عندما صعد يعقوب السلّم الذهبي، انطلقت أصوات السماء كلها. وكحمّةٍ تنبعُ من أرضٍ جرداء هكذا ينبثق المشهد الأميركي - المعلّبات الأميركية، مؤسسة البرق والهاتف الأميركية... شركة الأطلسي والهادئ، ستاندارد أويل، يونايتد سيجارز، الأب جون، ساكو وفانزيتي، يونيدا بسكت، الخطوط الجوية الساحلية، سابوليو، نيك كارتر، تريسكي فريغانزا، فوكسي غراندبا، ذا غولد دست توينز، توم شاركي، فاليسكا سورا، كومودور شلي، ميل دو ليون، ثيدا بارا، روبرت إ. لي، نيمو الصغير، ليديا بينكام، جس

جيمس، آني أوكلي، دايموند جيم برادي، شليتز-ميلووكيب، همب سينت لويس، دانيـيل بون، مـارك هانّا ، ألكسندر بوي، كـاري نيـشـن، مـيـري بيـكر إيدي، بوكـاهانتس، فـاتي أربكل، روث سنايدر، ليـليـان رسل، سلايدنغ بيلي واطسن، أولغا نذرسول، بيلي صنداي، مارك توين، فريمن و كلارك، جوزيف سميث، باتلنغ نلسن، إيمي سمبل مكفرسون، هوراس غـريلي، بات روني، بيـرونا ، جون فـيليب سـوزا ، جاك لـندن، بيب روث، هاربيت بيـتـشـر سـتـاو، آل كابـوني، أيب لنكولـن، برايام ينغ، ريب فـان وينكـل، كـريزي كـات، ليـغـيـت و مـايرز، ذا هولروم بـويز، هـورن و هاردارت، فـولر براش، ذا كـاتزنجـامـر كـيـدز، غلومي غـص، تومـاس إديسون، بوفـالو بيل، ذا يلو كيـد، بوكر تي واشنطن، تشـولكوتز، آرثر بريسبين، هنري وارد بيتشر، إرنسيت سيتون تومبسن، مارغي بينيتي، وريغليـز سـبيـرمنت، أنكل ريموس، سفـوبـودا ، ديفـيـد هاروم، جـون بول جونز، غـريب نطس، أغوينالدو، نل برينـكلي، بيسي ماكوي، تود سلون، فريتز شيف، لافكادو هيرن، آنا هلد، ليتل إيفا ، أوميـغا أويل، مـاكسين أويل، أوسكار هامرستاين، بوستوك، ذا سميث بروزرز، جيسكو، كلارا كـيـمـبل ينغ، بول ريفـيـر، صـمـويـل غـمـبـرز، مـاكس ليندر، إلا ويلر ويلكوكس، كـورونا-كـورونا ، أنكاس، هنري كـلاى، وولوورث، باتريك هنري، كريمو، جورج سي. تيليـو، لونغ توم، كـريستي مـاثيـوسن، أديلين جيني، ريتشـارد كارل، سويت كابوراز، بارك و تيلفوردز، جين إيغلز، فاني هرست، أولغا بتروفا ، بيل و تاون، تيري مكغفرن، فريسكو، ميري كاهيل، جيـمس جـ. جيـفـريز، ذا هوسـاتونيك، دريملاند، ب. ت بارنوم، لونا بـارك، هيـواثـا ، بيل ناي، بات مكارن، ذا رف رايدرز، ميـشـا إلمن،

ديفيد بيلاسكو، فاراغتس، القرد الكثيف الشعر، مينيهاها، آرو كولارز، صنرايز، صن أبْ، ذا شيناندوه، جاك جونسن، ذا ليتل تشيرش أروند ذا كورنر، كاب كالاواى، إلين هامرستاين، كيد ماكوي، بن آمي، أويدا، بكس باد بوي، باتي، يوجين ف. ديبس، ديلاوير و لاكاوانا، كارلو تريسكا، تشاك كونورز، جورج آد، إما غولدمان، سيتنغ بول، بول دريسلر، تشايلز، هربرتس ميوزيوم، ذا بَمْ، فلرانس ميلز، ذا ألامو، بيكوك آلي، بوماندر ووك، ذا غولد رش، شيبسهد باى، ستراتغلر لويس، ميمي أغوغليا، ذا باربر كارتر، ذا بوليس غازيت، كارترز ليتل ليفر بيلز، بستانوبيز، بول وجو، وليم جننغز براين، جورج م. كوان، سوامي فيفيكانادا، ساداكيتشي هارتمن، إليزابث غرلي فلين، ذا مونيتور و ذا مايماك، سنوفي ذا كايمان، دوروثي ديكس، أماتو، ذا غريت سيلفستر، جو جاكسون، باني، إلسي جانيس، أيرين فرانكلن، ذا بيل ستريت بلوز، تد لويس، واين، وومن أند صن، بلو ليبل كتشب، بيل بيلي، سيد أولكوت، في غلومنغ جنفييف وبعيداً جداً على ضِفاف نهر واباش...

كل ما هو أميركي يأتي باندفاع. وبكل اسم مذكور يتّصل ألف تفصيلٍ حميم من حياتي. وكل فرنسي يمرُّ بي في الشارع سوف يشكُّ في أني أحملُ داخلي قاموساً للأسماء ؟ وكل اسم له صِلة بحياة وموت ؟ حين أنزل إلى الشارع وأنا مُنتشٍ فهل يعرفُ أي ضفدع في ***أي*** شارعٍ أسير ؟ هل يعرف أني أسير على سور الصين العظيم ؟ لا شيء مُسجَّل على وجهي - لا المعاناة، ولا الفرح، ولا الأمل، ولا اليأس. أمشي في الشوارع حاملاً وجه حمّال عادي. لقد شهدتُ أرضاً تُخرَّب، ومنازل

تُدمَّر، وعائلات تُمزَّق. كل مدينة عبرتُها قتلتني - كان بؤسي بلا حدود، وكدّي المتواصل بلا نهاية. انتقلتُ من مدينةٍ إلى أخرى، مُخلّفاً ورائي موكباً هائلاً من الموتى والذوات المُقعقعة. أما أنا نفسي فواصلتُ وواصلت وواصلتُ. وطوال الوقت أسمع الموسيقيين يدوزنون آلاتهم...

في الليلة الفائتة كنتُ أتمشّى من جديد في الحي الرابع عشر. ومن جديد صادفتُ معبودي إيدي كارني، الشاب الذي لم أره منذ تركتُ الحي القديم. كان طويلاً ونحيلاً، ووسيماً على الطريقة الأيرلندية. لقد استحوذ على جسمي وروحي. كانت هناك ثلاثة شوارع - الشمالي الأول، وفيلمور بليس وجادّة دريغز. وتلك الشوارع كانت ترسم حدود العالم المجهول. وخلفه كانت الأرض اللا محدودة، التي لا أرض بعدها. كان ذلك عصرَ سان خوان هيل، وفري سيلفر، وبينوكيو، ويونيدا. في الحوض، ليس بعيداً عن سوق والابوت، ترسو البارجة الحربية. هناك شريط إسفلتي مجاوراً لحافة الشارع يسمح لراكبي الدراجات للانعطاف نحو كوني آيلند والعودة منها. وكان داخل كل حزمة من حلويات كابورال صورة فوتوغرافية، أحياناً لامرأة خليعة، وأحياناً أخرى لمُصارع، وأحياناً لعلَم. ومع اقتراب المساء يُمرِّر بول سوير علبة من القصدير من خلال قضبان نافذته ويهتف طالباً السوكروت النيئ. أيضاً مع اقتراب المساء كان لستر ريردون، المتكبّر، الشبيه بأمير، ذو الشعر الذهبي، يسير من منزله ماراً بدكان الخبّاز - وهو حَدَثٌ كان على قدرٍ عالٍ من الأهمية. في الحي الجنوبي تقع منازل المحامين والأطباء، والسياسيين، والممثلين، ومبنى الإطفائية، وقاعة إقامة الجنازات، والكنائس البروتستانتية،

ومسرح المنوعات، والنافورة ؛ وفي الحي الشمالي يقع مصنع القصدير، ومصانع الحديد، وعيادة الطبيب البيطري، والمقبرة، والمدرسة، ومركز الشرطة، والمشرحة، والمسلخ، وصهاريج الغاز، وسوق السمك، والنادي الديموقراطي. ولم يكن هناك إلاّ ثلاثة رجال يُخشى جانبهم - العجوز رامسي، تاجر الأناجيل، وجورج دانتون المجنون، البائع المتجول، ودوك مارتن، مُبيد البق. كانت النماذج مميَّزة بشكلٍ واضح : المهرجون، سكان الأرض، المُصابون بجنون العَظَمة، والمفرطو الحساسية، ومعلّمو أسرار الدين، والكادحون، والحمقى، والسكارى، والكذّابون، والمنافقون، والعاهرات، والساديون، والخنوعون، والبخلاء، والمتعصبون، والمتبولون، والمجرمون، والقديسون، والأمراء. كان جيني مين ظهراً للمتسلّقين من القِرَدة ؛ وألفي ليتشا مُحتالاً، وجو غولر مُخنثاً. ستانلي كان صديقي الأول. ستانلي بوروفسكي. أول شخص " آخر " أميِّزه. كان قِطاً برياً، لا يعرف غير المِشحذ الذي تركه له العجوز في خلفية دكان الحلاقة قانوناً. حين كان العجوز يجلده بالحزام كنتَ تسمعُ صراخه يكاد يخنقه. في هذا العالم كان كل شيء يُنفَّذ على المكشوف ؛ في وَضَح النهار. وعندما جُنَّ سيلبرشتاين صانع الملابس الداخلية مدَّدوه على الرصيف أمام منزله وألبسوه سترة المجانين. وزوجته، التي كانت حُبلى، أصابها رعب شديد حتى إنها طَرَحَتْ ابنها على رصيف الشارع إلى جوار أبيه. والأستاذ مارتن، مُبيد البقّ، كان قد عاد للتو من منزله بعد غيابٍ طويل أمضاه في الإسراف في معاقرة الخمر. كان في جيبيّ معطفه حيوانان من نوع ابن مقرض فرَّ أحدهما منه، فطارد ستانلي بوروفسكي ابن مقرض حتى

غاص في المجرور فنال عيناً سوداء في التو واللحظة من ابن البروفسور مارتن هاري الذي كان شبه معتوه. وعلى السقيفة الكائنة فوق دكان بيع الدهانات، على الطرف المقابل من الشارع، كان ويلي مين واقفاً وقد أنزل بنطاله، وأخذ يهتز يرقص ابتهاجاً بالحياة العزيزة، وهو يقول " بيورك، بيورك ! بيورك ! ". فجاءت سيارة الإطفاء ووجّهت خرطوم الماء عليه. استدعى والده، السكّير، رجال الشرطة، فجاؤوا وكادوا يقتلون الوالد من شدة ما أشبعوه ضرباً. في تلك الأثناء، وعلى مسافة قريبة، كان بات ماكارن واقفاً على البار يوزع الشمبانيا على أقرانه. وكانت فترة الصباح قد انقضت وكدَّسَتْ عاهرات ماخور " بَمْ " أصدقائهنّ من البحارة في الغرفة الخلفية . وكان جورج دانتون المجنون يقود عربة الخيل المُغطّاة في الشارع، حاملاً سوطاً بيد وباليد الأخرى الكتاب المقدس. وكان يزعق بأعلى صوته المجنون " وكما فعلتَ ذلك مع أقل إخوتي شأناً كذلك أفعله معي أيضاً "، أو ما شابه من هذا الهراء. وكانت السيدة غورمن واقفة عند ممر الباب بردائها القذر، وثدياها شبه مكشوفَين، وتغمغم " تش تش تش ! ". كانت عضواً في كنيسة الأب كارول الواقعة في الحي الشمالي. " صباح الخير يا أبت، الجو جميل هذا الصباح ! "

في مساء هذا اليوم، وبعد تناول طعام العشاء، استعدتُ ذِكرى هذا كله - أعني الموسيقيين والرقصة التي كانوا يستعدون لعزفها. وكنا قد أعددنا وليمة متواضعة لأنفسنا ، أنا وكارل. وجبة تألّفت بأكملها من ما لذَّ وطاب : فجل، زيتون أسود ، بندورة، سردين، جبن، خبز يهودي، موز، صلصة التفاح، ليترين من النبيذ الجزائري، عيار أربع عشرة دَرَجة. كان

الجو في الخارج دافئاً وساكناً. جلسنا بعد تناول الوجبة ندخّنُ برضا، وعلى أتمّ الاستعداد للاستغراق في غفوة. كانت الوليمة رائعة والكراسي القاسية مُريحة جداً والنور يخبو والسكون يلفُّ أعالي الأسقف وكأنَّ المنازل نفسها تتنفَّس من خلال فتحات التهوية فيها. وكغيرها من الليالي، وبعد أنْ جلسنا صامتين فترة من الزمن والغرفة شبه غارقة في الظلام، بدأ فجأةً يتحدَّث عن نفسه، عن شيءٍ في الماضي بدأ وسط الصمت وكآبة المساء يتجسَّد، ليس بواسطة الكلمات بالتحديد، لأنَّ ما كان يحاولُ أنْ ينقله إليَّ يتجاوز الكلمات. أعتقد أني لم أسمع كلمة واحدة مما قاله، بل سمعتُ الموسيقى التي كان يُصدِرها - نوعاً من الموسيقى الحلوة كالتي تتناهى من الغابة ويستحضرها النبيذ الجزائري والفجل والزيتون الأسود. تحدَّثَ عن أمه، وكيف خرجَ من رحمها، ومن بعدِه أخوه وأخته، وكيف اندلعت الحرب وأمروه أنْ يُطلِق الرصاص فلم يستطع أنْ يفعل، وعندما انتهت الحرب فتحوا بوابات السجن أو المصحّ العقلي أو مهما كان اسمه وخرج حراً كعصفور. أما كيف كان كل ذلك يُراقُ منه فهذا ما لم أعُدْ أستطيع تذكُّره على الإطلاق. تحدثنا عن ***الأرملة الطروب*** وماكس ليندر[٥٧]، عن ثرثار فيينا - وفجأةً إذا بنا في قلب الحرب الروس-يابانية وكان هناك ذلك الصيني الذي يذكره كلود فارير في La Bataille. ويبدو أنه قد قيلَ شيء عن الصيني غاصَ إلى

---

٥٧ - ماكس ليندر (١٨٨٣ - ١٩٢٥) : مخرج وممثل فرنسي . رائد ممثلي الكوميديا في السينما . لم يكن أداؤه سطحياً ومُبالغاً فيه على طريقة تلك الأيام ، وكان يصرّ على أداء الحركات الخطرة والصعبة بنفسه ، وكان شديد الفضول ويصرّ على التعلُّم . قلَّده تشارلي تشابلن في أفلامه الأولى . في سن الثانية والأربعين قتل زوجته ثم انتحر

أعـمـاقـه لأنه حين فـتح فـمـه من جـديد وباشـر خطابه ذاك عن أمـه، وعن رحمها، ومـجيء الحرب وتحرّره كالعصفـور أدركتُ أنه قد عاد إلى الماضي وأوغلَ فيه وكدتُ أخشى أنْ أتنفّس مخافة أنْ أعيده إلى الواقع.

سمعتـه يقول ***حرٌ كعصفور***، ومع هذه العـبارة فُتِحَتْ البوابـات وخرج رجالٌ آخرون، كلهم سالمون مُعافـون وبهم شيء من البلاهة من طول الحجز وتوتُّر من انتظار نهاية الحرب. وحين فُتِحَتْ البوابات كنتُ قد عدتُ أهيمُ على وجـهي في الشـوارع وإذا بسـتـانلي جـالس إلى جـانبي على الدَرَجـة الصغـيرة أمـام المنزل حـيث أكلنا الخبـز الفـاسد في المسـاء. وفي الشـارع بدت كنيسـة الأب كـارول نائيـة. وعـاد الليـل من جديد وقـرعت النواقـيس استدعاءً لإقامة صلاة المساء. وها نحن أنا وكارل جالسان وجهاً لوجه في كآبةٍ تلمُّ شملنا، صامتان وتخيّم علينا السكينة. إننا جالسان في كليشي وقد مرَّ زمن طويل على انتهاء الحرب، لكنَّ هناك حرباً أخرى قادمة على الطريق وتكمـن في الظلام. وربما كـان الظلام هو الذي دفعـه إلى التـفـكير في رحِمِ أمـه وفي الليـل الذي يحثُّ خطاه، الليـل الذي سـتـقفُ فـيه وحـيداً ومـهـمـا عَظُمَ رعـبُكَ يجب أنْ تـقف وحـيداً وتتـحمَّل مـسـؤوليـة الأمـر كله. كان يقول : " لم أكن أريد الالتحاق بالحرب. اللعنة، لقد كنتُ في الثامنة عشرة ". وهنـا سُمِعَ صوت الفونوغراف يعزف فالس ***الأرملة الطروب***. في الخارج كل شيء هادئ وساكن - كـمـا كـان الحـال قُبيل الحرب مـباشرة. وعلى دَرَج السلّم يـهمس لي ستـانلي بشيٍ عن الله. الله ***الكاثوليكي***. لا يزال هناك في الوعاء بعض الفجل وكارل يقرضه في الظلام، ويقول "رائعٌ أنْ نكون أحياء، مـهـمـا بلغَ المرء من الفقر ". أكاد لا أراه إلا وهو يغـمس

يده في الوعاء ليتناول فجلة أخرى. ما أجمل أنْ نكون أحياء ! ومع هذه العبارة يضعُ فجلة في فمه وكأنه يُقنِع نفسه بأنه لا يزالُ حياً وحراً كعصفور. والآن يُزقزقُ الشارع برُمّته داخلي، حراً كعصفور، وأرى من جديد الأولاد الذين ستُنسَفُ رؤوسهم لاحقاً وتُنتَزَع أحشاؤهم - أطفال مثل ألفي ليتشا، وتوم فاولر، وجوني دَنْ، وسيلغستر غولر، وهاري مارتن، وجوني بول، وإيدي كارني، ولستر ريردن، وجورج مين، وستانلي بوروفسكي، لويس بيروسو، وروبي هيسلوب، وإيدي غورمن، وبوب مالوني. أولاد الحي الشمالي وأولاد الحي الجنوبي - كلهم تدافعوا ليُشكّلوا ركاماً من الروث وأحشاؤهم تتدلى من الأسلاك الشائكة.

رائعٌ جداً أنْ نكون أحياء وأحرار كالعصافير. لقد فُتِحَتْ الأبواب وأستطيع أنْ أذهب إلى حيث أشاء. ولكن أين إيدي كارني ؟ أين ستانلي ؟

*

هذا هو الربيع الذي غنّاه يسوع، والإسفنجة على شفتيه، والضفادع ترقص. في كل رحم تُطرَق حوافر حديدية، وفي كل قبر يُسمَع هدير أصداف فارغة. قبو الألم الفاسق يعجُّ بديدان الملائكة المتدلية من رحم السماء الهابط. في جسد الحوت الأخير هذا يُصبحُ العالم كله قُرحاً جارياً. وحين ينُفَخُ في الأبواق بعد ذلك سيكون الأمر كالضغط على زر : وأثناء سقوط الإنسان الأول سيجرّ معه التالي، ثم التالي فالتالي وهكذا حتى آخر الطابور، وحول العالم، من نيويورك إلى ناغازاكي، ومن القطب إلى القطب. وحين يسقط الإنسان سوف يجر معه الفيل والفيل

سيجر معه البقرة والبقرة ستجرُ معها الحصان والحصان سيجرّ معه الحَمَل، والجميع سيسقطون، واحداً قبل آخر، وواحداً بعد آخر، كصفٍ من جنود القصدير تذروهم الرياح. سوف ينطفئ العالم كانطفاء شمعة رومانية. لن تنمو ورقة عشب واحدة بعد ذلك. جرعة قاتلة لا قيام بعدها. سلام وليل، لا يعكّره أنين أو همس. ظلام رقيق، كئيب، رفرفة أجنحة بلا صوت.

مُحاكاة ساخرة

الآن يعمل هدوء شيفيننغن عمله كمُخدِّر

أقفُ على البار وأنظرُ إلى العاهرة الإنكليزية التي فقدت أسنانها الأمامية كلها، وفجأةً تومضُ في ذاكرتي عبارة : ***لا تبصق على الأرض*** ! أستعيدها كحُلم : ***لا تبصق على الأرض*** ! حدث ذلك في بار فريدي الكائن في شارع بيغال، وكان هناك رجلٌ يرتدي قميصاً حريرياً أبيض بكُمين سائبَين متدليين قد أطلقَ صيحةً عبر الأثير " الوداع يا مكسيك!". قالتْ إنها لم تعُد تفعل الكثير الآن، وتكتفي بالتسكُّع. كانت من بيغ برودكاست وقد أُصيبَتْ بمرض الحافر والفم[٥٨]. كانت تهرع رائحة غادية من المرحاض وإليه عبر ستائر من الخرَز. كانت القيثارة منتفخة، كملائكة تتبوَّل في البيرة التي تشربها. كانت ثملة قليلاً وتحاول أنْ تتصرَّف كسيدة محترمة في الوقت نفسه. في جيبي رسالة من رجل هولندي مجنون ؛ كان قد عاد قريباً من صوفيا. قال فيها " في ليلة يوم السبت كان لدي أمنية واحدة وهي أنْ تجلس إلى جواري " (لم يقُلْ ***أين***)، " والشيء الوحيد الذي أستطيع أنْ أكتبه لك هو ما يلي - بعد مغادرة آلة نيويورك بضجيجها الصاخب فإنَّ هدوءَ بلدةٍ مثل شيفنينغن يعمل عمل المُخدِّر ". في صوفيا كان مُفلِساً واتّخذ من مغنية الأوبرا

---

٥٨ - مرض الحافر والفم : مرض فيروسي يُصيب الأطفال ، أعراضه قليلة وينتج عنه ألم في اللثة واللسان ، وفي كفّ اليد والأصابع وفي أخمص القَدم ، والمرض يستمر نحو أسبوع ثم يزول دون أعراض خطيرة

الأولى في دار الأوبرا عشيقة له. وذلك، كما قال، قد منحه النوع الصحيح من السُمعة المتحررة ليعثر على التميُّز في الرأي العام في صوفيا. ويقول إنه ينوي أنْ يتقاعد وسوف يبدأ حياةً جديدة رزينة - في شيفنينغن.

لم ألقِ نظرةً واحدة على الرسالة طوال السهرة، ولكن حين فتحتْ العاهرة الإنكليزية فمها ووجدتُ أنَّ أسنانها الأمامية كلها مفقودة عادتْ إلى ذاكرتي - ***لا تبصُقْ على الأرض*** ! كنا نتجوَّل في حي الأقليات، أنا والهولندي المجنون، وكان هو يرتدي بذلته الرسمية الخاصة بساعي البريد. كان قد سلَّم جميع الرسائل وكان حُراً بقية السهرة. وتوجّهنا إلى مقهى رويال لنجلس ونشرب كأساً أو كأسين من البيرة بهدوء. كنتُ أسمحُ له بالجلوس وتناول البيرة معي لأنني كنتُ رئيسه ثم أنه كان حراً ويستطيع أنْ يفعل ما يشاء وقت فراغه.

تمشّينا في الشارع الثاني، قاصدين جهة الشمال، وفجأةً لاحظتُ واجهة محل فيها صليب مُنار وعليه عبارة تقول " كل مَنْ يؤمن بي لن يموت... " فولجنا وكان هناك رجل واقف على منصّة ويقول : " يا آنسة باور، استعدي للغناء ! هيا الآن، أيها الأخوة، مَنْ سيشهد ؟ نعم، الترنيمة رقم ٧٣. بعد الاجتماع سوف نقوم جميعاً بزيارة أختنا المُبتلية، السيدة بلانشار. دعونا نقف أثناء ترتيلنا الترنيمة رقم ٧٣، " ***ربي ثبِّتَ قدميَّ على الأرض العليا*** ". وكما قلتُ قبل قليل، حين رأيتُ مُصلِح برج الكنيسة وهو يدهن البرج الجديد حتى يصير براّقاً نظيفاً اندفعت كلمات تلك الترنيمة القديمة المحبوبة إلى شفتيّ : ***ربّي ثبّتْ قدميَّ على الأرض العليا*** !

كان المكان ضيّقاً جداً وتوجد لافتات في كل مكان - " الرب يرعاني، ولن أكون فقيراً "، الخ. أما اللافتة الدائمة فكانت تلك

المكتوبة فوق المذبح : ***لا تبصقْ على الأرض.*** كان الجميع يرتّلون الترنيمة رقم ٧٣ على شَرَف برج الكنيسة الجديد. كنا واقفين على الأرض العليا وقد استمتعتُ بمرأى اللافتات الموجودة على الجدار، وخاصةً تلك الموجودة فوق المنبر - ***لا تبصقِ على الأرض.*** كانت الأخت بويل مُستغرقة في العزف على الأرغن : بدتْ نظيفة وروحانية. كان الرجل الواقف على المنصّة يرتّل بصوتٍ أعلى من أصوات الآخرين ورغم حفظه للكلمات عن ظَهر قلب إلاّ أنه حمل كتاب الترانيم أمامه وراح يرتّل من النوتة. بدا أشبه بحدّادٍ وقفَ بديلاً لواعظ نظامي. كان صوته عالياً جداً ورصيناً، وبذل أقصى طاقته، ما بين الترنيمة والأخرى، ليحثَّ الناس على بذل كل ما لديهم من جُهد. وبين آنٍ وآخر كان رجلٌ ذو صوتٍ يصرُّ صريراً حداً يقول كأنه مزمار : " احمدُ الله على قوته المُنقِذة والحافظة ! "

آمين ! المجد ! المجد ! هاللويا !

وهدر صوت الحدّاد " هيا الآن، مَنْ سيشهد ؟ أنت، أيها الأخ إيتون، ألا تشهد ؟ "

نهضَ الأخ إيتون واقفاً وقال برصانة " لقد اشتراني بثمن "

آمين ! المجد ! المجد ! هاللويا !

الأخت بويل تُجفف يديها بمنديل، بطريقة روحانية. وبعد أنْ تُجفف يديها تنظر بنظرة جوفاء إلى الجدار الماثل أمامها. بدَتْ وكأنَّ الرب قد مسحها بالزيت تواً. مشهد روحاني صِرف.

الأخ إيتون الذي اشتُريَ مقابل ثمن يجلسُ هادئاً وذراعاه معقودان، والحدّاد يشرح أنَّ الأخ إيتون قد اشتُريَ بثمن دم المسيح العزيز المُراق على الصليب، وكان موجوداً على تمثاله المصلوب. وهو يريدُ من آخر أنْ يشهد، ***شخص آخر، من فضلكم*** ! بعد قليل، هكذا يشرح قائلاً، سننزل إلى أسفل معاً لنُلقي النظرة الأخيرة على ابن الأخت بلانشار العزيز الذي توفي في الليلة الفائتة. ***هيا الآن، مَنْ سيشهد*** ؟

ويقول صوتُ مرتعش " أيها الناس، أنتم تعلمون أني لستُ جديراً بالشهادة "، ولكن هناك بيت من الشِعر عزيز على قلبي كثيراً... عزيز جداً. إنه الكولوسيوس الثالث. اثبَتوا واشهدوا خلاص الرب. فقط اثبتوا، أيها الأخوة. فقط اهدؤوا. حاولوا ذلك أحياناً. اركعوا على رُكبكم وحاولوا أنْ تفكّروا ***فيه***. حاولوا أنْ تُصغوا ***إليه***. ***دعوه*** يتكلّم. يا أخوتي، إنه عزيز جداً عليّ - الكولوسيوس الثالث. ***اثبتوا واشهدوا خلاص الرب*** "

أنصتوا ! أنصتوا ! المجد ! الحمد لله ! هاللويا !

ويمسح وجهه. " أيتها الأخت بويل، استعدي للترنيمة التالية ! وقبل أنْ نذهب لنُلقي النظرة الأخيرة على ابن الأخت بلانشار العزيز، دعونا نشترك في إنشاد ترنيمة أخرى : ***أيُّ صديقٍ لنا في يسوع*** ! وأعتقد أننا جميعاً نحفظها عن ظهر قلب. أيها الناس، إذا لم تغتسلوا بدمِ الحَمَل فلن ينفعكم أنْ تُسجّلوا أسماءكم في الدفاتر الموجودة هناك في الأسفل. لا تخذلوه ! تعالوا إليه هذا المساء، أيها الناس... ***هذا***

المساء ! والآن، هيا جميعاً - ***أيٌ صديقٍ لنا***... الترنيمة رقم ٩٧... ***أي صديقٍ لنا في يسوع***... "

كل شيء مُعَدّ. وسننزل جميعاً لنُلقي نظرة على جثمان ابن الأخت بلانشار العزيز. كلنا - كولوسيّون، مُراؤون، متغطرسون، قططٌ مرحة، أصوات سوبرانو مبحوحة - كلنا سننزل لنُلقي نظرة أخيرة. لا أعلم ماذا حدث للهولندي المجنون الذي رغِبَ في شرب كأس من البيرة. سننزل إلى أسفل إلى ابن الأخت بلانشار كلنا دفعة واحدة - الجيوك والكاليكاك، الترنيمة رقم ٧٣ **ولا تبصق** على الأرض ! أيها الأخ بريتشارد، أطفئ الأنوار ! وأنتِ أيتها الأخت بويل، أعدّي النشيد التالي، الوداع يا مكسيك ! ها نحن هابطون إلى أسفل إلى حيث ابن الأخت بلانشار. سنهبط لكي نُثبِّتْ أقدامنا على الأرض العليا. هنا أنفٌ مفقود، وهناك عينٌ مُقتَلَعة. المُنكفئ، المُصاب بالزكام، المنزوع الصفراء، الحلو، الروحاني، المُدوِّد والمخبول. كلهم هبطوا دفعةً واحدة ليدهنوا برج الكنيسة فيصبح برّاقاً ناصِعاً. كلهم صديق ليسوع. كلهم ثابتون في وِقفتهم ليشهدوا خلاص الرب. سيُمرِّر الأخ إيتون القبعة على الجميع، وستمسح الأخت بويل البصاق عن الجدران. كلهم مُشتَرَى بثمن، ثمن سيجار جيد. الآن أصبحَ هدوء بلدة شيفيننغن يعملُ عمل مُخدِّر. كل الرسائل سُلِّمَتْ. الذين يُفضّلون حرق جُثثهم سنجدُ لهم بضع كُوى لائقة من أجل وضع أوعية الرماد. إنَّ ابن الأخت بلانشار العزيز الميت والمُسجّى على الجليد، أصابع قدميه تنبت. إنَّ مكان الأضرحة الضخمة يفسحُ مجالاً للعائلات والأصدقاء لكي يستلقوا جنباً إلى جنب في حُجيرة ناصعة كالثلج، منبوذة ومرتفعة عن سطح الأرض لا يدخلها ماء ولا رطوبة ولا تراب.

*

أتحرَّك باتجاه الحديقة الشتوية الوطنية بسيارة أجرة صفراء. هدوء شيفنينغن يعمل عمله عليّ. حروف كالموسيقى في كل مكان والحمد لله لحفظِه القوة وصيانتها. في كل مكان ثلجٌ أسود، وفي كل مكان شعر مستَعار أسود وقذر. **راقِب هذه النافذة وترقَّبْ صَفَقات مُستهلَكة قليلاً! المجد! المجد! هاللويا!**

الفقر يتمشّى مُرتدياً معاطف فرو. حمّامات تركية، حمّامات روسية، وأحواض استحمام نصفيّة[٥٩]... حمّامات، حمّامات، ولا نظافة. كلارا بو تمنحُ "حبّاً باريسياً". شبح جاكوب غوردن يمشي متشامخاً في سهول التُندرا المُشبعة بالدماء. يبدو على كنيسة القديس ماركس-في-البويري المرح كصُرصار. جدرانها منحوتة بشكلٍ جميل ومدهونة بسكاكر التوتي فروتي. **بناء الجسور... أسعار معقولة.** موسكوفيت يُدغدغُ آلة التشيمبالون والتشيمبالون يُدغدغُ فخذ ليو تولستوي البارد والمخزَّن والذي تحوَّلَ الآن إلى مطعمٍ للنباتيين. انقلَبَ داخل الكوكب إلى الخارج وظهرت عليه ثآليل، وبثور، ونقاط سوداء، وأكياس دهنية. جميع المستشفيات هي قيد الإصلاح، والدخول مجّاني، من الباب الجانبي. إلى كل الذين يتألمون، إلى كل المُرهقين والمُثقلين بالهموم، إلى كل ابن حرام يموت من الأكزيما، والبَخر، والغرغرينا، والاستسقاء، نذكُر ونختُم ونؤكِّد أنَّ الدخولَ من البابِ الجانبيّ مجّاني. تعالوا جميعاً! تعالوا، أيها الكاليكاك المتباكون! تعالوا، أيها المتملّقون ذوو الأنوف التي تسيل مُخاطاً! تعالوا وجدّدوا أحشاءكم، تعالوا أقلّ من السعر العادي للدفن. تعالوا هذه الليلة! يسوع يريدكم. تعالوا قبل فوات الأوان - فنحنُ نُغلق الأبواب في الساعة السابعة والربع بالضبط.

---

٥٩ - الحمّام النصفي : هو الذي يستحمّ فيه المرء وهو قاعد

كليو، دلوعة الآلهة، ترقص كل ليلة. ***يا مو***[٦٠]، ***أنا قادم ! يا مو، أريد أنْ ألجو*** ! إنني أصعد السلّم يا مو.

المجد ! المجد ! كولوسيوس ! كولوسيوس ٣.

يا أم المقدسات كلها، أنا الآن في السماء. أقفُ خلفَ الوقوف الواقفون خلف حرف Z من أجل كلمة Zebra (حمار الوحش). القسّ الأسقفي واقف على دَرَج الكنيسة بمعي مكسور. تقول اللافتة - ممنوع الوقوف. الأخوة مينسكي[٦١] واقفون في شباك التذاكر يحلمون بنهر شانون. الباتّة نيوز[٦٢] (Pathe News) تطقطق كجوزة طيب فارغة. في جبال الهيمالايا ينهضُ الكهنة في منتصف الليل لكي يُصلّوا من أجل جميع النيام بحيث إذا استيقظ جميع الرجال والنساء في العالم صباحاً استطاعوا أنْ يبدؤوا يومهم بأفكارٍ نقيّة، ورقيقة وشجاعة. ويتمُّ استعراضُ العالم في الصحف : القديس موريتز، ممثلو أوبراميرغو[٦٣]، أوديب الملك، كلاب التشو، السيكلون، المستحمّات. إنَّ روحي في حالة

---

٦٠ - يا مو : يا أماه ، يا ماما ، يا أمي

٦١ - الأخوة مينسكي : أربعة أخوة افتتحوا خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها مسرح منوعات يعتمد على العروض المبتذلة والتعرّي والنكات البذيئة - وحققوا نجاحاً واسعاً

٦٢ - الباته نيوز : نشرة تزود بأخبار الفنون والفنانين في كل المجالات .

٦٣ - أوبراميرغو : اسم قرية في بافاريا في ألمانيا ، تُقدَّم فيها في كل عام مسرحية تمثّل آلام المسيح

سكينة. لو كان معي كأس من البيرة وشطيرة من لحم الخنزير لأصبح يسوع حينئذٍ صديقاً رائعاً ! على أي حال، الستارة ترتفع. كان شكسبير على حق - ***الاستعراض هو المهم*** !

والآن، سيداتي سادتي، ترتفع الستارة عن أنظف وأسرع استعراض قُدِّمَ حتى الآن في النصف الغربي من الكرة الأرضية. الستارة ترتفع، سيداتي سادتي، عن تلك الأقسام من عِلم التشريح المُسمّاة على التوالي الشرسوفيّ، السريّ، والخثليّ. هذه الأجزاء المختارة التي خفَّضَ سعرها حتى دولار وثمانية وتسعين سنتاً لم تُعرَض من قبل أمام الجمهور الأميركي. لقد جاء مينسكي، ملك اليهود، خصّيصاً من شارع لابيه. إنه أنظَف وأسرع عرض أُقيم في نيويورك حتى الآن. والآن، سيداتي سادتي، بينما الدلاّلون يرشّون المكان بالماء ويُبخّرونه، سوف نعرض عدداً من البطاقات البريدية الفرنسية كلها مضمونة الأصالة. ومع كل بطاقة بريدية سنعرض أيضاً مِجهراً ألمانياً يدويّ الصُنع وأصيلاً، صَنَعَه اليابانيون في زيوريخ. إنه، أيها السيدات والسادة، أسرع وأنظف استعراض في العالم، كما يقول مينسكي، ملك اليهود، لنفسه. الستارة ترتفع... الستارة ترتفع...

تحت جنح الظلام ينشر الدلاّلون القمل الحيّ والميت وصِغار القمل وبيضه مدفون بين خُصَل شعر أولئك الذين لا يملكون حمّامات خاصة بهم المُشرّدون وهي خُصَل سميكة حالكة السواد، وهم يهود الحيّ الشرقي، المشرّدون المساكين الذين يتسكّعون بمعاطف الفرو على الرغم من فقرهم المُدقع الذي لا خلاص منه ويبيعون الكبريت وأربطة الأحذية. في الخارج

يشبه المكان إلى حدٍ بعيد ساحة الفوسغ[٦٤] أو الهيماركت[٦٥] أو كوفنت غاردن[٦٦]، عدا أنَّ أولئك الناس مؤمنون - بآلة بوروز لحساب الجمع. سلالم الحريق مُزدحمة بالنساء الحوامل اللواتي نفخنَ أنفسهنّ بمنافيخ الدراجات. وجميع يهود الحي الشرقي المساكين البؤساء سعداء وهم على سلالم الحريق لأنهم يأكلون شطائر لحم الخنزير ويضعون قدماً على السُحُب. الستارة ترتفع إثر انبعاث عبق الفورمالدهايد المُحلّى مع علكة رينغلي بنكهة النعناع، في كل علبة خمس قِطع. الستارة ترتفع عن القسم الوحيد من التشريح الإنساني الذي كلما قلَّ كلامنا عنه كان ذلك أفضل. في شتاء الحياة عندما يكون الحب في أوج جذوته يكون مُحزِناً تذكُّر الموز المُرصَّع بالنجوم العائم فوق الأجزاء الحديدية من الأقسام الشرسوفية والسرّية والخلية من عِلم التشريح الإنساني. مينسكي يحلَم داخل شبّاك التذاكر، قدماه ثابتتان على الأرض العليا. ممثلو الأوبراميرغو يمثّلون في مكانٍ آخر. كِلاب التشو تُحمَّم وتُعطَّر استعداداً لاستعراض الشريط الأزرق. الأخت بلانشار جالسة في الكرسي الهزّاز ورحمها هابط. ويمرُّ دهر، ويذوي الجسد - ولكن يمكن معالجة الفَتق. عند النظر من سُلَّم الحريق إلى أسفل نرى مشهداً جميلاً، ممتداً بلا نهاية، وعربات مُحطّمة، وأحواض استحمام من القصدير، وغلاّيات القصدير، مِبشرات جوز الطِيب وبسكويت للحيوانات مقضوم منه قِطع صغيرة

---

٦٤ - ساحة الفوسغ : أقدم ساحة عامة في باريس . في الأصل كان اسمها الساحة المَلَكيّة بُنيَتْ في عهد الملك هنري الرابع ما بين عامي (١٦٠٥ - ١٦١٢)

٦٥ - هيماركت : دار للمسرح في ضواحي مدينة لندن تقدّم مسرحيات راقية باسعار مُخفّضة .

٦٦ - كوفنت غاردن : ساحة شهيرة في مدينة لندن شهيرة بمطاعنها ومحلاتها التجارية ومسارحها ودار الأوبرا وبيوت الأزياء الراقية

ومحفوظ بعناية بورق السيلوفان. إنه أسرع وأنظف استعراض أُقيمَ على وجه الأرض وقد وصلَ رأساً من شارع لابيه. أمامكم اختياران - أحدهما ينظر إلى أسفل، أسفل إلى الأعماق السحيقة، والآخر إلى أعلى، عالياً إلى نور الشمس، حيث يتماوج أملُ البعث فوق الراية البرّاقة كنجم وكلاهما مضمونا الأصالة. اثبتوا يا رجال واشهدوا خلاصَ الرب. كليو سترقص هذه الليلة، وكل ليلة وطوال هذا الأسبوع مقابل سعر هو أقلّ من تَعْرِفة الدفن العاديّة. الموت قادمٌ يحبو على أربع، كغُصين من النّفل. وخشبةَ المسرح تتلألأ ككرسيّ مُكهرَب. كليو قادمة، كليو، يا حبيبة الآلهة وملكة الكرسي الكهربائي.

الآن أصبحَ هدوءُ بلدة شيفيننغن يعمل عمله كمُخدِّر. ترتفعُ الستارة عن الكولوسيوس الثالث، وتتقدَّم كليو خارجة من رحِم الليل ؛ بطنها منتفخ بغاز البالوعة. المجد ! المجد ! إنني أتسلّق السلّم. ومن رحم الليل ينهضُ جسر بروكلن العتيق وثمة حُلمٌ خَدِرٌ يتلوّى في الزبَد ونار القمر. الأزيز والهسيس يُخربشان الشبَكات. وتلألؤ حجر الكريسوبريز الكريم الأخضر اللون، كلهب النفط. الليل باردٌ والناسُ يمشون بخُطى متشابكة. الليل بارد لكنَّ الملكة عاريةٌ إلاّ من حمّالة الأعضاء التناسلية. الملكة ترقصُ على جمر الكرسي الكهربائي البارد. كليو، حبيبة اليهود ترقصُ على أطراف أظافر قدمها المُلمّعة بالورنيش ؛ عيناها ملويّتان وأذناها مملوءتان بالدم. في الليل البارد ترقصُ بأسعارٍ معقولة. سوف ترقصُ كل ليلةٍ على امتداد هذا الأسبوع لتُفسحَ المجالَ لجسور البلاتين. آهٍ أيها الرجال، إنَّ ملكة صالة تاماني تقعُ خلف الـ Virumque Cano، خلف النظام الاثنى عشري والخطوط الجوية الساحلية. تقفُ حافية القدمين،

بطنها منتفخ بغاز البالوعة ؛ سُرَّتها تنهضُ بتفعيلة سُداسية مُرخَّمة. كليو، الملكة، الأنقى من أنقى زفت، الأدفأ من أدفأ كهرباء، كليو الملكة وحبيبة الآلهة ترقصُ على الجزء المؤلَّف من الحرير الصخري من الكرسي الكهربائي. في الصباح ستنطلقُ قاصدةً سنغافورة، وموزامبيق، ورانغون، مركبها راسٍ في المجرور ؛ خَدَمُها يعجّون بالقمل ؛ ترقصُ في عمق رحم الليل على أنغام أغنية الخلاص. إننا جميعاً هابطون بربطة المعلِّم إلى مرحاض الرجال لنقفَ على الأرض العليا ؛ إلى مرحاض الرجال حيث الجو صحّي وجاف ويُثيرُ المشاعر مثل باحة كنيسة.

تصوَّر الآن، والستارة ترتفع أنه يومٌ جميل مُنعِش ورائحة السمك الصَدَفي تفوحُ منبعثة من الميناء. تصوَّر أنكَ تمشي على ساحل الأطلسي ببذلتك الإسمنتية وجوربك ذي الأكعاب الذهبية، وهدير الطعام الصيني لا يزال يُسمع في أذنيك. الدرب الأبيض الهائل يتوهَّج بشرارات شموع الاحتراق. محطات الاستراحة مفتوحة. تحاولْ أنْ تجلس دون أنْ تكسر طيّة بنطالك. تجلس على الإسفلت النقيّ وتدَعْ الطاووس يُدغدغُ حنجرتك. المجاري تتدفق بالشمبانيا. العبق الوحيد المنتشر هو عبق رائحة السمك الصَدَفي الآتي من الميناء. إنه يوم جميل مُنعِش وجميع أجهزة الراديو تعملُ دفعةً واحدة. يمكنك أنْ تعلّق جهاز راديو في مؤخرتك - لتزيد من الصوت قليلاً. يمكنكَ أنْ تستمع إلى مانيلا أو هونولولو وأنتَ ماشٍ. في وسعكَ أنْ تضعَ ثلجاً في كأس الماء المُثلَّج الذي تشربه أو أنْ تستأصِل كليتيك معاً. إذا كنتَ مُصاباً بالكزاز يمكنك أنْ تضع أنبوباً في معيك المستقيم وبعدئذٍ تصوِّر نفسك وأنتَ تأكل. يحدثُ ذلك إذا كان يوماً جميلاً مُنعشاً ورائحة السمك الصَدَفي تفوحُ منبعثة

من الميناء. ولماذا ؟ لأنَّ أميركا هي أكبر بلد خلقه الله وإذا لم تكن تحب هذا البلد في استطاعتك أنْ تخرج منه غير مأسوفٍ عليك وتعود من حيث أتيت. ليس في العالم شيء لا تفعله أميركا لأجلكَ إذا طلبتُهُ منها كرجل. يمكنكَ أنْ تجلس على الكرسي الكهربائي وفي الوقت الذي يُمرَّر فيك التيار تقرأ نبأ تنفيذ الإعدام فيك ؛ يمكنك أنْ تنظر إلى صورتك جالساً على الكرسي الكهربائي مُنتظراً تنفيذ الحُكم.

إنه عرضٌ يستمرُ من الصباح وحتى منتصف الليل ؛ أسرع وأنظف عرض وُجِدَ على سطح الأرض ؛ سريعٌ جداً، نظيفٌ جداً، حتى إنه يجعلك يائساً مستوحشاً.

أعودُ أدراجي عبر جسر بروكلن وأجلسُ وسط الثلج قبالة المنزل الذي وُلِدتُ فيه. تتشبَّث بي وحشةٌ كثيفة تعصر القلب. لا أرى نفسي بعدُ واقفاً على بار فريدي في شارع بيغال. لا أرى العاهرة الإنكليزية بأسنانها الأمامية المفقودة. لا أرى غير خلاءٍ من الثلج الأبيض وفي وسطه المنزل الصغير الذي وُلِدتُ فيه. في ذلك المنزل حلِمتُ بأني أصيرُ موسيقياً.

أشعرُ وأنا جالس أمام المنزل الذي وُلِدتُ فيه بأني فريدٌ من نوعي تماماً. إنني أنتمي إلى أوركسترا لم تُكتَبْ لها سيمفونية واحدة. كل شيء نشاز، حتى أوبرا ***بارسيفال***. بالنسبة إلى ***بارسيفال*** – هي مجرّد حادثة ثانوية، إلاّ أنَّ لها طابعها المناسب. الأمر له علاقة بأميركا، وبحبي للموسيقى، وبوحشتي الغريبة...

ذات مساء كنتُ أقفُ في رواق دار الأوبرا الميتروبوليتانية. كانت القاعة محجوزة حتى آخرها وأنا أقفُ على مبعدةٍ حوالي الثلاثة صفوف

خلف الحاجز. ولم أكن أرى إلاّ جزءاً يسيراً من خشبة المسرح وحتى تلك الرؤية كانت تُهلكُ عنقي لكي أحققها. ولكنني استطعتُ أنْ أرسم الموسيقى، موسيقى بارسيفال لفاغنر التي كنتُ أعرفها قليلاً من خلال استماعي إليها من الفونوغراف. وفي الأوبرا أجزاءٌ مملّة، أشدّ إثارة للملل من كل ما أَلِفَ حتى الآن. ولكن هناك أجزاءً أخرى عُلويّة وخلال تلك الأجزاء العُلوية، وبما أني كنتُ مضغوطاً كسمكة سردين، حدثَ معي شيء مُربِك - حصلَ لديَّ انتصاب. إذ لابد أنَّ المرأة التي كنتُ مُلتصقاً بها قد ألهبتها أيضاً موسيقى الكأس المقدسة. كنا واقفين في مكانٍ حار، أنا وهي، مُلتصقَين بشدّة كسمكتيّ سردين. وخلال فترة الاستراحة تركت المرأة مكانها وراحت تتمشّى في الممر جيئة وذهاباً. وبقيتُ مكاني، أتساءل إنْ كانت المرأة ستعود إلى المكان نفسه. ولما بدأتْ الموسيقى من جديد عادت ؛ عادت إلى بقعتها بشكلٍ دقيق بحيث لو كنا متزوجَين لما كان الأمر كاملاً إلى تلك الدرجة. وطِوال الفصل الأخير كنا نستمتع معاً بفردوسٍ سماويّ. كان الأمر جميلاً عُلوياً، يُذكّرنا ببوكاشيو أكثر منه بدانتي، إلا أنه في كِلا الحالين كان عُلوياً وجميلاً.

أتذكَّر هذه الحادثة بحيوية وأنا جالس وسط الثلج أمام مسقط رأسي. أما لماذا فهذا ما لا أعلمه، كل ما أعرفه أنها تتعلّق بعالم خيالي وبالفراغ، بالوحشة مُحطّمة القلوب، والثلج، وانعدام الألوان، وغياب الموسيقى. فالمرء غالباً ما يسقط في النوم أثناء الخطو السريع. تبدأ بالعُلوي وتنتهي بزقاقٍ يهتزُّ طَرَباً بالحياة.

بعد ظهر أيام السبت، على سبيل المثال، أحطِّمُ الأغلال في محل بيل وودرف المُلحَق. أحطِّم الأغلال طوال فترة بعد الظهيرة مقابل نصف

دولار. ما أجمله من عمل ! بعد ذاك نعود جميعاً إلى منزل بيل وودرف لنجلس ونشرب. وعندما يحلّ الظلام يخرج بيل وودرف نظارة مشاهدة الأوبرا ونتبادلها بالدور، نتلصّص على المرأة عبر الباحة وهي تخلع ملابسها والستارة مرفوعة. ما كنا نفعله بنظارات الأوبرا كان يُثير دائماً حنق زوجة وودرف. فإذا كان الحال بينهما على ما يُرام خرجَتْ إليه بمبذلها المُرصَّع بالثقوب الكبيرة. وزوجته هذه، بنت حرام باردة، إلاّ أنها كانت تبتهج إذ تذهب إلى أحد أصدقائه وتقول له : " تحَسَّس مؤخرتي، تحسّس كم هي كبيرة " ويدّعي اللامبالاة، وتقول له " طبعاً، هيا تحسّسها ؛ إنها باردة كالثلج وهكذا تنتقل بيننا وكل منهم يقبض على مؤخرتها ليزيدها حرارة أكثر قليلاً. كانا زوجاً مُضحكاً. أحياناً يظنان أنهما يعشقان بعضهما، ومع ذلك كانت تنغِّص عليه حياته، وطوال الوقت تصدّه عنها. وكان يقول " لا يمكنني الحصول على مضاجعة منها إلا مرة في الشهر - هذا إذا كنتُ محظوظاً ! " كان يقول ذلك في وجهها. ولم تكن تنزعج منه. كانت له طريقة خاصة في الضحك على أمورٍ كهذه، وكأنَّ الأمرَ هو مجرَّد عيب تافه.

لو أنها كانت مجرّد امرأة باردة لهان الأمر، إلاّ أنها كانت جشعة. دائماً تهتفُ تريد مزيداً من النقود. دائماً هي في توقٍ شديد لشيء لا يقدران على تكلفته. لقد أهلكَتْ أعصابه، وهذا مفهوم، لأنه هو أيضاً كان ابن حرام بخيل يهوى الاستجداء. على أي حال، وفي أحد الأيام خطرَتْ على باله فكرة نيِّرة، وإذا به يقول لها " إذن تريدين المزيد من النقود، أليس كذلك ؟ حسنٌ، سأعطيكِ النقود - ولكن أولاً يجب أنْ تنزعي لي ملابسك " (فلم يخطر لابن الحرام المسكين أنَّ في إمكانه أنْ

يجد امرأة تستمتع بالمضاجعة بحد ذاتها) حسن، لا علينا. أمّا ما كان مُذهلاً حول الأمر أنه في كل مرة كان يُدخِله أكثر كانت تستمتع وتُحسِن الأداء وتتلوّى كأرنب. وذُهِلَ. لم يكن يعتقد أبداً أنها ستسمح بإدخاله فيها. وهكذا، وشيئاً فشيئاً، أصبحَ يتولّى أعمالاً إضافية لكي يوفّر رشوة صغيرة ويُغري بنت الحرام الباردة بالارتماء عليه كعاهرة مهووسة. (أبداً لم يخطر في بال الأبله المسكين هذا أنْ يُنفِق المال على فتاة أخرى. أبداً !)

في تلك الأثناء كان الأصدقاء والجيران يكتشفون أنَّ زوجة بيل وودرف لم تكن تلك المُضاجِعة الباردة كما قيل عنها. ويبدو أنها تقضي لياليها بين كلّ مَنْ هبَّ ودبّ. بحق الجحيم، لماذا لم تخصّ الزوج بجزءٍ *عالبيعة*. لم يكن أحد يتصوّر السبب. كانت تتصرَّف وكأنها متألّمة وغاضبة منه. كان الأمر على هذا المنوال منذ البدء. ولا يهمّ بعد ذلك إنْ كانت قد وُلِدَتْ باردة أم لا. فقد كانت باردة بقدر اهتمامه بها. كان في إمكانها أنْ تجعله يدفع لها حتى يوم مماته مقابل كل مرة تسمح له أكثر في إيلاجه لو لم يُعِدْه أحدهم إلى صوابه.

حسنٌ، لقد كان فتى بارعاً، هذا الوودرف ، ودنيئاً بخيلاً وابن حرام لا يبتزّه أحد، ولكن عند اللزوم كان في استطاعته أنْ يصبح ذكياً بارعاً أيضاً. فعندما سمعَ بما حدث لم ينبس بشَفَة، وتظاهرَ بأنَّ الأمور تجري في مسارها المعتاد. إلى أنْ كانت ليلة، بعد أنْ بلغَ الوضع آخر مداه، جلسَ ينتظرها، وهو شيءٌ نادر ما قام به لأنَّ عليه أن يستيقظ باكراً وكانت هي تتأخَّر في المجيء. وفي تلك الليلة انتظرها، وحين عادت وهي تترنَّح، مرحة وطروب مع شيءٍ من الإشراق، وباردة كالمعتاد، فاجأها

بالقول " أين كنت هذه الليلة ؟ " وطبعاً حاولَتْ أنْ تنسج له حكايتها المعتادة، فقال " كُفّي عن هذا. هيا اخلعي ملابسكِ وهلمّي إلى السرير وهذا ما أثار حفيظتها، فقالت له بطريقتها المُداورة إنها لا تريد أنْ تفعل ذلك، فقال لها " أظنّ أنَّ مزاجكِ ليس على ما يُرام "، ثم أضاف "عظيم، لأنني الآن سأعمل على تدفئتكِ قليلاً " وعلى الأثر قام وربَطَها إلى عمود السرير وكمّمها، ومن ثم ذهبَ ليُحضِر مِشحذ الموسى. وفي طريقه إلى الحمّام جلبَ زجاجة من الخردل من المطبخ، وعادَ بالمشحذ وراح يضربها بجمع يده. بعد ذلك أخذ يفرِك بالخردل مواقع الضرب، وهو يقول "إنَّ هذا سيُبقيكِ حامية طوال الليل". وبعد هذا القول جَعَلَها تنحني وتُباعِد ما بين ساقيها، وقال "والآن سأقوم بتسديد الدُفعة لكِ كالمعتاد" ويُخرِجُ فاتورةً من جيبه ويُكوّرها ثم يُقحمها في فرجها... وهذا كل شيء عن بيل وودرف، على الرغم من أني حين أفكِّرُ فيه أودُّ لو أُضفي عليه إشعاع قلبه الذي هجم به بشجاعة حاملاً زوجاً من الأبواق أعطته إياهما زوجته جادفيغا.

وما الهدف من ذلك كله ؟ ليُثبِت ما لم يظهر للعيان بعد، أي : **الفنان العظيم هو مَنْ يقهر السِمة العاطفية في نفسه !**

موضوع في إضبارة تحت حرف سين من أجل سُمّ الفئران.

وماذا يعني هذا ؟ تسألني.

لا داعي للارتباك، هاكَ هو... كلما حان موعد زيارة العمة ميليا في مستشفى المجانين كانت أمي تُعِدُّ دائماً أنْ تشرب قليلاً من الكومل، وعندما يحين الوقت لتقوم أمي بزيارة مأوى المجانين لتقول لِمِلْ حسناً يا

مِلْ ما رأيك بالكومل فتهزّ مِل رأسها وتقول عن أي كومل تتحدثين إنني لا أرى أيّ كومل الحقيقة هي أنني دائماً أقول إنها مجنونة وطبعاً أعطيتُها الكومل. ماذا يعني صبٌّ بضع نِقاط من الكومل في بلعوم مِلْ في وقتٍ بلغَ فيه اضطراب عقلها حداً أصبحَ كفيلاً بدفعها إلى ابتلاع برازها ؟

إذا كان الجو صحواً جميلاً وكان صديقي ستانلي قد فوَّضه عمه الحانوتي بحمل وليدٍ ميت إلى المقبرة كنا نستقل معدّية إلى جزيرة ستاتن وبعد أنْ يغيبُ تمثال الحرية عن الأنظار يُلقيه في الماء ! وإذا كان النهار ممطراً نمشي إلى منطقةٍ أخرى ونلقي به إلى مجرور. كان يوم كذاك يُعَدُّ يوماً احتفالياً بالنسبة إلى حشد جرذان المجاري التي تعدو خلال ممرات العالم الأعلى. في تلك الأيام كان الوليد الميت يدرُّ دخلاً عالياً يصِلُ حتى عشرة دولارات. وبعد أنْ نمتطي المزلجة كنا نترك دائماً قليلاً من البيرة البائتة لنشربه في الصباح لأنَّ أفضل شيء في العالم من أجل إزالة آثار السُكر هو شرب كأس من البيرة البائتة..

إنني أتحدث عن الأمور التي جَلَبَتْ لي الارتياح في البدء. إنكَ في بداية العالم، في حديقةٍ مُحاطةٍ من كل جانب كصندوق. السماء مُحدَّدة ككثبان رملية ولا يوجد مجرد قبة سماوية واحدة بل ملايين القِباب، قشرة كل كوكب منحنية على هيئة عين، تشبه إلى حدٍ بعيد العين الإنسانية التي لا هي تطرُف ولا تغمز. إنكَ على وشك أنْ تباشر تأليفِ كتابٍ جميل وفيه ستسجِّل كل ما سبَّبَ لك ألماً أو فَرَحاً. وهذا الكتاب، عندما سيتم، سيُسمّى ***مقدمة نقدية للا وعي***. سوف تُلبِسه جلد جدي أبيض وستكون الأحرف مكتوبة بشكلٍ نقش ذهبي نافر. سيكون سرداً

لقصة حياتك دون تنقيح. وسيرغبُ الجميع في قراءته لأنه سيحتوي الحقيقة المُطلقة ولا شيء غير الحقيقة. هذه هي القصة التي تجعلك تضحك أثناء نومك، القصة التي تجعل دموعك تطفَر مدراراً وأنت واقف وسط قاعة الرقص وإذا تدرك فجأةً أنه لا أحد ممَّن حولك يعرف مقدار عبقريتك. كم سيضحكون ويبكون لو أنهم يقرؤون الحقيقة المُطلَقَة وكيف أنه لم يجرؤ أحدٌ حتى الآن على كتابة هذه الحقيقة المُطلَقَة عداك وهذا الكتاب الحقيقي الموصَد داخلك سيدفع الناس إلى الضحك والبكاء كما لم يضحكوا أو يبكوا من قبل.

في البدء إليكَ ما يبعثُ على الارتياح - إنه الكتاب الحقيقي الذي لم يقرأه أحد حتى الآن، الكتاب الذي تحمله معك كيفما اتّجهت داخلك، الكتاب المُلبَّس بالجلد الأبيض ومنقوشٌ عليه بحروفٍ ذهبيةٍ نافرة. في ذلك الكتاب هناك العديد من الأبيات الشِعرية التي تكنُّ لها **ولعاً جارفاً**. منه استُنبِطَ الإنجيل، والقرآن، وجميع كتب الشرق المُقدَّسة. كل تلك الكُتُب أُلِّفَتْ عند ابتداء العالم.

والآن سأُخبركَ عن النواحي التقنيّة لهذه الكُتُب، وهذا الكتاب الذي أنا بصدد شرح أصل تكوينه...

عندما تفتح ذلك الكتاب ستلاحظ على الفور أنَّ للرسوم نكهة مُخاطيّة غريبة. سوف ترى على الفور أنَّ المؤلِّف قد تخلّى عن الوهم البصري لصالح مشهد ما قبل العصر الصنوبري. والصورة المواجهة عادةً هي صورة شخصية تُسمّى Praxus وتبيِّن المؤلِّف واقفاً على مقدمة الدماغ الأوسط مرتدياً زي البهلوان المُلتصق بالجسم. ودائماً يضعُ على عينيه نظارات ذات عدسات سميكة، مُحدَّبة، ذات حافة ٣١ - U. في الحياة

اليقظة العادية يُعاني المؤلّف من الرؤية الطبيعية أما في الصورة المواجهة فيجعل نفسه محسوراً لكي يقبضُ على فوريّة تشكُّل الحُلم. وبواسطة تقنية الحلم يسلخ الطبقات الخارجية للفنائيّة الجيولوجية Geologic Mortality، ويتوصّل بمعيّة ذاته التنبؤية الحقيقية، للقبض على منطقة لا طِباقية non-stratified ذات خاصّية شبه مائعة. الفرق الوحيد هو أنَّ الجانب غير المتبلورِ من طبيعته أصبحَ الآن شرعياً صحيحاً. وبحجب الجانب المرئي من أناه يُخفِّض هو عتبة أساليبه الانفصامية المعتادة. ويسبح بفرح ad lib (على هواه)، في السائل النخطي amniotic fluid، مع ذاته الأميبية.

لكنكَ تسأل، وما هي أهمية العصفور الموجود في يده اليسرى ؟

ولَوْ، إليك السبب : العصفور هو كيانٌ ميتافيزيقي خالص - نموذج رباعي من طيور الدودو الأصيلة ؛ له ثقب صغير جداً في منطقة الظهر يُلقي منه مواعظَ أخلاقيّة في طبيعة الأشياء كلها. إنَّ نوعه مُنقرض، أما بوصفِه مثلاً أَعلى فلا يزال يُحافظُ على وجوده المادي - هذا إذا حُفِظَ في حالَةِ توازن. وقد خلّده الألمان في ساعة الكوكو ؛ وفي بلاد سيام يوجد رسمه على قِطع نقد العائلة الحاكمة الثالثة والعشرين. وسوف تُلاحظ أنَّ الجناحَين ضامران - لأنَّ في إغماءة الحُلم الكاذبة لا يحتاجُ إلى أَنْ يطير ؛ كل ما يحتاج إليه هو أنْ ***يتخيَّل*** أنه يطير. مفاصِل المنقار مخلوعة قليلاً منذ أنْ ضاعت حوامل الكُريات الصغيرة أثناء طيرانه فوق صحراء غوبي. الطائر ليس فاسقاً على الإطلاق ولم يُعرَف عنه أنه خان عشّه. إنه يضعُ بيضةً مُنقّطة يصلُ حجمها إلى حجمَ حبة جوز هند حين يوشك أنْ يمرّ بعمليّة التحوُّل. وعندما يجوع يتغذّى على المُطلق، ولكنه ليس طائراً جيفيّاً. إنه من النوع المُهاجر على وجه التحديد، وعلى الرغم

من جناحيه اللا وظيفيين، فهو يطيرُ ودون توقُّف عبر أصقاعٍ خياليّة في مساحتها.

إذا كان هذا واضحاً يمكننا أنْ ننتقل إلى شيءٍ آخر - إلى الموضوع الخاصّ المتدلّي من مِرفق المؤلّف الأيسر، مثلاً. ويجب أنْ أعترف متواضعاً أنه يتّصِف بصعوبة زائدة أثناء شرحه، لأنه صورةٌ لجمالٍ عظيم شَرطيّ يتملّك أنسجة الندبة الموجودة على الدماغ الخلفي. في أول الأمر ستلاحظ أنه على الرغم من أنه يُلامس المِرفق فهو لا يتدلّى منه. إنه يقعُ عند نقطة اتّصال الساعد وأعلى الذراع بشكلٍ مُقارب - بمعنى أنه رمزٌ ومفهوم فكري مُكثَّف. الأرقام الموجودة على الكفة السُفلى تتطابق مع أدواتٍ رونيّة[٦٧] runic معيّنة نتجَتْ عن الاختراع العلمي المعروف باسم metronym. هذه الأرقام تكمنُ في جذور جميع المؤلفات الموسيقية - باعتبارها ذات صِفة رياضيّة عصيّة على القياس. هذه الأرقام تُعيد الدماغ إلى تشكيلاتٍ عُضوية organic modalities حتى تدعم البنية والشكل استمرارية المنطق الأنيقة.

هذا التوضيح الزائد جعلني أضيفُ أنَّ المادة المخروطيّة الموجودة في الجزء الخلفي يجب ألاّ تكون بالضرورة قابلة إلاّ لتفسيرٍ واحدٍ لا ثاني له وهو: الكسل. ليس الكسل العادي، كما يقرّه مبدأ بولين، بل نوع من نوبة بلغم لا إرادية يُسببها دخان المتعة الرديء. ولا يكاد يكون ضرورياً أنْ أُشدِّد على أنَّ الهالة الموجودة فوق المادة المخروطية لا هي حلقة رمي ولا حتى طوق

---

٦٧ - الرونيّ نسبة إلى الحرف الروني ، وهو حرف من حروف أبجدية تيوتونية قديمة .

نجـاة، وإنما هي ظاهرة مـعـرفـيّـة صِرفـة epistemological phenomenon، أو بمعنى آخر هي phantastikon اتَخذ موضعه في حَلَقات زُحل الكئيبة.

والآن، عزيزي القارئ، أرجو أنْ أُصنِّف هذه الصورة بعيداً تحت حرف باء باعـتبـارها نبات البيـتـونيـا. هل لأحدكم أنْ يتـفـضَّل ويُجرِّب قـبل أنْ ننزل ونلقي النظرة الأخـيـرة على ذلك الوجـه العـزيز الميت ؟ هل أسـمعُ أحدكم يتكلَّم أم أنه حذاءٌ يصرُّ ؟ يُخيَّلُ إليّ أني أسمعُ أحدكم يسأل عن شيءٍ ما. أحدكم يسألني إنْ كان الظلّ الصغير الموجود عند خط الأفق هو لقـزم. هل أنا مُـحقّ ؟ هل أنت الذي يسـألني يا أخ إيتـون إنْ كـان ذلك الظل الصغير الموجود عند خط الأفق هو لقزم ؟

الأخ إيتون لا يعرف ؛ يقول ربما نعم وربما لا أيضاً.

حـسنٌ، أيهـا الأخ إيتـون، أنتَ مُـحِقّ ومُـخطئ. مُـخطئ لأنَّ المعـادلة مُعلّمة بعـلامـة النجمة في حين أنَّ الإشـارة تشـير بوضـوح إلى اللا نهـاية، وأنتَ مُـحِقّ لأنَّ كل مـا هو خطأ له عـلاقـة بالـشك ومن أجل طرح المادة الميّـتة لا تكفي الحقنة الشرجيّة. إنَّ ما تـراه، أيها الأخ إيتـون، عند الأفق لا هو بالقـزم ولا هو بالقـبعـة المُجعّدة ؛ إنه براكسـوس ؛ إنه ينكمش حتى يصـل إلى أدنى أبعـاده ؛ إلى الحـجم الذي يُصـبح فـيـه حـجم الشـمع البراكسي عظيـماً. بينما براكسـوس يتخطّى حدود القمر الثانوي الرتبة يتخلَّص شيئاً فشيئاً من الصورة الدنيوية. وقـليلاً فقليلاً يتـجرَّد من مرآة الجـوهر. وبعـد أنْ يُهـشّم آخـر وَهْم لن يُلقي براكسـوس بعـدها أي ظل. سيـقفُ على الموازي التـاسع والأربعين من نشـيـد الرعـاة غـيـر المكتـوب ليتـبدَّد في نارٍ باردة. لن يكون هناك جنون عَظَمـة بعـد اليوم، بما أنَّ كل شيء أصبح مـتسـاوياً. سيغيِّر الجسم جلده وستعرِضْ أعضـاء الإنسـان

نفسها شامخة تحت النور. إذا كانت ستنشب حرب فأرجوك أنْ تُعيد ترتيب الأحشاء وحسب أهميتها الفَلَكيّة. الصبح ينبلج على الأمعاء. لا منطق بعد الآن، ولا تنبّؤ بحالة الكبد. سيكون هناك حل جاهز. مُصنَّف تحت الحرف A ليدل على كلمة anagogic (المؤوَّل باطنياً)

مهووس المدينة العُظمى

تخـيَّل أنكَ لا تملك بين يـديك غـيـر قَـدَرك. وتجـلـس عـلـى عتبة باب رحم أمِّـك وتقتل الوقت - أو الوقت يقتلك. تجلس هناك ترتِّل مُـسـبِّـحاً بحـمـد أشـياء بعـيـدة عن منالك. نائـيـة. نائية إلى الأبد.

تكون المدينة في أوج جمالها حين تبدأ جَلَبة الموت العذب. حياتها الخاصة تُعاش على شكل تحدّي الطبيعة، كهرباؤها، وبرّاداتها، وجدرانها المانعة للصوت. تُشيَّد الجدران الجافة صندوقاً داخل صندوق، وومض الأظافر المائعة، والريش المتموِّج عبر السماء المتغضّنة. هنا في أغوار الكَفَن تنمو الأزهار الأبدية المُرسلة برقيّاً. وفي السراديب الكائنة أسفل حوض النهر يُسبَكُ الذهب. وتتلألأ صحراءٌ بالميكا والهاتف يرنّ بصوتٍ عالٍ.

في بداية المساء، حين يُقعقعُ الموتُ العمودَ الفقري، يتحرك الحشد كتلةً واحدة، الكتف بالكتف، وكل فردٍ من القطيع الهائل تقوده الوحشة، صدراً بصدر باتجاه سور النفس، مُحبَطين، معزولين، سردين فوق سردين، الكلّ يفتشون عن فتّاحة عُلَبْ عالمية. في بداية المساء، حين يُمطَرُ الحشد بالكهرباء تقفُ المدينة جمعاء على قوائمها الخلفية وتُحطِّمُ البوابات. وينهار الإنسان المُجرَّد وسط التشتُّت المذعور، كئيب النفس، يُدوِّم في مجرور وحشته العميقة.

اسمٌ واحد موسوم عميقاً. هوية واحدة. الكلّ يدّعون الجهل، وأنهم لم يعودوا يتذكّرون شيئاً، لكنَّ الاسمَ موسوم بعمق، عميقاً إلى الداخل كعمق أبعد نجم في الفضاء. يمتد هذا الاسم، مالئاً كل الفراغ والزمن،

خالقاً وحشةً لا متناهية، ليُصبح ما كان عليه وما سيكون عليه - أي ***الله***. إنَّ الله موجود ضمن القطيع، يتحرَّكُ بقدمين صامتتين، وسط التشتُّت المذعور، الأشد ضراوة من أعظم خوف. الله يحترق كنجمٍ في قُبّةِ سماءِ الوعي الإنساني : إله الجواميس، إله أيل الرنة، إله الإنسان... ***الله***.

أشدّ ما يكون الله غائباً هو عن حشدٍ بلا إله. أشدّ ما يكون الله غائباً هو عن تشتُت أول المساء حين يُقعقع العمود الفقري ببرقيات الموت وأغنية حب تتغلغلُ في الخلايا العصبية كلها وتنبعث من كل دكان في شارع برودواى تراجيع أجهزة المذياع بمساعدة المُكبِّر ولاقط الصوت مع مضخّمات صوت ومُقرّنات. ليس هناك ما هو أشد وحشة من حشد متلاطِم، من إنسان المدينة الذي يشعر بالوحشة مُحاطٌ بمخترعاته، والباحث الضائع يغرق في الهوية العامة. آخر القِلاع مبنيّة من الحب المفقود اليائس المستوحش، صَرحُ الله المُصَمَّم على شكل متاهة. لا مهرب من ذلك الملجأ الأخير إلاّ نحو السماء. من هنا ننطلقُ إلى المنزل، مُخلّفين وراءنا أقنية أثيرية غريبة.

بعد أنّ يملّ الحياة السرّية ينبت لهذا الدودة جناحان. ويغوصُ مباشرةً، مُجرَّداً من حاسة البصر، والسمع والشم، والذوق، داخل المجهول، بعيداً ! بعيداً ! إلى أي مكان خارج العالم ! إلى زُحل، أو نبتون، أو النسر الواقع - لا يهمّ أين، المهمّ أنْ يكون بعيداً، بعيداً عن الأرض ! هناك عالياً في الفضاء الأزرق، والمفرقعات النارية تفرقع في ثقب مؤخرته، يجن الدودة - الملاك. إنه يأكل ويشرب وهو مقلوبٌ رأساً

على عقب، وينام مقلوباً، يُضاجع مقلوباً. وحين يكون في أقصى سرعته يُصبح جسمه أخفّ من الهواء، وحين يتحرَّك بإيقاعه الأقصى لا يكون هناك إلاّ الاحتراق التلقائي للحلم. ويرفرف بجناحيه وحيداً في الفضاء الأزرق متوجهاً نحو الله ومُحركاته تهدر. إنه التحليق الأخير! آخر حلم بالولادة قبل أنْ يُبقَر الكيس.

أين هو الآن ذاك الذي جاهد ليتخلَّص من الكوابيس الأبدية مُنطلقاً نحو النور؟ مَنْ هو الذي يقف على سطح الأرض برئتين مُحطّمتين، وسكّين بين أسنانه، وعيناه تتلظيان؟ قَسَّاه الحزن والأسى، يقفُ مشدوهاً وسط الدفق السريع الفاسد للعالم الأعلى. ما أعظم رؤية العالم من خلال عينين محتقنتين بالدم! ما أشدّ بهجة وإثارة إمبراطورية الإنسان! إنه الإنسان! انظر، ها هو ذا يجري منطلقاً على زحّافته الصغيرة، ساقاه مبتورتان، وعيناه مُقتلعتان. ألا تسمعه يعزف؟ إنه يعزفُ ***أغنية حب*** وهو ينطلقُ على زحّافته الصغيرة. في المقهى يجلسُ وحيداً مع أحلامه وتحت قلبه مسدس، كأنه رجل آخر، مُبتلٍ بداء الحب. ورحل الزبائن كلهم ما عدا هيكل عظمي يعتمر قبعة. الرجل وحيدٌ مع وحشته. والمسدس صامت. وإلى جانبه كلب مع عَظْمَته، والعظمة لا تفيد الكلب. والكلب أيضاً وحيد. ومن خلال النافذة تصبُّ الشمسُ أشعتها؛ تسطعُ ببريقٍ شاحب على جمجمة العاشق المحروم الخضراء. الشمس تتعفَّن ببريق شاحب.

جميلٌ جداً شتاء الحياة، بالشمس التي تتعفَّن وتضمحلّ والملائكة تطير صوب السماء والمفرقعات النارية في مؤخراتهم! نجوب الشوارع بهدوء متأمّلين. الملاعب الرياضية مكشوفة ويستطيع المرء أنْ يشاهد

الرجالَ الجُدُد المصنوعين من بواري المدافئ ومن أسطوانات تدور وِفقاً لجدول معيَّن ومُخطط بيانيّ. الرجال الجُدُد الذين لن يبلوا لأنَّ الأجزاء يمكن استبدالها دائماً. رجالٌ جُدد بلا عيون، أو أنوف أو آذان أو أفواه ؛ رجالٌ موَّدون بحلقات تنزلق عند مفاصلها وهناك مزالج مُثبَّتة إلى أقدامهم. رجالٌ لديهم مناعة ضد الانتفاضات والثورات. ما أبهج الشوارع وأشدّ ازدحامها ! على باب قبو يقفُ جاك الخنّاق يُلوِّحُ بفأس : الكاهن يعتلي السقالة، والانتصاب يكاد يمزّق فتحة بنطاله، وكُتَّاب العدل يمرّون حاملين حقائبهم المنتفخة والأبواق في ذروتها. الرجال مُنتشون بحرّيتهم المُكتَشَفَة حديثاً. جلسة استحضار أرواح سرمدية مُزوَّدة بمكبرات صوت وشريط التلغراف الكاتب ؛ رجالٌ بلا أذرع يُزوّدون بأسطوانات شمعية، مصانع تُشغَّل ليل نهار، تنتج مزيداً من السجق، مزيداً من بسكويت البريتزل، مزيداً من الأزرار، مزيداً من الفؤوس الماضية، مزيداً من الحِراب، مزيداً من فحم الكوك، مزيداً من صبغة الأفيون، مزيداً من المسدسات الأوتوماتيكية.

لا أستطيع أنْ أتذكَّر يوماً أجمل من هذا في أينع أوقات القرن العشرين. الشمس تتعفَّن وتضمحل ورجلٌ يجري على زلاجة صغيرة يُصفّر **لحن حب** على ناي البيتشولو. هذا اليوم يشرق في قلبي بذلك البريق الشاحب بحيث إنني لو كنتُ أتعس إنسان في العالم لما أردتُ أنْ أغادر الأرض.

أي إجلاءٍ رائع هذا، هذا التحليق الأخير صوب السماء من الصرح المقدس ! والنظر إلى أسفل إلى الأرض يبدو ناعماً مُحبّباً من جديد.

الأرض مجرَّدة من البشر. ناعمة وجميلة هذه الأرض المجرَّدة من البشر. وقد تخلّصتُ من صائدي الله، تخلّصتُ من ذُريّة الدعارة، أُم الخليقة كلها تشقُ طريقها من جديد بسموّ وجلال. الأرض لا تعرف إلهاً، لا إحساناً، لا حباً. الأرض هي رحمٌ يخلقُ ويُدمِّر. الإنسان لم يُخلَقْ من الأرض، بل من الله. إذن دعوه يذهب، عارياً مُحطّماً، فاسداً، مُجزّءاً، أكثر عُزلة من أعمق عقيق.

اليوم لا يزال القليل من التقدُّم والاختراع يرافقانني في مسيرتي إلى قمة الجبل. وغداً ستنهار كل مدينة عالمية. غداً سيموت كل مخلوق متمدّن سيموت من السُمّ أو الفولاذ. أما اليوم فلا يزال في إمكانكَ أنْ تغسلني بأغاني الله الرائعة عن الحب. اليوم لا يزال هناك موسيقى الحُجرة، والحلم، والهلوسة. ***الخمس دقائق الأخيرة*** ! حلم، لحن فيوغ بلا مقطعٍ ختاميّ. كل نغمة تتعفَّن حتى الاضمحلال كحلمٍ ميّت مُعلّق. غنغرينا غاصَ فيها لحنٌ بنتانته المتقيّحة. وحالما يشعر الكائن الحيّ بأنَّ الموت أصبح في متناوله يبدأ بالارتجاف من النشوة. إنها إثارةٌ تتنامى حتى تصيرُ تعاسةً ظافرة - تعاسةُ فرقةِ الموت، عندما يُصبحُ الطعام والجنس واحد. إنها الدوامة ! وفيها يغوصُ كل شيء وينزلُ غائراً معها إلى الأعماق ! المتوحش البربري، المجهول الذي بدأ من المحيط وانطلقَ يبحث عن ذيله ويتحرك مُقترباً شيئاً فشيئاً بمساراتٍ لولبيّة متاهيّة عظيمة حتى يصل إلى المركز النهائي حيث يدورُ حول نفسه على محور الذات مع توهُّجٍ يُرسِلُ فيضاً نورانياً عبر جميع سُرادقات الروح : يدورُ غولُ الروح وإزميلها مجنوناً ونهماً، يدورُ بشبقٍ نابذٍ وضراوةٍ إلى أنْ

ينطلق مُدمدماً من خلال الثقب الموجود في مركز ذاته : ويغوصُ كحقيبة غاز - القبة السماوية، القبو، الدعامات، الجِلد، الدم، النسيج، العقل والقلب كلها مُستَهلَكة، مُفترَسَة، وغائبة تماماً في عَدَميّة خِتاميّة.

*

هذه هي المدينة، وهذه هي الموسيقى. من العُلَبْ السوداء الصغيرة ينبثقُ نهرٌ لا ينتهي من الرومانسية تبكي فيه التماسيح. الكل يسيرون يبغون قمة الجبل. بخطوة واحدة. ومن منزل القوة في الأعالي يُغرِقُ اللهُ الشوارعَ بالموسيقى. الله هو الذي يبعثُ الموسيقى في مساء كل يوم حالما نغادر أعمالنا. بعضنا يأخذ كِسرة خبز، وآخرون ينالون رولز رويس. والكل يتجهون نحو بوابات الخروج، والخبز البائت مُخزَّن في علب النفايات. ما الذي يُحافظ على انسجام حركة أقدامنا ونحن في طريقنا إلى قمة الجبل المُشعة ؟ إنها أغنية الحب التي سمعها الحكماء الشرقيون الثلاثة من المَعْلَف. وكان رجلٌ مقطوع الساقين، مقلوع العينين، يعزفها على ناي البيتشولو وهو يجري في أحد شوارع المدينة المقدسة على زحّافته الصغيرة. أغنية الحب هذه هي التي تنساب الآن من ملايين العُلب السوداء الصغيرة في اللحظة التاريخية الدقيقة بحيث إنه حتى إخوتنا السُمر الصِغار في جُزُر الفيليبين يمكنهم سماعها. أغنية الحب هذه هي التي تنفحنا القوة لبناء أعلى الأبنية، ولإطلاق أكبر البوارج الحربية، ولإقامة الجسور عبر أوسع الأنهار. هذه الأغنية هي التي تمنحنا الشجاعة على قتل ملايين البشر مرة واحدة بمجرَّد الضغط على زر. هذه الأغنية التي تزودنا بالقُدرة على نهب الأرض تاركين خلفنا كل شيء يباباً.

أسيرُ نحو قمة الجبل وأنا أدرس التقاطيع القاسية لأبنيتكم التي ستنهار غداً وتتقوّض ثم تتحوّل إلى دخان. أدرسُ برامجكم عن السلام التي ستنتهي بوابل من إطلاق الرصاص. أدرسُ نوافذ مخازنكم البرّاقة المُزدحمة بالمخترعات التي لن تكون لها غداً أية فائدة. أدرسُ وجوهكم المهترئة التي شوّهها الكدّ، وظهوركم المقوّسة، وبطونكم المتدلّية. أدرسكم فرداً فرداً وضمن الحشد - أي نتانة تفوح منكم ! نتانتكم تشبه نتانة الله بكل حبّه الرحيم وحِكمته. الله آكل البشر ! الله وحش البحر الذي يسبح مع عوائله !

الله هو، ودعونا لا ننسى ذلك، الذي يُدير مفتاح المذياع كل مساء؛ وهو الذي يغمر عيوننا بالنور الساطع المُبهر. وقريباً سنكون معه، نتقوقع في حضنه، نتجمّع في النعيم والأبدية، وحتى مع " الكلمة "، كلنا سواسية أمام القانون. كل هذا سيحدث من خلال الحب، الحب العظيم الذي تكون أقوى المُحركات بالمقارنة معه مجرّد بعوضة تطنّ.

والآن سأغادركم وصرحَكم المقدّس. أنا ذاهب الآن لأجلس على قمة الجبل، لأنتظر عشرة آلاف سنة أخرى بينما أنتم تجاهدون لشقّ طريقكم نحو النور. أتمنى، في هذه الليلة فقط، أنْ تخفتوا الأضواء، وأنْ تخفضوا صوت المُكبرات. هذه الليلة أودّ أنْ أتأمّل قليلاً في سلام وهدوء. أودّ أنْ أنسى لفترة وجيزة أنكم تعجّون في كل مكان من قِرص عسلكم الذي يساوي خمسة دولارات وعشرة سنتات.

غداً قد تجلبون الدمار إلى عالمكم. غداً قد تغنّون في الفردوس الكائن فوق خرائب مُدُنكم العالمية المُدخّنة. أما هذه الليلة فأودّ أنْ أفكّر

في رجلٍ واحد، في فردٍ واحد، رجل لا اسمَ له ولا وطن، رجل أحترمه لأنه لا يشترك معكم في أي شيء على الإطلاق - إنه أنا بذاتي. هذه الليلة سأتأمّل في كينونتي أنا.

لوفيسين - كليشي - فيلا سورا

١٩٣٤ - ٣٥

" ربيع أسود " هو الكتاب الثاني في الترتيب الزمني من بين مؤلفات هنري ميللر . " مدار السرطان " كان الأول ، وصدر في عام ١٩٣٤ ، ثم " ربيع أسود " الذي صدر في عام ١٩٣٦ ، وأخيراً " مدار الجَدي " في عام ١٩٣٩ . الروايات الثلاث تُعتَبر ثلاثية بصورة ما . ف " مدار السرطان " يحكي فيه ميللر عن جوانب من حياته في مدينة نيويورك . و " مدار الجدي " تحدّث فيه عن تجربته في مدينة باريس ، خلال سنوات تسكّعه ومحاولة إثبات ذاته كأديب . أما " ربيع أسود " فهو وسط بينهما . إنه ليس رواية بالمعنى التقليدي للكلمة ، فهو ليس سرداً تقليدياً لجوانب من سيرته الشخصية ، بل فصول متفرِّقة يستعرض ميللر من خلالها طاقته في الكتابة الإبداعية . إنها طاقة فريدة لا تشبه تجربة أي كاتب قبله ، يكشف فيها عن قدرته على تحويل السيرة الذاتية إلى فصول شِعرية غاضبة وساخرةٍ مما يفعله المجتمع بمُبدعيه وعباقرته إذا لم يعوا أنفسهم ذاتياً ويعتمدوا على رعاية عبقريتهم بأنفسهم ، وهكذا ينتهي الكتاب : بأنشودة يُمجِّدُ فيها المُبدع ذاته الواعية واعتماده على نفسه في إبرازها ورعايتها : إذا لم تعي ذاتك المُبدعة وترعاها فلن يتعرَّف عليها أحد أو يرعاها .

ISBN 2-84306-002- X
9 782843 080029